وزارة الثقافة

أنيسة

جبرائيل أبو سعدى

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

أنيسة
أو
رواية إخوان العدل

تأليف: جبرائيل أبو سعدى

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٢

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: جبرائيل أبو سعدى
اسم الكتاب: أنيسة أو رواية إخوان العدل
الطبعة الأولى: ١٩٤٢

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: تصوير خليل رعد

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

أنيسة
أو
رواية إخوان العدل

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

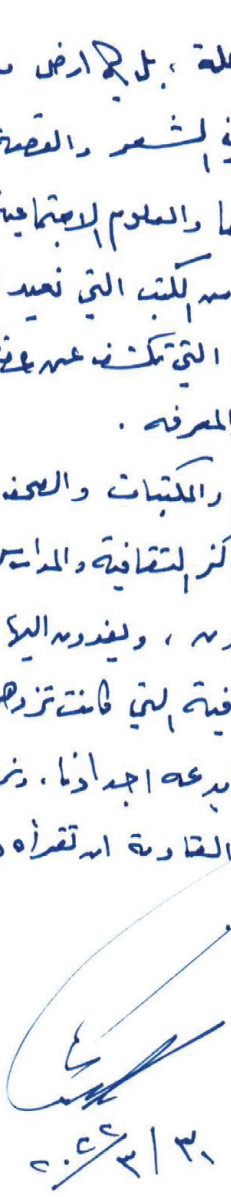

كلمة

ليست الرواية التي أقدمها اليوم إلى شباننا وفتياتنا من تلك التي تسمّم الأفكار، وتقتل العواطف الشريفة، أو تتسفّل بها إلى درك الرذيلة والعار. ولا هي من تلك التي تملأ القلب فراغا قاتلا لخلوها من كل مغزى أدبي تنزع إليه النفس بدهيا. بل هي رواية بعيدة المرمى جميلة المغزى، ترمي إلى تبيان جمال الفضيلة المتألمة الصابرة، وإلى تأثيرها على المجتمع. وقد اقتبستها عن رواية فرنسية بعد مفاوضة ذوي الشأن فيها. وتصرفت فيها تصرفا يقتضيه سير حوادثها فبدّلت وغيّرت فيها أمورا جمّة: فقد حذفت مشاهد رأيتها تعطل مجرى الكلام، وزدت غيرها تربط المعاني والحوادث وتبرز المغزى الأدبي بثوبه الكامل الفضفاض، وكلّ هذا لا يسمح أن أنسب الرواية إلى كاتبها الاصلي ولو أني احتفظت أحيانا بعض الأسماء على ما وردت في الأصل.

فبطلة الرواية فتاة في ريعان صباها، ورونق جمالها، تغزو قلب زعيم جبار فيُتيَّم بها وهو يُتيّمها، لكنها لم تذعن لصرخات الهوى الذي يصاولها إلا بعد أن توصلت إلى قلب حياة محبوبها، فجعلت منه عضوا نافعا في المجتمع بعد أن كان أفّاقا عاتيا.

فعسى أن تثير نفس د. «أنيسة «العالية السامية مثل ذلك التصون والشهامة والشرف في نفوس فتياتنا فيقمن بعمل الإصلاح الذي ينتظره منهن عصرنا. فالنساء قوة عظيمة وركن متين في بنيان الحضارة الحقة التي ننشدها متلهفين. كيف لا، «والمرأة التي تهز السرير بيمينها، تهز العالم بيسارها».

الجزء الأوّل

الفصل الأوّل

اللّقيا

- على رسلك، يا أخت حنة، علام هذه السرعة؟ فها قد أعييت واعتراك العناء، وأخاف لك ضُرا آن الوصول، فاقتدي إذن وتمهلي.

- قد أمرتني الأم الرئيسة أن أحمل قبل هجوم الليل، أيتها الآنسة أنيسة، وأنت ترين أن النهار قد مال، والأصيل يدلهم، لأن الشمس آذنت بالمغيب، فكان اليوم عليّ عدة مهمات قضيتها، فلذا تأخرت...

- لا أظن أن الأم الرئيسة ستغضب، إذ ليس في التأخر جناح علينا، إذ ما زلنا ننشط ونجد، وهو الوقت قد فاتنا... أنظري يا أخت حنة، ما أحلى المساء، ولما تلفظت أنيسة بهذه الكلمات فتحت للنسيم رئتيها لكي تستنشق من الهواء اللين الناشف ليتجدد ما اعتراها من الخور والتعب، وكانتا إذ ذاك في أهدأ شوارع باريس، وهو يشبه مدينة من مدن الصعيد الوادعة، ببناياته العتيقة، التي لم يمح عنها قدم الزمان ما زهت به في أيام خلت من عظمة وخامة - فالسكون سائد شامل، لا يعكره إلا الفينة بعد الفينة مرور سيارة تدرج بهدوء، حذرا من أن تعبث بالسكون المخيم، ولا يرى من المارة إلا أفرادا يكادون يعدون على البنان يسيرون صامتين.

فخامر قلب الراهبة خوف إزاء هذا السكون، المنتشر فوق الشارع الخالي، ومما زاد في فرّقِها ما عاودها من ذكرى سطوات الأوباش المنبثين ليلا في تعاريج الشوارع والأزقة، وما أحدثوه من المآسي المؤلمة، التي

رجعت جدران الدير صداها فألقت الرعب والهلع في قلوب الراهبات الوادعات، إلا أن أنيسة لم تعبأ بهذه الهواجس، وهاجسها الأوحد هو أن تتمتع بهذه النزهة الحالية مع الراهبة الخائفة، وإن تنعم بهذه الفرصة الهانئة التي تخرجها عن المألوف والمعتاد من عيشة الدير المنظمة، لأنها، مع شديد حبها للراهبات وحسن ألفتها معهن، لم تزل تشعر أحيانا بغيوم حزن تمر على وجهها فتقطبه عندما تتذكر الأهل والأخدان فتود أن يتاح لها لقياهم، فلا يعطى لها، فترى نفسها إذ ذاك كالطائر السجين اليائس أمام الجو الفسيح والفضاء العريض... وهي قد تعودت، منذ طفولتها، أن تمرح حرة طليقة، تشرب الهواء حينما نفح، وهي تجوب المروج والبطاح، في سهول بريطانيا الخضرة حيث كان السيد فالار يفلح الأرض، والسيد فالار هو جدها، كان تبناها مع أخيها موريس بعد وفاة والديها، فاحلها في قلبه محل أبيها لأنه كان يرى في ملامحها قسمات ذلك العزيز الراحل، فاعتني كل الاعتناء بتربيتها وتثقيفها، وأشربها أجود المبادئ، ودربهما على أمور دينها بكل دقة واحتراس وحاول أن يزين عقل أنيسة الحاد الذكي بما يليق من العلوم والفنون، إلا أن المنية قد عاجلته واخترمته سريعا بعد أوبتِه من سفر قام به إلى نرماندیا، فتجرعت أنيسة من الحزن والحسرة ما كاد يودي بحياتها لو لم يشجعها ذكر أخيها الذي أصبحت له العائل والمربي، فشددت عزائمها وتَسَالَت جدها لتُرهف كل قواها لمهمتها الجديدة.

إلا أن المحن إذا ما صوبت أسهمها إلى أحد، تأبى إلا أن تهوي عليه تباعا، وهكذا قد دهمت المصائب هذين اليتيمين، وأدمت منها الفؤاد مرارا.

فإن ابن عم، لم يكونا يدريان به، ولا لها به أدنى معرفة ولا إلمام، قد أخذهما تحت حمايته، فاعتم أن فرق بينها إذ سلك موريس في مدرسة داخلية من مدارس باريس، وألحق أنيسة وهي تناهز السادسة عشرة من عمرها في دير الراهبات لكي تتم تثقيفها، فهي أول مرة يفترق فيها الأخوان، فقد شعرا أن الوداع بآلام وأحزان لا يدرك مداها إلا الذي طبع القلوب على الحب... فذاقا ردحا من الزمن، من مضض الفراق، وعلقم الكآبة واللوعة ما نفى عن قلبيهما الطمأنينة والراحة، وحرمهما لذة العيش وحلاوة الحياة، وما كانت الأوقات القلائل التي يلتقيان بها في بحر الأسبوع، في ساعات العطلة، إلا لتزيد في نكد عيشه، وتشوه لهما وجه الدنيا التاعسة.

غير أن أنيسة ألفت في الدير المعطف والمحبة، فقد اجتذبت القلوب بعطفها ووداعتها، وسحرت الراهبات بلطفها الفتان وجمالها الباهر، الذي كان يزداد إشراقا وازدهاء بتقدمها في العمر وتبونها طور الفتوة والشباب، وجهها رائق بهي يترقرق في وجناته احمرار الورود، وضفائرها مرسلة حول رأسها تنوس بفرعها الأشقر، وقد أشرب بعض السواد، وفي محياها تحت جفون مزججة تلمع عينان نجلاوان يلقي سوادهما وفتورها في قلوب الناظرين افتتانا، بيد أنها لم يداخلها عنجهية واغترار ما سكب الله عليها من الجمال والبهاء، علما منها بأن كل شيء فان، وليس جمال إلا جمال الطبع، ولا شرف إلا شرف النفس ؛ فضلا عن أن يُتْمَها قد أسبل على نفسها نقابا من الكآبة، ووسم قسماتها بمسحة من الرصانة والرزانة فرزتها عن أترابها، وجعلتها مرموقة ملحوظة، أينما حلت، فلذا لم تكن الأخت جنة تستصحبها في جولاتها خارج

الديـر إلا إذا أزمعـت أن لا تمـر بالشـوارع الحافلـة، خوفـا عليهـا مـن نظـرات النـاس المزعجـة.

فـلا غـرو إذن إذا مـا رغبـت أنيسـة في الإطالـة في هـذا الشـارع الهـادي الخـالي، حيـث لا عـين ترمـق ولا نظـرات تُخـاف، فسـارتا في هـدوء وإبطـاء إلى أن وصلتـا إلى منعطـف الطريـق، فلمحهـا ولـدا دائبـا عـلى المكتـب ودفاتـر أفلتـت مـن قِمَطْـرِهِ البـالي، فتبعـثرت في فسـحة الشـارع، وفي ذات الحـين رأتـا سـيارة قادمـة تنهـب الأرض في عدوهـا السريـع الصامـت، نحـت الولـد مـن حيـث لم يـدر، وأوشـكت أن تقذفـه مـا بـين العجـلات وتغـادره أشـلاء داميـة، لـو لم تطفـر أنيسـة كالأيـل المذعـور وتخطـف الولـد قبـل أن يلحقـه ضر، إلا أن السـيارة صدمتهـا بعنـف. وألقتهـا عـلى الحضيـض، فارتمـت والولـد عالـق بهـا... فوقفـت السـيارة فـورا ونـزل منهـا شـاب يكسـوه رداء بديـع، وتقـدم مـن أنيسـة وانحنـى نحوهـا وسـألها بصـوت متهـدج مضطـرب.

- ألم يصبكـما ضرر.. وركضـت الأخـت حنـة وجـدت جنـب أنيسـة بلهفـة وارتعـاد، - مـا أصابـك يـا حبيبتـي أنيسـة؟ هـل جُرحـت؟ كيـف أنـت يـا عزيـزتي؟

فرفعـت أنيسـة إليهـا طرفهـا وعـلى ثغرهـا تمـر ابتسـامة، «لا شيء، يـا أختـي، فأنـا سـالمة، وكـذا الولـد، أليـس كـذا، يـا حبيبـي؟ « فانتـزع الشـاب الولـد مـن بـين يـدي أنيسـة، وأوقفـه بالقـرب منهـا، ثـم مـد إليهـا سـاعده بظـرف وكياسـة، «هـل لي أن أسـاعدك عـلى النهـوض، أيتهـا الآنسـة» فألقـت بـكل بسـاطة يديهـا الناعمتـين في يديـه، فشـعرت للحـال كأن موجـة كهربائيـة

سرت في جسمها فارتجفت أعضاؤها، وعلاها الاصفرار ورجمت هنيهة سادرة دائرة.

فقال الشاب لما رآها، ولا بد لها من مقوّ إلا تريدين يا أختي، أن نذهب إلى بيتنا، وهو قريب، حيث ستأخذ الآنسة قسطا من الراحة تسترجع نشاطها بعد هذه الرجفة الخبيثة». فرفعت إليه الأخت حنة بصرا خائفا، فتجلى لها وجه، قد كتب على جبينه «سبحان المبدع» فقد طرّ فوق شفتيه شارب خفيف أشقر، فنكست أبصارها أمام عينيه الزرقاوين الساحرتين اللتين تشع منها أمارات السطوة والصولة، فتمتمت الأخت حنة بذعر «اعمل كما بدا لك، أيها السيد». إلا أن أنيسة قد أفاقت من غشيتها، وتملكت حواسها، فقاطعتها بلهجة سديدة حازمة «لا لزوم إلى ذلك، ولست بحاجة إلى شيء، إلا أن ارجع إلى ديري وهناك سأستريح».

- كما تشائين أيتها الآنسة، بيد أنه لا بد من أن ترجعك سيارتي إلى الدير، في هذا لا أقبل رفضا، لأن لقائد سيارتي بدأ فيها أصابك، فلا بد من التعويض بقدر ما تصل إليه يدي».

فأذعنت أنسية لهذه النبرة الآمرة، فضلا عن أنها كانت تشعر باسترخاء عزائها، وانحلال مفاصلها، فيصعب عليها المسير، فأمسكت بالساعد الممدود إليها فارتكزت عليه إلى أن وصلت إلى السيارة، فجلست فيها قرب الأخت حنة واقتعد السائق كرسيه، وببتي الشاب واقفا جنب النافذة، يتملّى برؤية الجال المتجلي على وجه الملاك الماثل أمامه، وقبل أن تتحرك السيارة مال إليها، «أرجو من لطفك، أيتها الآنسة، أن

تقبلي صادق اعتذاري عما جرى لك، من جراء قدامة سائقي وغفلته، وإني لمعجب بشهامتك، وأمتدح شجاعتك في إسراعك لانقاد هذا الفتى المسكين من براثن الموت الأحمر...

- لا أستحق شكرا، أيها السيد، فهي حركة صدرت عن وحي الفطرة ولم يكن لي فيها أدنى افتكار، فلذا لم يكن إلى ظلها سبيل، فكنت فيها محمولة مُكرهَة، لا مخيرة راضية.

- فهذا ما يؤكد لي أنك من أرومة طيبة وأصل شريف، لأن كرم النفس إن لم يكن في المرء طبعا فلا يكون تطبعا»... فتورد خد أنيسة، وخالسته نظرات خفرة، ثم ودعته بابتسامة عذبة باحت له بأسرار عامت في خاطرها، ولم تجرؤ على إبرازها، فرد لها التحية وعينه تعلن ما كتمه القلب في تلك اللحظة الخاطفة، التي تحركت فيها عجلات السيارة، وراحت تنساب على الطريق المعيد، وتركته معمدة متبولا، فاتبعها البصر إلى أن حجبتها عن العيان البنايات القائمة.

فتنهدت الأخت حنة، وهتفت رافعة يديها إلى السماء، «رباه، ما هذا الحادث» أما أنيسة فلم تنبس ببنت شفة، فأحسّت بإعياء، عظيم، فتمطَّت على الكرسي المنَجَّد، وعقد جفونها هُوام خفيف، فغنت وفي مخيلتها تحوم الأحلام،

فرأت خيال الشاب الغريب وغازات في الرؤى عيونه الرائعة الفاتنة وأصغت إلى رنين صوته المفتان، مستلذة بنبراته المرنانة الناعمة...

أما الشاب فلم يطل وقوفه في ذلك الشارع الخالي... إلا من خيال الفتاة الغائبة، فتوجه نحو المدينة، وقصد إلى منزل قديم تدل بناياته

السامقة الفخمة على غنى أهله وحسن ذوق بانيه، فقطع الرتاج دون أن يقرع جرسا أو يُنذر أحدا، وتوغل في المماشي الطويلة العريضة المفروشة بأفخر الأبسطة، فالتقى بخادم، فسأله «هل رجع يعقوب؟ « فأجابه الخادم، «كلا يا سيدي الكونت» - فولج الشاب في غرفة مزدانة بقطع من السجاد القديم الغالي، ونفذ منها إلى بهو فسيح حافل بضروب الأمتعة الفاخرة والطنافس النفيسة، فظهر على العتبة رجل ربعة يتراوح لون بشرته بين الأصفر والأسمر، وتلمع في وجهه عينان حادّتان براقتان، وتكسوه بدلة زاهية من صنع الشيلي، فتقدم من الشاب وناوله مكتوبا، وهو يقول بالاسبنيولية، «مكتوب من هناك، يا سيدي».

- حسن، فكل شيء على ما نروم ونبغي.. يلوح لي أن يعقوب تأخر علينا بالأخبار.

- علينا بالعمل بتمهل وحذر لئلا نُثير الشبهات، - أجل، فعلى كلّ، فما دام أخوك المضطلع بالأمر، فلا بد من أن يفلح، ولن تخفق مساعيه... ألا انزع عني هذا الرداء، يا يوسف، فتناوله الخادم وذهب، فاستلقى الشاب على كرسي وثير وانتشل من علبة مذهبة، سيجارة منتقاة، وأشعلها وصمت متأملا بتلافيف الدخان المتصاعد منها، فما كاد يأتي على نصفها حتى دخل يوسف، قائلا: يعقوب ههنا، يا مولاي، -- فليدخل، فدخل إليه شاب كأني به رسم يوسف الشدة ما بينهما جرى في معاركة الزمان، تقدم يا يعقوب وهات من عندك من الأخبار، هل من تطلعنا عليه؟». تقدم منه يعقوب باحترام واحتشام، وعمد إلى يد

الكونت بكل إجلال ووقف أمامه لا يجرؤ على الجلوس إلى أن يومئ إليه الرئيس، فبعد إشارة الرئيس على كرسي خشبي كان بجانبه، جلس يعقوب وأنشأ يسرد الأخبار على مسامع الكونت المصغي إليه بكل انتباه.

«قبل كل شيء، يا مولاي، لقد أصبحنا على يقين من صدق عزم أندريا، على القيام بالرحلة المنويّة، إلى تلك الأصقاع...

- فهذا، كنت أنا أيضا على يقين منه، مُذ ما وقعت الوثيقة بين يديه، إذ يستحيل على رجل نظيره أن يطّلع على كنز مدفون دون أن يتذرع بكل ما لديه من الوسائط لكي يحوزه... وهو في حاجة إلى دراهم لأنه أبدا خالي الوطاب... مسكين أندريا!...

- وقد وسموا هذه الرحلة بطابع رسمي، ودعوها البعثة العلمية، الفنية، الموفدة من قبل الحكومة الفرنسية لدرس المناجم المعدنية في جبال الأند، والتنقيب عن الوسائل لاستغلال تلك المناجم، وخاصة منجم تلتال.

- رحلة موفدة من قبل الحكومة الفرنسية، أي نعم، وهي التي تبذل لها المصاريف... والمندوب الجليل أندريا ستتوارد عليه الخيرات من كل صوب، إلا أنعم بغنى سيناله من غير كد ولا عناء؟ ...

- وسمعت بأن البعثة ستقوم في أواسط نيسان القادم، ومنذ الآن أخذ أندريا يعد الأهبة، ووكل على ابنه أن يأتيه بعدد من الأوباش والأخلاط، لكي يصطحبهم في هذه الرحلة، لأنه سمع أن هذه الجبال في حوزة عصابة قوية من الشذاذ المشهورين بقيادة ملك الأَند الشهير،

الكونـدور الأعظـم، سـلطان الجبـل»... فقاطعـه الكونـت، وقـد حـارت عـلى محيـاه ابتسـامة، أفرجـت مـا كان غضـن وجهـه مـن الأسـارير.

- أجـل لا بـد للمنـدوب مـن بطانـة تحـف بـه، ومـن بطانـة تليـق بفخامتـه؟ ... ثـم يـا يعقـوب مـا عنـدك مـن الأخبـار؟

- لقـد عزموا على الذهـاب جميعهم - كيف جميعهم؟ ...

- أي نعـم جميعهـم الأب والابـن، والابنـة، ثـم سيسـتصحبون الأيتـام، ورثـة السـيد روبـير..

- الأمـر غامـض ولا يخلـو مـن مكـر ودهـاء... عليهـم أن يعملـوا مـا شـاؤوا، ويدبـروه كـما يريـدون، ونحـن أيضـا سـنقوم بالواجـب... أأخبـار أخـرى يـا يعقـوب

- كلا يا مولاي.. فإننا سـنترقبهم باهتمام.

- حسـن، فاذهـب الآن وخـذ لـك قسـط مـن الراحـة. - راحتـي، يـا مـولاي، هـي أن أخـدم، سـيدي وزعيمـي، ورنـا إلى الكونـت بشـغف وانعطـاف، فابتسـم لـه الكونـت وقـال: إني أعـرف وفـاءك يـا يعقـوب، وإني أثـق بـك وبأخيـك وثوقـي بنفـسي، فـإذا تـراني أسرّ لـك كل مـا عنـدي ولا أخفـي عليكـما أمـرا، فاذهـب يـا حبيبـي وأخـبر يوسـف أن يهيـئ لي طقـم المسـاء لأني سـآكل خارجـا، هـذه الليلـة، فـإن أهـالي باريـس يتـوددون إلى الكونـت مارسـيل، ويتسـابقون إلى الإيـداب عـلى شرفـه... فلـذا تـراه يتنقـل مـن مأدبـة إلى مأدبـة، وغـادره الخـادم، ولبـث الكونـت مفكـرا حالمـا، وهـو ينفـض رمـاد سـيجارته الملتهبـة، ومـا كان منـه إلا أن تربـت عـلى طاولـة

الأبنـوس التـي بجانبـه، صارخـا، كأنـه يناجـي شـبحا ماثـلا أمامـه جميلـة، وأيـم الحـق، سـاحرة، آه! مـا أحلاهـا، ثـم هـزّ كتفيـه كأنـه مفيـق مـن غفلـة، أيـن أنـا فليـس الوقـت، وقـت الحلـم بالعيـون الحاليـة... هـو وقـت الجـد والعمـل، وقـد سـئم رجـالي حيـاة الخمـول والكسـل... ثـم تنـاول المكتـوب عـن الطاولـة، وفضـه وهـو يقـول «مـا عسـاه يخبرنـا، الصديـق بليثـو، ثـم مـرّ عـلى السـطور نظـرة عجـلى، ثـم فـرك يديـه وقـد اسـتفزته حميـة الطـرب أمـام مـا انفتـح لـه مـن آفـاق، آه كـم سـيسر جنـودي مـن هـذه البـشري، وأنـا أيضـا أشـعر بلـذة عميقـة، لفكـرة التمثيـل بأندريـا، فأجعلـه عـبرة وأمثولـة... هـو اشـتراكي وسـنرى إلى مـا تقـوده هـذه الاشـتراكية،... وهـل يبقـى اشـتراكيا إذا مـا سـاعده الحـظ وحصـل عـلى الكنـوز المدفونـة التـي يتوخاهـا؟

الفصل الثَّاني
أندريا وآله

لويس أندريا، هو نائب فرنسي صميم من الحزب الاشتراكي، وكان يمت بوشائج النسب إلى أسرة عريقة في النيل من مدينة أنجيه، وتخرج بحب المبادئ. المسيحية وعاش بها إلى أن بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، فنكب عن جادّة الفضل، وهجر الفضيلة، لكي يتمرغ في حمأة الفواحش والرذائل، واحتدمت أطباعه، وغلت أهواؤه ولم يكن لديه من المال ما يكفيه للتمتع والاستهتار، فإذا كان دائما في حاجة إلى التبذل والاستخذاء، وبذل ماء الوجه ليتقرب من ذوي الأموال، ويترأف إلى ذوي السلطات لنيل ما تبغيه نفسه الساقطة.

وكان في تلك الآونة ينفح على فرنسا، هواء الكفر والإلحاد فما عتم أندريا أن تمذهب بالراديكالية المحضة، لعله ينال ما تطمح إليه نفسه، وتوصل بما زخرفه لأعين المنتخبين الغاشمة من الوعود الخلابة إلى أن انتخب مندوبا، وهو في الخامسة والأربعين من سنه وقد غالى في آرائه الهدامة حتى أصبح من أشدّ أعداء الدين والكنيسة، لا بل فاق أقرانه، في اختلاق أسباب السلب، ووسائل النهب والتدمير، لأنه لم يكن له وازع من ضميره المخنوق بما حمَّله من الجرائم، فاستباح لنفسه كل الوسائط لإشباع مطامعه. أما امرأته، فعاشت مثالا حيا للنزاهة والوداعة والأمانة، وكم قاست من الآلام من جراء أفكار زوجها الإلحادية الكفرية، وما زالت هذه الآلام تحز في قلبها، حتى رمتها بالأمراض المنهكة فأودت بحياتها وهي في زهرة صباها، تاركة له ولدين

أرمـان وأدمـا، فخرّجهـما عـلى المبـادئ الكفريـة، مـما غـاظ جديهـما وبقيـة أفـراد الأسرة الدينـة الشريفـة، الذيـن اسـتاؤوا أن يـروا أولادهـم مناوئـين لديـن الأجـداد، وأعـداء الكنيسـة اللـه التـي مـات أجدادهـم للـذود عـن حياضهـا، فأنكـروا أندريـا وولديـه وحرموهـم كل إرث مـن تركـة الأجـداد الدينـين، فـزاد هـذا الحرمـان في حنـق أندريـا، وزاده إقدامـا عـلى التـذرع بـكل الوسـائط لا تنـسي لارا ومجازاتـه، فإنـه لـن يـرضى بالنـزر القليـل، والرفـاق الذيـن سـيجلبهم لنـا يعشـقون المـال، فإنهـم لـولا محبتهـم للـمال لمـا اقتحمـوا هـذه الأهـوال التـي سـتعترضنا في رحلتنـا، فلـذا لا أراهـم يرضـون بالقليـل».

فأجابتـه أدمـا: «إلا أن الأمـر في حاجـة إلى رويـة وإنعـام نظـر، أيهـا الشـقيق، فـلا بـد مـن مسـايرة الأمـور لـكي نفـوز بهدفنـا، والا سـنغلب عـلى أمرنـا، فنرجـع خائبـين مـن حيـث رجونـا الغنـي والـثراء، واعـترف أيهـا الأخ أن طمعـاك فاحـش مُكلِـب، وليـس هكـذا يكـون الاشـتراكي! عـلى كلٍ، فالأمـر أمـرك، وتدبـر كل شيء مـا أوتيتـه مـن حنكـة ودربـة، ولـك في موريـس مـا تشـاء، حتـى يتوفـر لـك المـال، لتنـال كل رغبـات قلبـك الطمـوح الجائـع. - بالحقيقـة إنـك فتـاة مخيفـة الشـعور، أيتهـا الأخـت! أمـا أنـا فـمالي والشـعور الأنثـوي؟ فلأقطعـنّ لي قلبـا مـن جلامـد الصخـور، حتـى لا أرقّ ولا أرأف، وعنـد مـا يقـدم موريـس وأنيسـة، أخبريهـما بالتأهـب للسـفر، فإنهـا البـشرى سـتملأ قلبهـما انشراحـا وانبسـاطا... أطفـال يسـتخفهم المـرور ولا يأبهـون لمـا يخبئـه لهـم الزمـن!... ولا يفتكـرون أبـدا بالصعوبـات!!!».

وكان هـذا اليـوم موعـد خـروج أنيسـة وأخيهـا موريـس، لعطلـة الأسـبوع، وقـد اعتـاد الولـدان، في هـذا النهـار، بعـد وجبـة الصبـاح، أن يرافقـا المـرأة الواقفـة عـلى خدمتهـما، لزيـارة أحـد متاحـف باريـس، أو للذهـاب إلى قـصر لوكسـمبورج أو التويلـري، غـير أن أنيسـة لم تكـن تـسر كثـيرا في هـذه العطلـة القصـيرة، ولـولا شـوقها إلى رؤيـة أخيهـا والتحـدث إليـه، لمـا خرجـت قـط مـن مدرسـتها، لأن محيطهـا موبـوء بالإلحـاد والكفـر، ومـا كانـت تسـمع إلا كلام السـخرية والهـزء بالديـن والكنيسـة، وتسـمع السـيد أندريـا يفيـض في محـاورات وخطابـات بذيئـة يُسـقَّه فيهـا الديـن ورجالـه ويصمهـم بـكل العيـوب والمخـازي التـي يختلقهـا عليهـم حنقـه الـدنيء السـافل، ومـع شـدة تحـرز أرمـان لئـلا تبـدر منـه بـادرة تسـوه أنيسـة فتنفرهـا منـه فكانـت تصـدر منـه فلتـات لسـان تنقبـض لهـا أنيسـة وتؤلمهـا فتزيدهـا نفـورا مـن تلـك الأسرة، وكرهـا في معاشرتهـا. وشـدّ مـا كان خوفهـا عـلى موريـس أخيهـا، أن تؤثـر هـذه الكلـمات السـفيهة عـلى عقلـه، فتغـرس فيـه بعضـا مـن هـذه المبـادئ الوخيمـة، فتطـوّح بـه عـن مهيـع الصـلاح، وتزجـه في طريـق الطـلاح والرذيلـة، إلا أن موريـس طبـعٌ سـمحٌ، وخلـقٌ عـال، فلـم يُعـرّ أندريـا وابنـه أذنـا صاغيـة، لا بـل زاد منهـما نفـورا، ولم يظهـر لهـا قـط أنـه يشـاركهما في أفكارهـما، بـل بالعكـس كـم مـن مـرة عارضهـما وألجأهـما إلى السـكوت.

وكانـا إذ ذاك جالسـين في قاعـة البهـو الفخمـة، في قـصر المنـدوب، منفردين في حديـث لهـما بـدون أن يحفـل أحـد بوجودهـما، كأنهـما المتـاع الـذي لا يعتنـي بشـأنه وهـما لم يخامرهـما قـط أدنى مَوجِـدة لهـذه المعاملـة النابيـة، لا بـل هـي كل رغبـة قلبيهـما، أن تتـصرم بينهـما وآل أندريـا العلاقـات فـلا

يعـودان يطـآن لهـم عتبـة، ولا يدخـلان لهـم دارا، فيعيشـان بعيديـن عـن هـذا المحيـط الخانـق، وهـذه البـؤرة المسـمومة، ليتمتعـا معـا بالعيشـة الهنيئـة الراغـدة، كطائريـن غريديـن، يتنقـلان عـلى أفنـان الحيـاة، وهـما يرنمـان ترنيمـة المـرور والهنـاء... وفيـما كان موريـس يناجـي أختـه بهـذه الأمـاني وهـو سـاند عـلى قلبهـا راسـه الأشـقر، وهـي تمـرُّ أناملهـا الناعمـة في تجاعيـد. شـعره المرجّـل المعطـر، فتعبـث بـه مصغيـة إلى حديثـه بارتيـاح وابتسـام، إذا بأدمـا داخلـة كالصاعقـة، ومنقضـة عليهـما كالنـسر عـلى فريسـته، ومسـكت أنيسـة ضاغطـة عـلى يدهـا وهزتهـا. هـزة عنيفـة قائلـة: «أبـشرك أيتهـا العزيـزة أبـشرك بـشرى جيـدة، فإننـا سـنقوم برحلـة شاسـعة بعـد شـهرين، وسـتكونين بصحبتنـا! سـتجوبين البـلاد، سـترين العـالم ومـا فيـه مـن حسـن وجـمال، سـتسرين، سـتفرحين...» فتمطـق موريـس وهـو يفرقـع أصابعـه ويلوّحهـا: «حسـن! حسـن! إنهـا لعمـري بـشرى جيـدة». وأمـا أنيسـة فرمقتهـا طويـلا بـبرودة وانذهـال ودهشـه: «وإلى أيـن المتجـه يـا ابنـة العـم؟ احـزري؟ - أفي فرنسـا؟ كلا! حتـى ولا في أوروبـا - في أفريقيـا إذن؟ كلا! - فـإلى أمـيركا، والحالـة هـذه؟ - أي نعـم، ولكـن أمـيركا واسـعة كبـيرة، فـإلى أي قطـر منهـا؟». فأخـذت أنيسـة تعـدد لهـا مـا اسـتحضره ذهنهـا مـن أسـامي تلـك البـلاد وأدمـا تغلِّطهـا إلى أن أتـت عـلى اسـم الشـيلي، فأجابتهـا أدمـا: «أي نعـم إلى الشـيلي، لـكي أضمـن معيشـتي ومعيشـة أختـي، ثـم سـأقوم بسـفرات خـلال البـلاد، فبـلاد اللـه واسـعة، وفيهـا كل مـا يـروق ويعـذب. ثـم سـأوزع مـا يبقـى معـي مـن الدراهـم عـلى الفقـراء والمعوزيـن، لأني لا أحـب أن أرى النـاس يتألمـون ويجوعـون، وأنـا مـسرور شـبعان».

فابتسم المندوب وأولاده لهذه الكلمات الأخيرة، ابتسامة نمت عما في قلوبهم من الازدراء لهذه العاطفة التي أظهرها موريس، وقالت أدما: «غريب هذا الولد بأطواره وأطباعه الصبيانية وعواطفه الإنسانية، وإني لا أتمنى لك الغنى، إذا لم يكن في وسمك حسن استعمال غناك». فتح موريس عينين كبيرتين في حيرة واندهاش: «كيف لا أعرف استعمال الغنى؟ وأي طريقة لاستعماله أحسن مما أشرت». فأجابته: «تَنَعَّمْ، وتلذذ، فكل شيء مباح!» فازداد ارتباك موريس، وتمتم وقد بدت على ملامحه علامات الاستهجان والاستنكار: «أتنعم وأتلذذ! فهذا مما لا يجيزه العقل السليم، وقد علمونا في المدرسة، أن ندأب دائما وراء الأمور الطيبة ونبتعد عن المنكرات والمجون، فإن لنا فوق ربا وسيدا..» فقاطعته أدما بحدّة: «اخرس، ولا تخرج أمامنا من الخزعبلات والأراجيف التي تضحك الثكلى، فأنا أرى أن معلميك رجال الإكليروس، قد ملأوا مخك وأفسدوا عقلك. اصغ إليّ ولا تبدلي جواب: علينا في هذه الحياة، أن نعيش متذوقين ما تصل إليه يدنا من الملذات، وعلينا أن نحتسي كأس السرور غير آبهين لأكاذيب الرادعين الأغبياء». - فارتج على موريس ولم يُحِرْ جوابا، فانتفضت أنيسة، وصوبت إلى أدما نظرات مغضبة: «أرجو من لطفك أيتها الآنسة أن لا تفوهي أمام الولد بمثل هذه المبادئ الفاسدة، وعليك بأن تصرفي لسانك عن مثل هذا الكلام البذيء....».

فثار ثائر أدما، وصرخت: «يا غبية، يا مجنونة، أما يسرك أن نثقف أخاك، وتخلع من عقله ما يلوثه من التعاليم اللئيمة، التي بثها فيه رجال دينك، ألا انفضي منك بعيدا هذه الغياهب التي طمسوا فيها

عقلـك». فوثبـت أنيسـة، بأنفـة وشـجاعة: «ليـس في وسـعنا أن نـؤاكل مـن يشـتم ديننـا، ويـزدري بـه قائدنـا، ألا اعلمـي يـا أدمـا أن فـوق ربـا حسـيبا... هلـمَّ، يـا موريـس». خرجـت وإيّـاه مـن الغرفـة، تاركـين أندريـا يتنمـر متميزا غضبـا، فـصرخ بهـا: «ألا اصـبري، فسـتذوقين منـي الأهـوال....» فأمسـكه أرمـان وأرغمـه عـلى الجلـوس، هامسـا في أذنـه: «أتركهـا الآن وخلّهـا، فهـي غاضبـة وجـدٌّ ثائـرة، وليـس في إمكانـك أن تسـمعها كلام العقـل والتدبـير... وأنـا سـأذهب إليهـا بعـد حـين، لـكي أقـدم لهـا أعـذاري حتـى لا تحفـظ عـليّ موجـدة، تكـون عـليّ مـن أشـأم العواقـب، وأنـا سـأثأر منهـا بعـد اقـتراني بهـا، أمـا اليـوم فالمجاملـة أوفى وأحسـن... فالصـبر...». فقالـت أدمـا وقـد بلـغ منهـا الحنـق غايتـه: « وأنـا لا أدري لِـمَ لا تكيـد لهـا في الطريـق وتوقعهـا في إحـدى المهالـك فتتخلـص منهـا ومـن صفاقتهـا... وهكـذا تسـتريح، يـا أرمـان، مـن المغازلـة والتحبـب!».

«وهـذا مـا لا أريـده أبـدا، فكيـف أكيـد لهـا وأنـا صـبٌّ بهـا مغـرم... آه! مـن لي بتلـك السـاعة التـي تصبـح بهـا أنيسـة عـروسي المحبوبـة، فتشـع في بيتـي ابتسـامة سرور، وأنـا أحيطهـا بإطـار مـن الحـب والإجـلال؟». فأجابتـه أختـه بهـزء لاذع: «لا أزال أراك رقيـق الحـواشي، يـا أرمـان، سـهل الانفعـال، لا يـزال وتـر قلبـك حساسـا، فـيرن تحـت عاطفـة الحـب، ألا خفـف هـذه العاطفـة، ولينضـب هـذا المعـين...، وطرقـت أدمـا عـلى قلبهـا الجـاف الناشـف!، فأعـرض عنهـا أرمـان بـازدراء، «هـو بغضـك لهـذا المـلاك السـاحر الـذي يضـع عـلى لسـانك هـذه النصائـح الظالمـة، وهـو حبـك للعـمال الـذي يغريـك عـلى الكيـد لهـا.... غـير أن لي أفـكارا غـير أفـكارك، وليـس لي في مشـورتك ربـح، إذ لسـنا نحـن أقرباءهـا الأدنـين، وحـق الإرث لا يعـود لنـا

أولا، فضلا عن أن الوثيقة مودعة عند السيد فالار.. فالزواج هو لنا أحسن واسطة للوصول إلى غايتنا فيكفينا مؤونة الفشل والانخذال».

فأطرقت أدما مفكرة، ثم أجابت: «لقد نطقت بالصواب... فسأرضى بهذه الغبية امرأة لأخي، إذا ما كان في ذلك نفعنا... ولكني أرجو منك يا أرمان ألا تنسى أنها أهانتني، وعليك بالثَّأر لي...» فبرقت عينا أرمان غضبا، وقال.. لأخته، «دعيني وشأني... فالأمر، كل الأمر، لي...».

الفصل الثَّالث

الرِّفاق

آذنت الشمس بالمغيب، وأخذ الظلام يرخي السدول، فكنت ترى المصابيح تضيء الواحد تلو الآخر، والحوانيت تنير بأنوار متنوعة من مختلف الجهات، يخرق نورها ضبابا خفيفا باردة خيم على الشوارع عقب رذاذ ناعم، تساقط متقطعا أثناء النهار، ولا يسير في شارع المان الخاوي الهادئ، إلا رجل يترنح ويتخلج في مشيته يمنة ويسرة، لكثرة ما احتسى من كؤوس الخمر، طويل القامة، رفيع كالخيزران، تلوح على شخصه دلائل الخسة والنذالة من خلال أطماره القذرة الرثة، ولحيته الشعثاء المسرفة في السواد الفاحم والمنتشرة على كل وجهه الغليظ الصفيق، فكان يمشي متمايلا، إلى أن لمح في الطرف الآخر من الطريق، رجلا يتقدم نحوه وهو غائص في أفكار عميقة، بدون أن ينتبه لما يحيط به، فلما اقترب منه السكران، حدثت منه ميلة ارتمى عليه وصدمة صدمة عنيفة أرجعته إلى عالم الحقيقة والواقع، فقال له السكران «أما فيك أن تنتبه قليلا، وترى ما أمامك، يا نذل الأنذال؟...

- ولكن الانتباه عليك لا علي، يا.. غير إني أسامحك إذ يظهر لي... - صه؟ ولا ترد كلمة واحدة، وإلا أريتك ما لا تود... فأنا ممن لا تداس أرجلهم افتئاتا وعدوانا». وفيما يتلفظ السكران بهذه الكلمات تقدم من الرجل وضع يده فوق عنقه، وضغط بقدر ما استطاعت قوته، وهو يتابع كلامه... «سأتفق هذه الليلة مع لارا، لأسير في الرحلة مع أندريا». ثم هزه هزة عنيفة وصرعه بصفعة ألقته على الأرض، فتركه ومضى في سبيله مطلقا في الهواء ضحكات جنونية مرعدة، فاستقام الرجل

مشدوها ذاهلا، محاولا أن يرجع ما فقد من الشعور، ثم جدَّ في السير متخوفا، لئلا يقع في مثل هذه الورطة، وفيما هو سائر لا يلوني على شيء، وصل إلى مفرق طرق متشعبة، وسمع صوتا يوجه إليه الكلام هازئة ساخرة: «لقد هزك، يا بليد، هزة لن تنسى ذكرها من قريب». وإذا بعامل يتمشى متخطرا، ويداه في جيوبه، فكان قد رأي المشهد ولم يرد أن يتقدم منها حتى يتاح له مشهد «رواية» مجانا، فأجابه ذاك: « أنه نذل لئيم، وحظه جد سعيد إني لم أر أحد الشرطة وإلا أقدته إلى الحبس ذليلا مهينا». فما تماسك العامل أن قهقه وهو يفحص الأرض برجليه، ويبدي ناجذيه: «تبا لك، يا مثري، يا زنيم، أهذا هو سلاحك، فإن الشرطة ليست تحت أمرك، فقد اشتغلت كل هذا المساء بحجز أثاث دير كبير، طردت منه ساكناته، فإن لديهم من الشغل ما هو أفضل من الذود عنك، ووقايتك من مثل هذه المرة التي تنسيك أنك المثري المبجل، والغني المحترم. فلقد أحسن الرفيق إذ كسر قليلا من خيلائك، بهذه اللطمات السديدة». فلما رأى المثري نفسه في مأزق آخر، إزاء هذا الرجل الذي سرّ بما ألم به، خاف سوء العاقبة، ولم يرغب في إعادة التجربة، فغادره مسرعا، فأعدّ المشي حتى وصل إلى شارع الران، ولما دخله، عاوده الأمن والطمأنينة، فأبطأ القدم، وأخذ يسير متئدا متلفت يمنة ويسرة، فوقف أمام حانوت قد بسطت في مقدمته طباق الحلويات وصففت على رفوفه علب الملبس، فحدق النظر إليها كأنه يلتهمها، وهو يتأمل بنقش تلك العلب الظريفة، علب الأعراس والأفراح. فإذا بصوت يهمس له: «الإخوان يشتغلون في سبيل العدل». فأجابه، بدون أن يبدي أدنى حركة «ولأجل السيد الأعظم» وللحال

وقف بإزائه شاب ظريف الطلعة، غض الإهاب، وهو في ميعة النشاط، ورونقه، إلا أنه متشح بثياب هي للخادم أولى منه للثري الغطريف، وبينما هو يتفرس في الحلويات المعروضة، همس في أذنه حيث لا يسمعه أحد آخر: «لا شيء جديد يذكر. إنما سيصطحبون اليتيمين... والابن يتودد إلى الآنسة لكي ينال رضاها بالاقتران به... وهم يتربصون للولد لكي يرموه في إحدى الموابق... وسيرافق الرحلة العالم الشهير شارل، إلا إني لا أدري عدد الرجال الذين استأجرهم ليذهبوا برفقته...».

فأجابه بصوت خافت: «اسعَ في أن تصل إلى معرفة هذا، لأن الزعيم يود أن يكون على يقين من كل شيء.... سأبذل في ذلك جهدي... والآن وقد فتحت لي أبواب بيت المعلم، ودبرت لي فيها إقامة، سأكشف أشياء جمة وهم عني غافلون.. فمدّ إليّ يدك باحتراز وخذ هذه الورقة، فإن فيها فضيحة لأمر أندريا، ومنبع ويلات له، فسيسر بها زعيمنا.. - هات فلعلها تعود علينا بالجدوى، إذا ما استخدمها، والآن أودعك وأذهب وأواصل العمل في سبيل العدل و....»... فغاب الرجل بدون أن يوضح آخر مقطع فاه به. ولم تطل إقامة المثري أمام الحانوت، فانزلق بين جمهور المارة المحتشدة. في هذا الشارع الفسيح، واختني ما بينهم يتجسس ويتسمع.

أما السكران فما زال يتابع طريقه متعكِّسا، وهو يدندن بنغمة مبهمة متساوية وتخلل بعد قليل في شارع مون روج، ثم ما لبث أن وقف أمام باب، متابعا نغمته، فإذا بصوت يصرخ به: «وأنت ههنا يا بترو؟ فقد سبقت المعاد، فليس هو ههنا بعد... على كل أدخل، أي نعم،

فلندخل لنحتسي بضع كؤوس، نتعلل بها إلى أن يصل». فدخل بترو مجانبا شابا قصير القامة، وآخر ضخما كأنه مقدود من جلد الفيل... وولجوا ثلاثتهم، فإذا الحانوت غاصٌّ برجال تقرأ على سحنهم الدناءة والنذالة، وهم يلعبون حول طاولات تلمع من تراكم أدران الشحم والدسم على جنباتها، وهم يتنازعون الكؤوس، مترامين أبشع الشتائم والمسبات، فلما رآهم صاحب الفندق، - وهو رجل كالبرميل ضخامة، يعلوه رأس «قبح الله خلقه» -، صرخ، أدخلوا من هنا، فأجابه بترو بصوت نابح: «ائتنا بالشراب، وحسبنا! وأسرع ولا تبطئ. فدخلوا في غرفة قذرة تفوح منها رائحة اللحم الزنيخ، وغشيت أرضها بذرات السعوط والتبغ، فارتمى بترو على كرسي، وهو يصيح «أنا عطشان!» فقال له رفيقه «ما هذه الإسفنجة التي تمتص دائما ولا ترتوي أبدا، فاكظم اليوم عطشك لأن لارا لن يأجر رجلا مهيافا نظيرك، وأخاف عليك من أن تتأخر عنا....»

- اشرب، ولا يشغلك هم من نحوي... فلارا أدرى بي وبك، وهو يعرض علينا صفقة رائعة، يا فكتور... ولربما يأتينا من ورائها الغني فتشرب إذ ذاك ولا حرج...

- وهذا أيضا فكري، أردف أحدهم، وكان إلى الآن صامت، – وتابع آخر «وهذا أملي، والا حذار من أن نثور عليه، ونعلن العصيان له، فليس لنا في رحلته إلا هذه الأمنية، وفي سبيل هذا أعلنّا الإضراب واندمجنا في الاشتراكية، وصرنا من حزب الأطهار!... ولارا يعلم هذا، بلا شك،... فالصفقة رابحة بلا ريب، والربيح أكيد...

- لله حظ لارا، فهو سعيد، وقد استلم خبره ناضجا. ومع هذا نراه دائما مرتبكا، يذرع الشوارع... ألعلّه يشتغل في ذلك، لأجل رأس المالية... ووقف عن الحديث، لما رأى شابين داخلين فامر فيها فكتور نظره مستكشفا طلعها، فإذا بواحد منها شاب طرير، عاقد على جبهته لمة شعر كثيف أشهب، وتنقش وجهه خالات صهباء، وفي نظره شيء من شذاذ باريس وأفّاقيها، وبعد ما نظر فيه فكتور مليا، قال – «ما لك أطلت علينا الغيبة، يا بولس، كأنك كرهت عشرة الناس فاعتزلتهم، - كنت مريضا طريح الفراش، طول الشتاء، وقال لي الطبيب إني كنت مصدورا... وبينما كنت خارجة من المستشفى إذ التقيت بالرفيق لارا، وأراني عطفا كبيرا، ومؤاساة عظيمة على ما حل بي، ثم حرضني على المجيء ههنا، لأن له أمرا مهما سيفضي به إلى الرفاق المجتمعين في هذه الحانة، وأكد أن لي في هذا كبير منفعة، إذ سأكسب من المال ما يكفيني الاستشفاء كالرجال المثرين... ولكني لا أدري حتى الآن ما هذا الأمر». فأجاب فكتور «هذا ما كنت أقوله منذ حين، ولمعت في عينيه ومضات الشهوة والطمع، فإن لارا يعلم بنا، من أي طينة جُبلنا، وأي الغايات تشوّقنا، فإذا قد قدّرنا حق قدرنا... - أي نعم، أي نعم، أيها العزيز فكتور، إني أقدرك حق قدركم « أجاب صوت ناعم، مفاجئا، فإذا بالباب قد فتح ودخل منه رجل ربعة نحيل الجسم، وعليه وجه أسيل باهت اللون، تلمع فيه

عينان رماديتان فاترتان وراء نظارتين كبيرتين... فنهض له الجميع وهتفوا معا «السلام يا لارا، فتقدم من كل واحد منهم وسلم عليهم بهزة يد وابتسامة ثم جلس في وسطهم، فقدم له صاحب المحل قدحا

مـن الخمـر ثـم غـاب، فأمـر لارا أحـد الحاضريـن أن يتحقـق هـل البـاب محكـم الإغـلاق، لأنـه مزمـع أن يفـضي إليهـم بـسر عظيـم...

وارتشـف رشـفة مـن الـكأس الموضـوع أمامـه، وأنشـأ يقـول «إلى العمـل أيهـا الرفـاق وارتكـز عـلى الطاولـة بمرفقيـه،... ثـم لـن أطيـل الجلـوس إليكـم في هـذا المسـاء، فأنـا جـدّ مشـغول، إذ علينـا اجتـماع في قاعـة الأشـغال. فـإذا، أرجـو مـن لطفكـم أن تعـيروني آذانـا صاغيـة، وافهمـوا مـا سـأقوله لكـم، وأنـت خصوصـا يـا بـترو، اصـغ حسـنا لأني أراك مغيبـا عقلـك في قاع الـكأس... فأجابـه بـترو، «لا تخـش يـا رفيـق، فالـكأس لا يفقـدني مقـدرتي عـلى العمـل، بالأخـص إذا كان العمـل مهـما نافعـا» فتـداول الباقـون ضحكـة جارسـة... وحامـت عـلى شـفاه لارا الناعمـة ابتسـامة خفيفـة حائـرة، وتابـع «أجـل إني أعـرف أنـك قـوي كالجبـار، وشـديد العضـلات، وهـذا كل مـا يهمنـي إذ لا أطلـب منـك أن تكـون مفـرط الـذكاء، فقـط كفـاني أن تكـون أمينـا، وشـديد البطـش... - في البطـش، فليـس لي مثيـل، ومـد إلى لارا سـاعديه العضليـين وضـم معصميـه وكفيـه، قـال «للبطـش، هـاك وانظـر، فصدمـة منهـا تبـتر أكـثر مـن حـد السـيف... وخاصـة إذا مـا كانـت الصدمـة في أجسـام المثريـن اللينـة، أليـس كذلـك يـا رفيـق لارا؟» وراح في ضحكـة تجاوبـت صداهـا كل أرجـاء الغرفـة.

فانقبـض لارا وجهّـم محيّـاه، والتفـت نحـو فكتـور، «غلـق فـاك، وأنتـم افتحـوا آذانكـم وأصغـوا إلى مـا أقـول، فـإن أندريـا... فقاطعـه فكتـور «أندريـا الهـدّار الثرثـار الـذي يلقـي كلامـه عـلى الأسـماع وقـرا، والـذي وعدنـا بإصلاحـات وتعديـلات وترقيـات، ولم نـرّ منهـا لا حرفـا ولا نقطـة...

وتابع بولس، وهو في هذا نظير كثيرين من شاكلته» فعبس لارا وزأر بها «أما تسدان كل منكما فكه؟ ودعوني أنهي كلامي... قلت أن أندريا قد عينته الحكومة ليترأس بعثة علمية، قاصدة إلى الشيلي لدرس معادن جبال الأند، ولا يخفى عليكم، أن الشيلي هي بلاد الذهب...» وأدار فيهم نظره لكي يتوسم على ملامحهم تأثير كلامه، فسأله أحدهم، وهل هنالك الآن ذهب، وهل سنراه؟ فأجابه المندوب: «كان هنالك ذهب كثير، أما الآن فقد انقطع معينه، وسيذهب اندريا ليدرس هل لا يوجد هنالك مناجم نحاس تستغلها الحكومة، ويقال أن هنالك منجما صعب المرتقى وعجز كل المهندسين، عن أن يصلوا إليه».

فضجُّوا كلهم، وقاموا على الاقدام بأنفة واستنكار، ماذا، أتريد تستأجرنا لنذهب نشتغل في المناجم، فهذا ليس من بابتنا، عليك بالتنقيب عن غيرنا، فلسنا من رجالك، فرفّت على شفاه لارا ابتسامة هازئة - مهلا... مهلا!... أتظنون إني مأفون غبي، دعوني أنهي كلامي، «فأندريا ماهر، ويدرك الأمور أكثر منكم ومني، وإن كان لا يتبجح بعلمه ولا يشهره على ظهور الملا، بدون أن يدق أمامه بالطبل والدفوف، فهو إذن الذي سيقود البعثة، ونحن سنرافقه كمهاجرين، بصفة عمال في المناجم، أما الحقيقة، فإنا سنؤلف عصابة مسلحة، ترافق. البعثة كحامية لها، وسنضم إلينا بعض أفراد في الشيلي، لكي تكون بأمن وسلام، فإن في جبال الاند، جماعة من قطاع الطرق، ما يفتأون منذ أزمان يعيثون فسادا في تلك الأصقاع، فلا يفلت من بطشهم إنسان من الذين تجرأوا إلى اقتحام الجبال»، فتغامز القوم شامتين باسمين، ما عدا بولس، فتمتم فكتور وهو يهز رأسه: «حسنا.... نشكرك يا لازا. ستقودنا إلى

تلـك الجهـات النائيـة، لـكي نَسْـلَخ، ونعـود إلى وطننـا بـلا جلـود، نهايـة بديعـة، لأسـوأ بدايـة، فحقيقـة ليـس لنـا حـظ في هـذه الحيـاة.

- ألا تعـرض حياتـك عندمـا تتـورط في هـذه المشـاغبات التـي لا تأمـن الخـروج منهـا سـالما، فضـلا عـن أنـه لا ينالـك منهـا إلا بعـض فرنـكات، لا تسـاوي ثمـن الرصاصيـة التـي تهـدد رأسـك بالشـج فتفرغـه مـما فيـه مـن قليـل العقـل والمـخ... أمـا اندريـا، فهـو يقـدم لـكل واحـد، عـلاوة عـلى أجـرة السـفر والأكل والـشرب، ثلاثـة آلاف فرنـك، يدفعهـا لكـم آن رجوعكـم مـن الرحلـة» فتمطـق الرجـال، وهـم يتفرسـون بعضهـم في وجـوه بعـض، «ثلاثـة آلاف فرنـك، فهـذه ثـروة كبـيرة مـا كنـا قـط لنحلـم بهـا، فسـتكفينا إلى أبـد الآبديـن... نعـما، نعـما يـا لارا.

- وليـس فقـط هـذا، إنمـا سـيشرككم بأربـاح المنجـم، الـذي سيسـتغله، وهنـاك منتهـى العظمـة والـثروة، ألا افرحـوا يـا رفـاق، فـإن المسـتقبل يبسـم لكـم سـعيدا هنيئـا...» فترامـز الرفـاق باستحسـان ودهشـة... غـير أن وجـود قطـاع الطـرق يعكـر عليهـم صفـاء الفـرح، فهـذا لارا روعهـم، «فليـس في وجودهـم خطـر عليكـم، إنمـا تتصـورون الخطـر أشـد مـما هـو في الواقـع، فالسـارق أبـدا فـروق جبـان ولا يصمـد أمـام جماعـة مسـلحة، وخاصـة أمـام أبطـال مثـل الذيـن أراهـم أمامـي... ثـم لا تخافـوا، فـإن اندريـا يسـتصحب ابنـه، وابنتـه، واليتيمـين اللذيـن يعولهـما، فتـى في الرابعـة عـشرة مـن عمـره وفتـاة في ريعـان الصبـى، لا يتجـاوز عمرهـا الثامنـة عـشرة، فلـو كان هنالـك خـوف لمـا عـرّض أولاده للمخاطـر... فأمالـت هـذه الكلـمات الأخـيرة كفـة الميـزان، وعجلـت في اسـتمالة خواطرهـم ونيـل قبولهـم،...» ثـم توقـف لارا

عـن الـكلام وتنـاول كأسـه واشـتفَّها، وبعـد أن أرجعهـا إلى محلهـا، قـال «أنـا في انتظـار جوابكـم، غـدا، فـإن رضيتـم فأنتـم الرابحـون، وإلا سـينعم بالـثروة التـي ترفضونهـا أفـراد غيركـم.

فأجابـه فكتـور «نحـن قابلـون، وأومـأ الجميـع بالقبـول، ولكـن متـى سـتقوم الرحلـة؟»

- في أواسـط نيسـان، وابـان السـفر سـيعطيكم اندريـا، كل واحـد منكـم مئـة فرنـك، لـكي تبتاعـوا لكـم ألبسـة لائقـة تخفـي أمركـم، وإلا سـيظن أوليـاء الأمـر، إنـه اقتنـص رجالـه مـن أوغـاد الشـوارع والأزقـة... فهـل لكـم سـؤالات تطرحونهـا؟.. غـير أنـه سـيتضح لكـم كل شيء في أوانـه، فـلا تهتمـوا البتـة» ونهـض مودعـا وهـم بالخـروج، إلا أنـه قبـل أن يخـرج اتجـه نحـو بولـس، ومـد إليـه ورقـة قائـلا «هـل فيـك أن تحمـل هـذه الورقـة إلى اندريـا، وتخـبره أن الاتفـاق قـد تـم؟ - سـمعا وطاعـة» فناولـه ورقـة نزعهـا مـن مذكـرة صغـيرة،. تبَّـج عليهـا بعـض كلـمات، وحيّـا القـوم وخـرج وهـو يقـول «إني سـعيد إذ وضعتكـم عـلى سـبيل المـال والـشرف» ثـم غـاب عـن العيـان.

فـدارت بـين الرفـاق محادثـة حـول هـذا السـفر، بـيّن كل منهـم أفـكاره، وعـبّر عـن أمانيـه، ومـا عتمـوا أن تبـددوا في الشـوارع ليعـود كل إلى مـأواه.

أمـا لارا فإنـه وصـل إلى قاعـة الشـغل متأخـرا لأنـه أضـلّ الطريـق، وهـو يسـير غائصـا في أفـكاره غـير منتبـه إلى متجهـه، إذ كان يعـرض في مخيلتـه الرجـال الذيـن اسـتأجرهم الرحلـة صديقـة اندريـا، ويتذكـر قسـمات كل واحـد منهـم، محـاولا أن يستشـف مـن خلالهـا مـا يجـول في نفوسـهم مـن

عواطـف وسرائـر، فسـيمون، رجـل متسـتر، ولكـن الدراهـم تعطيـه جـرأة واقدامـا، بولـس، ذكي ماهـر، ومنـه يرجـى كل خـير؛ فكتـور جبـان، ولكنـه يستبسـل في سـبيل الدرهـم؛ توماس، قـوي كالثـور، ويبطـش غـير هيّـاب، ولا واجـل... أمـا بيـترو فغريـب في طبعـه، وفريـد في جنسـه، فهـو ذكي وقـت الـضرورة، عـلى ادمانـه السـكر، وهـو لا ينقـص عـن توماس قـوة، إلا أنـه لا يذعـن إلا إذا وفـرت لـه كاس الخمـر مترعـة.... آه! يـا اندريـا، فـاني هيأت لك مجموعـة!! لـن تجـد لهـا نظـيرا ولـو جبـت الدنيـا مـن أقاصيهـا إلى أقاصيهـا، فهنيئـا لـك رجالـك، وهنيئـا لهـم الـثراء الـذي تعدهـم؟... فوقـف بـه فجـأة شـاب أخرجـه مـن أحلامـه، فنظـر إليـه فـإذا هـو بولـس، مكتئبـا حزينـا، يهـدر لـه «غـير مـرة، أرجـو مـن عطفـك، أن تـكل شـؤونك إلى غـيري، فلسـت محبـا لهـا، إذ بينـما كنـت مـارة في شـارع خـاو، إذا برجـل يسـايرني عـن بعـد بعـض خطـوات ويترقبنـي، ولمـا صرت في إحـدى الزوايـا كال لي إحـدى هـذه اللطميـات التـي أتمناهـا لأعدائـك، فأرتنـي نجـوم الظهـر تلمـع في كبـد السـماء، فارتميـت عـلى الأرض فهجـم عـلي وفتـش في جيبـي وانتـزع منـي ورقتـك، ومـا ثـاب إلي شـعوري ونهضـت إلا وكان قـد اختفـى... ومـما زاد في روعـي هـذه الورقـة التـي علقهـا في ردائي»، ومـدّ إلى لارا قطعـة صغـيرة، مـن الجلـد، يحيـط بهـا في أطرافهـا الأربعـة خـط أسـود وقـد سـطرت في وسـطها هـذه الكلـمات «أخـبر الـذي اسـتأجرك أنـه سـيخفق في رحلتـه، وأنـذره أنـه لـن يقـضي مـما نـواه وطـرا، فـما عليـه إلا الاحجـام، مـا دامـت لـه فرصـة... فإخـوان العـدل لـه بالمرصـاد، فلـن يسـلم مـن صولتهـم، فـلا يكسـب إلا الفشـل والندامـة...» وكان مرسـوم عليهـا أيضـا، بخطـوط حمـراء ناريـة، شـمس تشـع نـورا، مرسـلة أشـعتها إلى كل الأطـراف، فانقبضـت ملامـح لارا

واعتلتـه صفـرة الفـزع والارتعـاد، وطـارت مـن لحظاتـه شرارات الغضـب، مـا عتـم أن كظمهـا لـكي لا يظهـر أمـام بولـس بظهـر يفـت الخـوف في قلبـه فينكـص عـن السـفر هـو وأترابـه، وقهقـه باصطخـاب مصطنـع، وهـو يقـول «لقـد لعـب عليـك هـذا الـدور أحـد محبـي الضحـك والمجـون يـا عزيـزي بولـس، فـلا يقلقـنّ بالـك، فاذهـب في سـبيلك وأنـا سـأطلع اندريـا عـلى كل مـا جـرى». فـراح بولـس في سـبيله، وتابـع لارا طريقـة في دهشـة وحـيرة، وتـسرب الخـوف إلى قلبـه: «مـا معنـى هـذه الشـارات الغريبـة؟ فمنـذ أيـام قـد وجـد اندريـا نفـس الرسـم مطروحـة عـلى منضدتـه، واليـوم وجدتـه أنـا... مـن هـم يـا تـرى، اخـوان العـدل؟ وكيـف تسـنى لهـم أن يطلعـوا عـلى شـؤوننا، مـع أننـا قـد التحفنـا بالتسـتر والتكتـم، فهـم أعـداء لنـا، ويـا ويلنـا مـن الأعـداء المجهولـين المتسـترين...».

الفصل الرَّابع
الكونت مارسيل

وفي نفس المساء كان الكونت مارسيل يتناول طعام العشاء عند المركيز الكسي، سفير فرنسا السابق في بلاد الشيلي..

فالكونت مارسيل، سليل أسرة فرنسية عريقة في الحسب والنسب، قد حباه الله مع صباحة الوجه وطلاقة المحيا، ثروة طائلة تليدة، قد ضاعفها مجده واجتهاده، فلذا كان يسرف في الغرف والتبذير، غير خائف أن تفنى ثروته، أو ينضب، غناه، فرغب في عشرته كل أصحاب الثروة والجاه من علية القوم في باريس وغيرها، فكان موضوع احتفاء واجلال أينما حل في الثلاثة الأشهر التي اعتاد أن يقضيها في فرنسا آن العطلة الصيفية، كل سنة، لأن محل اقامته العادية في الشيلي حيث يملك أخصب المزارع وأكبرها، فضلا عن أنه يمت إلى أمراء تلك البلاد بوشائج القرابة والدم، لأن أمه سليلة أمراء البربون الذين تملكوا تلك الأصقاع زمنا غير وجيز في أيام خلت، فإذا كان يجمع في شخصه شتات الخصال والطباع، متحدرة إليه من عنصرية الفرنسي والشيلي، مما كان يزيده جاذبية إلى قلوب معاشريه، فهو جميل بارع في الجمال، وله عينان يشع منها سحر يملك عليك مشاعرك ويستهويك مكرها مرغما، ولن ينفرك منه ما تلاحظه عليه من الحركات المتعجرفة، والنظرات العاتية المتكبرة، فلعينيه فتنة لم ينجُ من صولتها أحد ممن قربوه، فكلهم دُلِّهوا به، وكلهم شغفوه، فنظره بعيد عميق، كأن وراءه ألغازا وأحاجي لا يدرك سرّها إلا هو! فلا يمكنك أن تتخرص بما يجول في

خلـده مـما تعاينـه مـن حركاتـه أو تسـمعه مـن كلامـه، فهـل الكونـت مارسـيل صالـح أبيّ، أم هـو طالـح غبـي؟ مـاذا يريـد ومـاذا يكـره؟ فـلا أحـد يـدري، ولا يخطـر عـلى بـال أحـد أن يسـتفحص ويكتنـه الـسرّ، لأن الكونـت لا يطلـع عـلى سره أحـد، ويـأبى أن يسـأله أحـد، وهـو متبحـر في العلـوم والفنـون، ولا تفوتـه سـانحة إلا اقتنصهـا ليـزداد علـما وأدبـا، فعنـده مـن كل فـن خـبر، فيهتـم بالزراعـة والتجـارة حينـا، ويقـضي أوقـات طويلـة في معاطـاة الهندسـة والتصويـر حينـا آخـر، شريـف النفـس أحيانـا وحلـو الشـمائل، وأحيانـا بـذيء سـافل ينغمـس في مـا ينـدى لـه الجبـين ويمجّـه الـذوق، وقصـارى القـول هـو جامـع لأشـتات الخصـال والطبـاع، التـي مـن شـأنها أن تقربـه إلى كل هيئـات المجتمـع الانسـاني، فهـو كفـؤ لمعـاشرة الاشراف، كـما هـو قمـين بـأن يشـابه الرعـاع فـلا يتميـز عنهـم البتـة... وهـذا كان مـن عوامـل افتنانـه بالعقـول وخلبـه القلـوب....

والمركيـز الكـسي مـن أقاربـه، فلـذا كان الكونـت يختلـف إليـه كثـيرا، فضـلا أن للمركيـز ابنـة غيسـانة، فتنـة للنظـر تدعـى جانيـت، كانـت تتـودد إليـه وتحلـم في سرهـا أنهـا سـتصبح يومـا عـروس لهـذا الكونـت الجميـل، وإن كان دون ميشـيل»*.

لا يعبـأ بهـا ولا يغازلهـا، لأنـه لم يخطـر قطـر عـلى بالـه فكـر الـزواج، لأن لـه أعـمالا أهـم مـن أن يعتنـي بأمـر تافـه كهـذا، وإذا مـا ألـحّ عليـه أصحابـه، بـأن يصغـي إلى صرخـات قلبـه العطشـان، فـكان يجيبهـم «قلبـي... قلبـي... لا أظـن أن لي قلبـا، فليـس لي إلا عقـل...» ويصحـب كلماتـه بابتسـامة ملؤهـا الهـزء والدعابـة، فسـمعت جانيـت هـذه الكلـمات، فسـاورها اليـأس

والكمد، إلا أنها عزمت على استعمال كل الوسائط لتخاتله وتغتصب حبه، غير دارية -المسكينة- أن الحب عاطفة عاتية لا تغتصب؟ وهي في حاجة إلى صبر، فالصبر مفتاح الفرج، في هذا المساء كان الكونت مارسيل، يقص على مسامريه جاس واحتدام، بعض مواقع كان فيها البطل، وفي أثناء رحلته إلى البرازيل، حيث التي بعثة علمية ألمانية، فقاطعه الكسي والحديث ذو شجون: تذكرني كلمة بعثة علمية...» أما سعت بالبعثة التي يهيئها اندريا المندوب الاشتراكي الرادكالي؟ - بلى سمعت بها، فهم ذاهبون ليستغلوا منجم نحاس، على ما يدعون...

- غير إني لا أركن على اندريا للقيام بمهمة كهذه، تطلب حنكة ومهارة، يدعي أنه مهندس ولكنه يفوته أنه أرعن أهوج، فهو غبي جاهل، من أين جئته.

- من يدري؟ لعله يفوز في هذه السفرة بما لا يخطر له ببال، فالصعاب محك الرجال، ولربما ستعلمه هذه البعثة أشياء يجهلها، فيرجع منها ندسا فطنا... اللهم إن رجع... وأرفق الكونت ألفاظه الأخيرة بابتسامة عميقة ساخرة.

فاعترضت جانيت، التي كانت تترصد الفرص لتسمع صوتها: «وهل تظن أن هذه الرحلة تنطوي على أخطار كثيرة؟ - بلا شك، ولا ريب في ذلك، قبل كل شيء، المنجم المنشود يقع في جهة من الجبال صعبة المرتقي، ثم أن هنالك عصابة تسيطر على كل تلك الجهات، فلا يجرؤ أحد على اقتحام أراضيهم، ولا أظنهم يرضون بالمندوب الجليل صديقا لهم وخليلا، لا بل...» فقطع عليه الحديث الكسي أخو جانيت فإذا

ما كان هنالك قطاع طرق، لا بد من مناجزتهم، فالأمر لا يخلو من لذة ومتعة، وهذا من محاسن السفر، ومما يزيد أفراد البعثة اقداما وثباتا...» دق دون ميشيل نظره في ابن عمه وقال «لو كنت تعلم من هؤلاء الشذاذ، ومن هذه العصابة، لما كنت أتيت بهذا الكلام الخفيف، ولما استخفتك حمية الطيش... فما من أحد توغل في أراضيهم، ورجع سالم، وما ذكروا قط أن واحدا أفلت من بطشهم».

- بر... بر... هتفت السيدة الكسي منتفضة، «إن لهجتك ألقت الرعب في قلبي، فما يعملون يا ترى بالمأسورين؟..

- عادة يقتلونهم، فصرخت جانيت، يا للفظاعة؟ ولله ما أجمد قلبك وأنت تقول هذا؟

- فما تريدين؟ فالموت أمر لا مفرّ منه، إن آجلا وإن عاجلا، إلا أنهم يعجلون به للذين غزتهم شهوة الذهب... ثم إنهم ينتخبون لهم موتا سريعا حتى لا تطول آلامهم، فيتخلصون من ارصاد الحياة بأسرع ما يمكن، وبدون أن يشعروا بألم، وهذا عطف منهم على المأسورين.

- الله درها من فلسفة، ولكن ألا يستثنون أحدا، من عذاب الموت، وماذا يعملون بالذين لا يقتلونهم؟

- فالَبتُّ في أمرهم يختص بالزعيم، أو بسلطان الجبل، كما يدعونه، ويسمونه الكوندور الأكبر، وملك الاند، فيحتفظ بهم عبيدا له وأرقاء يقومون بالأشغال الشاقة التي يأمرهم بها.

- والحكومة الشيلية.. ماذا تعمل؟ أتطلق لهذه العصابة اليد لكي تعيث

فسادا في أصقاع تخصبها، بدون أن تحاول أن تقمع سطوتها وتفنيها؟ « خارت على شفتي الكونت ابتسامة خاطفة، - «لا أدري لماذا، إنما أعرف أن الجبل تحت حوزة سلطانه، والعصابة هي المسيطرة عليه..

- إن تلك البلاد لتاعسة، لأن الثورات لا تزال قائمة فيها على قدم وساق، ولا تزال مشتعلة فيها، فتهيء لأولئك الشذاذ أن يعيشوا فيها ما شاؤوا، ولا أحد يتصدى لهم... فإذا ما كان الأمر هكذا فلا أظن اندريا إلا خاسرا، وسيعود من رحلته ذليلا نادما». فأجابه دون ميشيل، مُتَهانفا مستهزئا: «أي نعم سيندم، ولكنه لا يدري أنه يفتش عن حتفه بظلفه». وفيا يقول هذا، انحنى والتقط الوردة التي كانت مغروزة على صدر جانيت، وكانت زلقت منها وهي لا تدري... فشكرته جانيت بابتسامة وضعت فيها كل ما استطاعت من افتنان وجمال...

دقت الساعة، نصف الليل، لما قام دون ميشيل وودع الأسرة وذهب، وكانت السيارة في انتظاره أمام باب القصر ففتح له السائق النافذة، ودخل الكونت فناوله ورقة، فاتكأ الكونت في السيارة، وبصر برجل جالس جنب السائق ولكنه لم يأبه له ولم يوجه إليه حديثا، ففض الورقة وقرأ ما فيها، ثم قال للسائق، «إلى شارع الجمناز، رقم ١٢» ولما درجت السيارة أشعل الكونت سيجارته والتفت إلى الرجل الجالس جنب السائق، وقال له بالألماني «ماذا يا جرمان، هل من جديد؟ - الرحلة على أهبة تامة، يا سيدي الكونت، وأفرادها كلهم اشتراكيون فاضحون، وكلهم من الغوغاء الذين ليس لديهم شغل يكفيهم مؤونة التصعلك، مع أنهم: يكرهون الشغل والعمل، لأن لهم في أتباع شهواتهم

مـا يصدهـم عـن العمـل، ولا تـدع لهـم الحانـة وقتـا لتعاطـي الأشـغال...

- كـم عددهـم؟ - خمسـة مـع بيـترو، - جيـد، وبكـم وَعَدوهـم؟ - بثلاثـة آلاف مـع ربـح مشـترك في منجـم النحـاس.

- آه! لقـد بهرهـم منجـم النحـاس، - عـلى مـا يظهـر لي، يـا سـيدي، إنمـا يزعجهـم كثـيرا فكـرة منـاوأة العصابـة المتسـلطة عـلى تلـك الأنحـاء - تعـز عليهـم مفارقـة جلودهـم!!»

ووقفـت السـيارة أمـام بيـت فسـيح، عليـه ظاهـر العظمـة والفخامـة، فهـرول السـائق وفتـح البـاب أمـام سـيده، الـذي توطـأ وهـو يتابـع حديثـه: «هـذا كل مـا عرفتـه؟

- نعـم يـا سـيدي، مـن هـذا القبيـل، أمـا مـن جهـة السـوفالدو فقـد أعلنـوا الإفـلاس، - «حسـناَ، سـنخرجهم مـن هـذا المـأزق... وسـنربطهم بنـا بالحلـف واليمـين، وآنئـذ يخلصـون لنـا الأمانـة والوفـاء، فأنـا مـسرور منـك يـا جرمـان» وتقـدم وسـلم عليـه بلطـف ورشـاقة، فاحمـرّ وجـه جرمـان حيـاء واغتباطـا لحسـن التفـات الكونـت لـه.

وتقـدم الكونـت مـن البـاب وضغـط عـلى زر كهربـائي بـارز في الجـدار، بـإزاء البـاب، ومـا عتمـوا أن فتحـوا لـه، فتوغـل دون ميشـيل في ممـشى ثـم دفـع بابـا مـن بلـور، وتوغـل قاطعـا فسـحة صفـت فيهـا أصايـص الزهـور المختلفـة، وارتقـى درجـا مـن مرمـر أنيـق أدى بـه إلى الطبقـة الثانيـة مـن البيـت، فقـرع البـاب ثـلاث دقـات، ففتـح مـن داخـل، فولـج الكونـت، وهـو لا يميـز شـيئا في الظـلام الدامـس، وتمتـم بصـوت خافـت: «الإخـوان يعملـون في سـبيل العـدل» فـرد عليـه صـوت مـن داخـل «ولأجـل السـيد الأعظـم»

وتابع الكونت «إليّ ههنا! وأشعل الأنوار». فسطعت الأنوار فجأة ساقطة من السقف من مصباح كهربائي كبير، فنظر الكونت فإذا بالباب رجل في مقتبل العمر في زيّ خادم فتقدم منه دون ميشيل وربت على كتفه بلطف وسأله وهو يدلج نحو غرفة قد أغلق بابها مواربة «هل هو نائم؟ - كلا يا مولاي فهو لاهٍ، بصف أوراقه وتنظيمها - حسن، وأذهب الآن واسترح، فالأمر يخصني...» وتسلل مارسيل بخفة داخل الغرفة، بدون أن يشعر به، فإذا به أمام شاب في ثياب النوم، جالس أمام منضدة، وقد كردس عليها الأوراق والمكاتيب، يتناولها ويمر عليها نظرة عجلى فمنها ما يمزع ويرمي في سلة المهملات، ومنها ما يضع جانبا بعد أن يطويها باحتراس... فتقدم منه الكونت وهو لا يدري، ولم يكن أحسّ بوجوده. فارتجف الشاب لما لمحه وانتصب على الأقدام، صارخا فزعا مبهوت: «مارسيل، ما جاء بك ومن أين أتيت؟ - فابتسم له مارسيل «لا تفزع أيها الصديق، وخفف من روعك يا جود، فليس في وجودي ههنا ما يجب أن يزعجك هذا الانزعاج» وتناول كرسيا وجلس إزاء المنضدة المنشورة عليها الأوراق، واتكأ عليها وهو يتابع حديثه: «هب إني اخترقت الحيطان كالأرواح، فلا عليك أن يعروك مثل هذا الذهول، وأنت الشاب الجريء المقدام الذي لا يرهب الصعاب، فمالي أراك مرتبكا مهموما في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، والناس حولك غائصون في راحة النوم، متنعمون؟ فكأني بك على أهبة سفر بعيد... سفر لا رجوع بعده؟» فانبسطت أسارير وجه الشاب، وقد وسمه الاستهتار بغضون الضنا والاكتئاب، وحاول ابتسامة زادت في تضاعيف ذلك الوجه الشاحب المجعد قبل الأوان، وأجاب الكونت:

«غريب في أفكارك، يا سيدي الكونت، وأنى لك هذا الاستنتاج العجيب، فأنا دائب على ترتيب أوراقي، محتفظا على المهم منها، ومتلفا ما لست في حاجة إليه، حتى لا تبقى في جراري حشوا نافلا...

- واكمل الكونت: «حتى يتسنى لك فيا بعد أن تُطيِّر مخك برصاصة، فتذهب هادي البال، في شأن ما تتركه بعدك» ونظر إليه بمجامع عينيه متأملا متوسما...

فاستطير الشاب وأخذته رعدة لم يتمكن من كبحها، وصوب إليه نظرات دهش وانذهال... «من أين لك هذا الفكر؟ - أنا مطلع على كل شيء... وأنا لا أجهل أيضا أن السبب هذا القصد هو ما حل بك وبأهلك من الانكسار والافلاس، وما يهددك من الإملاق والفاقة، من جراء الخسائر الفادحة التي جرها عليك ادمانك على لعب القمار، وخصوصا الخسارة الأخيرة، التي اربت قيمتها على الستين ألف فرنك وليس لديك منها ولا فلس، ولتسديدها سيبيع أهلك ما بقي لهم من العقارات، وآنئذ سيرتطمون في الفقر والذلة... وأنا أعرف أيضا أن عليك ديونا أخرى تتراوح ما بين السبعين والثانين ألفا، وأنا أعرف أن الدائنين يلحون عليك، ويسرفون في الالحاح، وأنت أمامهم ذليل حقير، ومما زاد في قنوطك ويأسك هجران أصدقائك، فقد خذلوك وخانوك، ولم يعد فيك أن تصبر على كل هذه المصائب التي تراكمت عليك، فأرهقتك، فعمدت على التخلص من هذه الحياة، بقتل نفسك...» فبهت جود، وأصابه ضرب من الخبل، بينما كان الكونت يسرد عليه تاريخ مصائبه، وقصة بلاياه، «وكيف اطلعت على كل هذا؟ ومن الذي أعطاك هذا

الخبر؟..» - فاتكأ الكونت على حافة الطاولة، وأخذ يداعب شاربيه، ونظره مصوب إلى وجه الشاب الجالس أمامه ساهما سادرا، فانتفض الشاب برعشة وحدق في الكونت «كيف اطلعت على شؤوني؟؟؟ وعلام جئت إليّ، وأنا لم أدعك، ولا أريد منك أمرا؟» فأوقفه دون ميشيل بهدوء «جئت لكي أوقفك في طريق الشر والإثم، جئت لأرجعك إلى طريق السداد والشرف، جئت لكي أقيلك من عثرتك، وأضمّد جراحك الدامية... - ليس لك معي: من شأن، وأنا لست في حاجة إلى خدماتك، فدعني وشأني، وحسبي منك خدمة...- لا تَثُرْ يا جود، فهي حدة نزق، ستهدأ، وستذكر فعلتي معاك بالشكر الجميل، فهد من بشرتك، فأنا لا أخفي عليك أمرا وقد اعتدت أن أكون صريحا في كل حديث، وليس من ديدني أن أخفي شيئا مما أعرفه، وليس لي أن أموّه ما أعتقده حقيقة راهنة». فكسرت هذه اللهجة الهادئة من حدة جود، وغرزت هذه النظرات الساحرة إلى أعماق فؤاده وألقت فيه شيئا من الرهبة والجزع، الذي مهد السبيل إلى الانقياد والاذعان، فصمت ولم يُجب بكلمة، بينما الكونت يتابع حديثه، «جئت يا جود أتدارك الخطر قبل أن يداهم، وأرد السهم إلى الكنانة، قبل أن يُرْمي، فانا لست من هؤلاء القوم الدّينين، ولست ممن يصومون ويصلون، فقد رباني والدي في الحرية الكاملة، فيما يختص بأمور الدين، فلم أكترث بها صغيرة، ولا أنا مهتم بها كبيرا، فقط إني أكره قتل النفس، فما قتل النفس إلا جبانة ونذالة، أما أنت فقد ربيت على أمور الدين، وكنت منذ صغرك من الأتقياء الذين تعودوا الاختلاف إلى الصلوات في الكنيسة، فإيمانك يحرم عليك أهلاك نفسك، وهو يتوعد الذين يقتلون نفسهم

بأشد العقوبات، فضلا عن أن الكنيسة تحرم عليهم الدفن الديني، وأنا أعلم أنك ربيت في حضن أم تقية أرضعتك حب الله مع لبنها، إلا أن المنون قد عاجلها، فيحرمك من حنانها وأمثالها الصالحة، ومع ذلك فقد ترعرعت محافظة على أمور دينك، وكنت ملموحا بين أترابك، بالتقوى وحسن السلوك، وما تغيرت أفكارك إلا عند ما رماك والدك في أتون باريس المتهترة الصاخبة، فأدالت أهواؤك من خصائك الطيبة، فاستهترت غير مُصغٍ إلى وخزات ضميرك، فكنت تُسكتُه بالانغماس في المآثم حتى قتلته، فلم يعد يسمعك صوته منذرا ومُؤنبا، أوَ ما تحس الآن بصبغة حياء تعار وجهك، الذي كان مسيحيا متعبدا» فغطى جود وجهه بين يديه، وزفر زفرة محرقة خرجت من أعماق قلبه الكسير «آه ما اتعسني! أين شرفي؟ أين شرفي؟ فقد طفت في الحياة التي عشتها كل جذوة شرف وإباء، يا ويل أمي في وجدها، ما عساها تفتكر بابنها المسكين البائس؟ وهل تراني من تحت التراب؟...

-- شرفُك!.. فها هو يثور من مكامنه الحقة، ولم تمت تمام تلك النفس الأبية التي خلعت عليها أمك قبسا من فضائلها فلا تنسّ أمك ولا أباك، ولا تذهل عن ذكر اخواتك، فكنت ساعيا في دفنهم أحياء بإقدامك على مثل هذا العمل الشائن، وكيف يتاح لهم أن يسيروا في الشوارع بين الملا، إذا عرف أن ابنهم قد ذهب ضحية أهوائه ودناءته؟

- لقد افتكرتُ بكل هذا، إلا أن الحياة أصبحت علي عبئا لم يعد في وسعي حمله... فليس لدي ما يلي نصف ديوني، فالخزي والعار نصيبي». وأمعن جود في البكاء والنشيج...

- «الخـزي والعـار، أو تظـن أنـك سـتمحو وصمـة الخـزي والعـار بهـدر دمـك؟ أمـا تـدري أنـك تريـد الخـزي خزيـا؟ أو تظـن أنـه ليـس عـارا أن يقـال «فـلان انتحـر» فيـا للـذل والنذالـة، وإني لا أجهـل أن بـين ظهرانيكـم بعضـا مـن النـاس غريبـا في أفـكاره وأعمالـه، فإنهـم إذا رأوا إنسـانا قـضى برصاصـة أفرغهـا في دماغـه تخلصـا مـن أعبـاء الحيـاة التـي اثقلتهـا جرائـره، قالـوا «حسـنا فعـل» فإنـه قـضى للعـدل مـا عليـه، فتبّـا لهـم مـن أغبيـاء سـافلين...»

وارتفـع صـوت الكونـت متحمسـا جريئـا، ثـم خفتـه بسـكينة، ومضـات رأس. جـود بهـدوء: «إني أتيـت، يـا صـاح، لـكي أنقـذك مـن هـذه الورطـة، وأنـا أقـدم لـك وفـاء ديونـك كلهـا، ثـم سـأدبر لـك مركـزا يكفيـك مؤونـة السـعي وراء قوتـك ويضعـك عـلي سـبيل الغنـي والـثروة».

فنظر فيه جود: «أنت؟»... وبرقت في وجهه مخايل الدهشـة والرجاء...

- «نعـم، إني أضمـن لـك هـذا، بـشرط أن تتخـلى لي، عـن إرادتـك، لـكي لا تتبع إلا إرادتي، وسـتقدم لي الآن قسـمة أمليـه عليـك، وتوقعـه أمامـي، واعلـم أن الحنـث بـه يقـودك إلى أشـد الويـلات... إن لم يكـن المـوت الأحمـر...».

فاصفـر جـود، ونـزا قلبـه هلعـا ووجـلا، وبقـي هنيهـة واجـما شـاخصا إلى وجـه الكونـت، وقـال «لا أدري مـا تقـول، ومـا تعنـي بكلامـك...

- الأمـر، بسـيط واضـح، لا خفـاء فيـه ولا غمـوض. إني بحاجـة إلى رجـال أوفيـاء يكونـون بـين يـدي أطـوع مـن بنـاني، وفيهـم أضـع ثقتـي، فيذعنـون إلى إرادتي بـدون تفحـص ولا جـدال، وأنـت سـتكون أحـد هـؤلاء الرجـال، وأنـا سـأهبك ثـروة لم تهـدس بهـا قـط ولم تخطـر لـك ببـال، وكـن عـلى يقـين

مـن إني لـن أطلـب منـك أبـدا مـا يأبـاه شرفـك، فـإني قـد وطـأت نفـسي عـلى عمـل العـدل، ولـدي للحصـول عـلى مـآربي ذرائـع ووسـائط لا يحلـم بهـا ولا يـدري بهـا إلا أمنـاء سري... فافتكـر خمـس دقائـق وأجبنـي. فـإذا رفضـت، فالشـأن شـأنك، وأنـا ذاهـب، واعمـل مـا بـدا لـك... فقـط عـلى أن يبقـى هـذا الحديـث سرا دفينـا بـين هـذه الجـدران، وإذا مـا تعداهـا وشـاعت منـه كلمـة، فعـد نفسـك مـن الأمـوات، وهـيء لـك الأكفـان».

فانتصـب السـيد جـود مرتعـدا، ونظـر إلى الكونـت بجـزع وحـيرة «مـن أنـت يـا تـرى؟ حتـى تمـلي عـلي أوامـرك، وأنـا كالآلـة الصـماء؟ - مـن أنـا؟ أجابـه الكونـت ضاحـكا هازئـا، كأنـك تجهـل اسـمي، يـا صديقـي جـود، فانبـذ جانبـا الـكلام الـذي لا طائـل تحتـه، وافتكـر مـا قدمـت لـك، وأجبنـي». وأخـرج مـن جيبـه علبـة مرصعـة بلؤلـؤ رجـراج، وانتشـل منهـا سـيجارة أشـعلها، وأخـذ ينظـر في السـقف كأنـه يعـاد العـوارض، وهـو يمـج مـن فيـه تلافيـف الدخـان المتصاعـد مـن السـيجارة المحترقـة... ولبـث ينتظـر جـواب جـود.

وكان جـود جالسـا سـاندا رأسـه، والافـكار تتواتـر إليـه زاخـرة طاميـة، لا وحـدة بينهـا ولا ائتـلاف، وقـد اعترتـه ذهلـة إزاء هـذا الرجـل الجالـس أمامـه عـلي عليـه أو أمـره وهـو بـين يديـه كإنسـان لا إرادة ولا شـخصية لـه، وشـعر بـأن السـحر الـذي يشـع منـه قـد ملـك عليـه مشـاعره، فليـس في اسـتطاعته أن يرفـض مـا يعـرض عليـه... ثـم فكـر الديـن والمـال.... فإنـه يعـده بمـال جزيـل، ويعـده بايفـاء جميـع ديونـه، وتذكـر إذ ذاك أسـماء بعـض أشـخاص مـن معارفـه، قـد أثـروا بعـد إتـراب، ولم يـدر أحـد مصـدر

هـذا الغنـي، فلعـل دون ميشـيل هـو الـذي أمدّهـم بمـا أنهضهـم مـن حضيـض الفقـر والعـدم، إلى الغنـي والرفاهيـة، وأنـه يعـرف بـين زملائـه واحـدا لا يـزال سـحابة نهـاره جالسـا عـلى طاولـة القـرار، ولا يـزال خـاسرا، مـع أنـه لا يشـتكي فقـرا ولا عـوزا، كأن لديـه ينبـوع مـال ينبجـس لـه بـلا انقطـاع... ألعـل دون ميشـيل هـو ذلـك الينبـوع وهـو يـدر عليـه بـدر الذهـب؟ ولكـن الـسر الـذي يبهـظ بـه كاهلـه، عـبء ثقيـل قـد ينـوء بـه، وهـب أن لسـانه قـد زلـق بحـرف، سـيُهدر دمـه، فارتجـف جـود لهـذه الفكـرة، وارتعـدت فرائصـه لفكـرة المـوت، الـذي يترقبـه، كأنـه لم يـك قبـلا يناديـه، وكأنـه لم يُعـدّ لـه عدتـه. فهـو الطبـع البـشري الغريـب التغـير، الـذي لا يبقـى عـلى حـال، فـتراه يحـب مـا شَـنَأه منـذ حـين، كـما تـراه يَقْـلى مـا تهافـت عـلى اقتنائـه قبـلا، فثـاب إلى جـود حـب الحيـاة، شـديدا مُلحـا... إلا أنـه يحجـم أمـام هـذا القسـم الثقيـل الـذي سيسـلم بـه إرادتـه إلى إرادة دون ميشـيل، فـما عسـاه يعمـل بـه؟ وإلى أيـن مصـيره، بعـد أن يلقـي إليـه زمـام نفسـه؟.

فنظـر الكونـت إلى جـود، والتقـت باصرتهـما، فجـرت في جسـم جـود قشـعريرة، عقبهـا رشـح عـرق بـارد، ترجرجـت قطراتـه عـلى جبينـه الشـاحب، وقـال دون ميشـيل:

«قـد مر خمس دقائق، يا صاحبي».

فتمتـم جـود: «الأمـر عـلى جانـب مـن الأهميـة، ويحتـاج إلى أكـثر مـن خمـس دقائـق، أمـا في وسـعك أن تزيـح لي طـرف الحجـاب عـما ينتظـرني في المسـتقبل؟ حتـى أسـير عـلى هـدي وبصـيرة؟.

- أطلب منك أمرا واحدا، دونه كل شيء: الطاعة الكاملة، الطاعة التامة، الطاعة العمياء.

- وإذا ما أمرتني أشياء ينكرها ضميري ويأباها شرفي؟

- لا تخف، فأنا رجل أمين فثق بي ولا تُرَعْ، غير إني أرى منك العجاب أن تتكلم عن ضميرك بعد ما حملته من الأعباء والمخازي، فضميرك واسع (مطاط) لا يضيق بمعصية، بعد تدميرك بيت أبيك وتبذير مال أهلك، فضلا عن أنك اقترضت ديونا أنت عارف بأنك عاجز عن ايفائها، ومنذ حين كنت ناوية على الانتحار، فكل هذي الأفعال الشنعاء لا يرضاها الضمير، ولا يحلها، ولا تتلاءم والتعاليم التي تلقتها منذ الصغر».

فاصفر وجه جود، وتجعّدت ملامحه، إلا أن الكلمات تلاشت على شفتيه، لما رأى الكونت مصوبا إليه نظرات حادة قاسية، وهو يقول له: «أنا في انتظار جوابك» ثم نفث نحو السقف نفخة دخان تصاعدت متلوية، إلى أن تذرت في الفضاء، فخنقت جود غصة، وبومضة وَزَنَ ما هو مقدم عليه: أما الخراب والدمار، وأما اليأس والموت، وأما العيش في ذلة وبؤس، وأما الانقياد لهذا الرجل الذي يساومني إرادتي وحريتي، فيقدم إليّ عوضا عنها المال والغني والشرف، فحدق في الكونت وقال: «نعم، أنا راضٍ».

- «فوقّع الآن نص القسم « وانتشل من اضبارته ورقة مدها إلى جود، فتناولها هذا وقرأ ما فيها: «إني اقسم بكل ما لدي من غال ومقدس، أن أكون عضوا أمينا في جمعية اخوان العدل، وأن أطيع طاعة عمياء لأوامر زعيمنا، وأن أحفظ السر باحترام، مهما طرأ علي حتى ولو عرضت

نفسي لادهى المصائب والموت، وإذا ما خالفت أو أمر هذه الجمعية فأنا على استعداد لاحتمال كل ما يلحقه بي الزعيم من قصاص وعقاب، ولا مفر لي منه، مهما غاليت في الاختفاء والتستر، فإنهم سينالونني أينما كنت، لأن لهم عيونا في كل الأصقاع، فإن أعضاءهم مبثوثون في كل مكان، فيستحيل على أن أهرب من ثأرهم». ومن جديد اعترت جود رعشة، وتلكأ في القراءة وقال: «وهذا ما يجب علي أن أوقعه» فأجابه مارسيل: «نعم وعَجِّل، فالوقت قد فات». فتناول جود قلم وخط بيد مرتجفة أحرف اسمه على الورقة، وسلمها إلى الكونت، فطواها ودرجها في محفظته، ثم مد إلى جود ورقة أخرى: «هذه لائحة ديونك، أليس كذلك؟» فلم يتماسك جود من هتاف استغراب واستعجاب،

كيف توصلت إلى معرفة هذا؟ فاللائحة مطبوعة لا ينقصها شيء.. - إني قلت لك أن اخوان العدل يعرفون كل شيء، ولا تخفى عليهم خافية، فكن الآن مطمئنا، فكل هذه الديون ستُسدد في القريب العاجل، وأنت، عليك بالتأهب للسفر إلى الشيلي، في ثمانية أيام، وأخبر معارفك أنك مهاجر إلى أملاكي حيث ستنال مركزا حسنا وعيشة هنيئة، وآن وصولك هناك، اذهب توا إلى مزرعتي وأعلم المدير الذي ينوب منابي أنك موفد من قبلي، وهو يهتم بأمرك، ويدلك على كل شيء ويطلعك على كل ما يلزم.

- وأنت يا سيدي الكونت، لن تعود هناك؟ - لا شأن لك معي، فانك ستعلم عند ما تندمج في سلك جمعيتنا وتُلِّم بنظامها، أنه لا يجوز لأحد أن يسألني عما أعمل، وعما لا أعمل، فأنا الزعيم، والزعيم لا

يحاسبه أحد». فجاشت في صدر جود نزوة غضب ما لبث أن كظمها لئلا تظهر على ملامحه، لأنه شعر أنه ليس بخدن لهذا الرجل الذي ألقى إليه مقاليد نفسه، بل أصبح بين يديه آلة صماء يعمل بها، ويديرها كيف شاء هواه، وليس له إلا الإذعان والطاعة، فضاقت بوجهه الأرض برحبها... وهفا فؤاده جزعة... إلا أن الكونت قد تنبه لما يخالجه من الهم والشجن، فقاطعه بلهجة لا تتحمل ردة ولا عصيانا: «عند ما تلتقي بالمدير، بادره بهذه العبارة: «الإخوان يعملون في سبيل العدل» ثم قدم له هذه الورقة، وناوله قطعة من جلد مربعة، قد رسمت عليها الشمس تتشعب منها الأشعة في الجهات الأربع، فهذه هي شارة اخوان العدل، وهو الشعار الذي به يتعارفون. فإذن يجب أن تحافظ عليها بكل تحرز واحتراس... أتفهم ما أقول؟ - والآن وداعا فقد حان وقت الفراق، ولا تتأخر في الاستعداد للسفر». ونهض، ونهض جود معه مدفوعا بعامل لا يتفهمه، كأنه الآلة. وقبل أن يفترقا، تقدم جود برهبة، وقال: «لا أفهم الاسبانية» فأجابه الكونت ستتعلمها، وسأرسل لك غدا رجلا يبتدئ بتلقينك مبادئها، ويوضح لك، أكثر مما فعلت الآن، واجباتك نحو الجمعية... وأنعم مساء يا جود». وتناول مارسيل قبعته واتجه نحو الباب دون أن يصافح جود المصافحة الأخيرة، وقبل الخروج التفت نحوه وشمله بنظرة عميقة كأنه يستطلع أسرار قلبه، وهو يقول له: «أنصح لك يا جود، أن تنعم الفكر في القسم الذي لفظت به منذ حين، فإنه ثقيل، وحذار أن تحنث به... فاعترت جود رعشة، وأصبح كالحيران يميد به شَجوه، وجاشت في صدره غصص

الهمـوم، ورأى نفسـه صغـيرا حقـيرا، إزاء هـذا الرجـل السـاحر، وتمتـم: «أنـا طـوع يديـك، يـا سـيدي، فقـد بذلـت لـك قيـادي، ولـن أتخطـى مراسـيمك وعندمـا أغلـق البـاب، ارتمـى جـود عـلى كرسـيه مهـدود القـوى خائـر العـزم وهـو يتسـاءل أفي الحلـم أنـا أم في اليقظـة؟ وأمـرَّ يـده عـلى جبينـه كأنـه يتجسـس هـل هـو في قيـد الحيـاة، وهـل هـو يشـعر بـشيء، فشـعر بالعـرق البـارد يترشـح مـن جبينـه... ولكـن هـل الرجـل الـذي كان جالـس بقربـه، إنـسٌ بلحـم ودم، أم هـو شـبح مـن الاشـباح الحائمـة فـوق القبـور؟... أي نعـم، هـو حـالم، فلـم يكـن أمامـه إلا سـاحر مشـعوذ أسـلم إليـه زمـام نفسـه، كـما سـمع أن بعضـا يسـامون نفوسـهم إلى الشـيطان... فتسـاقطت نفسـه حـسرة، وهزتـه رجفـة عنيفـة، رجفـة الطائـر وقـد شـعر بشـبه المديـة المشـحوذة يجـز رقبتـه... فارفـض جسـمه عرقـا بـاردا، لمـا رأى بجانيـه القطعـة المربعـة السـوداء، المنقـوش عليهـا هـذا الرسـم الغريـب...

فـما هـذا الرجـل؟ وعـلام سـلمته قيـادة نفـسي؟ وعـادت إلى ذاكرتـه في تلـك الدقيقـة الهائلـة، جملـة سـمعها يومـا مـن كاهـن، في عظـة الآحـاد: أن مـن يبتعـد عـن الايمـان، ويهجـر خدمـة اللـه، يستسـلم بـكل سـهولة لقـوات الـشر الجهنميـة. فهـل مارسـيل روح شـاردة مـن تلـك المملكـة المظلمـة ؟ إنـه زعيـم جمعيـة سريـة. مـا الهـدف الـذي يتوخـاه؟ وأنـا الآن مـن أتباعـه، وأنـا لـه عبـد وخـادم، فـما عسـاه يعمـل بي؟ ومـن جديـد عـادت إليـه كلمـة كأنهـا راجعـة إليـه مـن عهـد صبـاه، سـمعها مـن أختـه الكـبرى مادلـين التقيـة: «لا تريـد أن تخـدم اللـه؟ فحـذار مـن أن تصبـح خادمـا

للخليقـة، أتأنـف مـن إطاعـة أوامـر اللـه، فحـذار مـن أن تسـلك مسـلك الابـن الشـاطر، فيصيبـك مـا هـو أرذل وأقبـح...»

فقـد حقـت هذه الكلمة، وغدا ما كان يظنه مسـتحيلا، أمرا واقعا.

الجزء الثَّاني

الفصل الأوّل

السَّفر

جلست أنيسة على دفة المركب الذي كان يمخر عباب البحر الطامي، وأناملها الناعمة تجري في ثنايا نسيج تحوكه لترسله إلى الأخت حنة، حتى ترد به قرحات البرد عن أطفالها الأيتام المساكين فكانت ترسم الحلقة ثم الحلقات، ثم تمد طرفها نحو الآفاق الشاسعة حيث تتعانق الغمرات الزرقاء بزرقة السماء فتسرح بالفكر إلى البلد العزيز الذي تبتعد عنه، وتحن إلى ذلك الدير الهادئ حيث قضت السنين العذاب، وحيث تركت جزءا من صباها وحبها... وأناملها لا تكف مع ذلك عن السير في النسيج، فالحلقات تتابع عجلى متواترة، كأفكارها، وهي تسرع في انهاء عدة أكسية سترسلها من ليما حيت ستلقي الباخرة مراسيها، إلى الأخت حنة، وها إن قلبها يغمره الحبور لفرط افتكارها بجذل الأخت عند استلامها هذا الطرد الثمين...

وبعد ما رست بهم الباخرة، قضت أنيسة ستة أيام في عاصمة الشيلي محبوسة داخل غرفتها، لتتم ما ابتدأت به، في سبيل الأخت حنة وفقرائها.

أما اندريا فقد شغل بعقد اتفاق مع الحكومة الشيلية، لكي تأذن له باستغلال المناجم التي قدم لأجلها، ولم يذهل عن استئجار بعض رجال وطنيين يكونون له أدلاء في تلك الجمال الموحشة، وجهزهم بالسلاح الكامل والعدد اللازمة لكي يصدوا عنه هجمات العصابة المتسترة في

مكامـن الطـرق المؤديـة إلى المناجـم المنشـودة، ومـما زاده تحفظـا وتمنـع مـا سـمعه مـن أحاديـث القـوم هنالـك عـن بطـش تلـك العصابـة، وسـلطة زعيمهـا: الأكـبر، الـذي يدعونـه سـلطان الانـد، والكونـدور الاعظـم، فـإن خوفهـم قـد وقـع في قلـوب الأهـالي، فـلا أحـد يجـرؤ عـلى التوغـل في تلـك النواحـي، ومـما يزيـد الرعـب، تكتمهـم العظيـم، ومفاجآتهـم الغريبـة، فهـم في كل مـكان، ولا يـرون في مـكان، فهيبتهـم تسـيطر عـلى كل الأصقـاع في هـذه الجبـال الواسـعة، إلا أنـه لم يصمهـم أحـد بالشراسـة والقسـاوة، ولم ينسـبوا إليهـم قـط شـيئا مـما يألفـه قطـاع الطـرق مـن النهـب والارهـاب، لا بـل يصفـون أعمالهـم بصبغـة عـدل ظاهـرة، ويظهـرون بظهـر القضـاة العادلـين فلـم يسـمع قـط أنهـم اجتاحـوا مزرعـة إنسـان شريـف كريـم، غـير أنهـم عاثـوا فسـادا في مـزارع رجـال اشـتهروا بالظلـم والجـور، وارهقـوا غيرهـم ممـن حشـدوا أموالهـم بطـرق العنـف والإرهـاق، ومـما يذكـر لهـم بالحمـد أنهـم قبـل أن يوقعـوا بهـم، كانـوا ينذرونهـم أولا وثانيـا، لـكي يرتدعـوا عـن ظلمهـم، ولا يصيبونهـم بـضر إلا بعـد اخفـاق وعيدهـم، فينقضـون عليهـم إذ ذاك انقضـاض الصاعقـة، وينـشرون الخـراب واليبـاب في ديارهـم، ولا يريقـون الـدم إلا عندمـا يلقـون مصادمـة، وإن كثيريـن مـن هـؤلاء المزارعـين الظالمـين غابـوا ولم يعـثر لهـم عـلى أثـر، فشـاعت بـين الأهـالي اشـاعات شـتى متغايـرة متناقضـة، فمـن قائـل أنهـم غـدوا أكلا للضـواري، ووحـوش الفـلا، فمزقتهـم وأكلتهـم بـدون أن تبقـي ولا تـذر، ومـن قائـل أنهـم مأسـورون في معاقـل سـلطان الجبـل المنعـة الحصينـة، التـي لا يسـتدل عليهـا... وقـد تقـدم إلى اندريـا قنصـل فرنسـا في الشـيلي وأعضـاء الحكومـة المحليـة، لـكي يقنعـوه أن يرتـد عـن عزمـه، ويقلـع عـن

هـذه المجازفـة الجريئـة الغاشـمة، إلا أنـه إبى أن ينتصـح، ورفـض بعتـو كل نصـح وارشـاد، فهولـوا لـه بوصفهـم بطـش العصابـة وفتكهـا، ووعـورة تلـك الجبـال وغمـوض الطـرق في تلـك المجاهـل والشـعاب التـي لا يهتـدي فيهـا، وإنـه يعـرض نفسـه وكل أفـراد بعثتـه إلى المـوت الـزؤام، لا محالـة، إذا لم ينكفـئ ويرتـدع، فـأبى أن يصغـي إليهـم، لأنـه وجـد مـن جشـعه وطمعـه حافـزا يقويـه، ووقـرا يسـد أذنيـه عـن اسـتماع النصيحـة، فوطـن نفسـه عـلى الأقـدام، واقتحـام كل العقبـات، وتذليـل كل العراقيـل التـي سـيجدها في طريقـه، وكذلـك الأمـر أولاده، فلـم تهلهـم كل مـا صـوره لهـم القنصـل وأعضـاء الحكومـة، ظنـا منهـم أنـه الحسـد ينخرهـم لعجزهـم عـن القيـام بمـا يقـوم بـه اندريـا وأولاده، وكيـف يرتـدع ارمـان وادمـا، وقـد برقـت أمـام عيونهـما الدنانـير الوهاجـة، وقـد أيقنـا بالحصـول عـلى مـا تطمـح إليـه نفسـها مـن المـسرات والملـذات، أينقبضـان ويجحفـان والغنـى منهـا عـلى قـاب قوسـين أو أدنى؟ فهـذا مـما لا يخطـر لهـما ببـال، ولا يـرضى بـه شرفهـما، فلـذا أصرا عـلى السـفر، وركـب رأسـيهما.

إلا أن اندريـا لم يجـد بسـهولة أدلاء يرافقونـه في هـذه الرحلـة الخطـرة، ولـولا بـذل المـالي الجزيـل، لمـا وجـد رجـالا يرضـون بصاحبتـه في هـذه الجبال.

أمـا أنيسـة وموريـس فلـم يدريـا بمـا ينتظرهـا مـن الأخطـار، فـإن اندريـا قـد التحـف بالتكتـم والتسـتر لـكي يخفـي عليهـا حقيقـة الحـال، لئـلا يمتنعـا عـن المسـير معهـم، وكان بقـي الأمـر مطويـا عليهـا لـو لم يلتقـط موريـس عـلى سـبيل العـرض، بعـض كلـمات سـارّها ارمـان إلى ادمـا ورددهـا اندريـا إلى صاحـب المنـزل الـذي كانـوا قاطنـين فيـه، فأقلقـت خاطـره، فـراح يسـترق

السمع حينما استطاع إلى ذلك سبيلا، وعلق يتسقط الخبر من مظانه ويستكشفه حتى انجلى له وشاع، فاسقط في أيديهما، وساورهما الفزع والخوف الشديد، وأعلنا ارادتها على الأحجام والتقهقر، ففقدا الراحة والطمأنينة، ولم يعودا محتملان عشرة اندريا وأولاده، لما كانا يقاسيان منهم من ضروب العسف والازعاج، فإن أنيسة كرهت بالأخص ارمان لاسترساله في هذه التملقات الدنيئة للتزلف منها والتودد إليها، وكلما لج في غوايته ومغازلته ازدادت منه نفورا، وأمعنت في كرهه، ولم يكن حظها مع ادما بأسعد، فإن قلب هذه، كان يتآكل حسدا وحقدا، كأنها آلت على نفسها أن تختلق ألوان الإرهاق لإيذائها واقلاقها، ولم تشأ قط أن يستصحبها للتجول معها في شوارع ليما لأن عيون السابلة كانت تحدجها وتعلق بها مفتتنين مجالها الرائع، ومشيتها المتأنقة الرصينة، بينما هي تمر ولا أحد يأبه لها، ولم يكن أحبّ على أنيسة من هذا الجفاء، ولا الله على قلبها من هذا الهجران، لأنها كانت تنتهز فرصة غياب أولاد عمها لتكب على الخياطة والنسيج، لأجل يتامى الأخت حنة...

فخرج يوما اندريا وأولاده مع قنصل فرنسا، لقضاء النهار في أحد المتنزهات في جوار تلك المدينة، فذهبت أنيسة بصحبة أخيها لحضور القداس في إحدى الكنائس وحين خروجها تجولا في الشوارع مستنشقين الهواء الناعم، الذي ترسله إلى المدينة أمواج البحر المتراقصة... ثم عادا إلى المنزل وتناولا وجبة الفطور مع السيد شارل والسيد ريمون سافلدا، وريمون سافلدا في الخامسة والخمسين من عمره، وقد تعاطى التجارة في باريس، وجمع ثروة لا يعبأ بها، إلا أن مضاربة بعض الأنداد،

قد أوقفت علية أرباحه، واجته إلى الإفلاس.، فارغم على بيع أملاكه والمهاجرة إلى الشيلي، كمثل تجاري لإحدى الشركات التجارية، فهو رجل دمث الأخلاق، رزين غاية في الرزانة، ولا يخلو من بعض التكتم والتستر مما يثير التحرز منه والتحذر، ولاحظت أنيسة في مواقف عدة أنه لا يفضي بكل ما يجول في خاطره من أفكار، فيظهر في مظهر الارتباك والحيرة، كأنه يتساءل هل يقوم أم لا، وبعد الفطور اقتعدت أنيسة جناحين من البيت يطل على الشارع، وفي يدها النسيج، فلمحت سافلدا قادما نحو المنزل، لما اعترضه رجل اسمر اللون باطمار رثة، وواجفه وهمس له ببعض كلمات انقبض لها، وبان كأنه مغضوب ومقهور، وتركه الرجل، وولج سافلدا النزل شاحبا مهموما.

وبعد لاي، نهضت أنيسة من محلها وهرولت نحو غرفة موريس الذي حبس نفسه لإتمام بعض رسوم ابتدأ بها، فوجدته واقفا مع السيد سافلدا يستفهمه عن أمور مرت في خاطره؛ فبادرها موريس أنا اسأل سافلدا عن النقش المرسوم على أسقفة رتاج الكاتدرائية» وللحال كف عن الحديث وقفز نحو النافذة، صارخا «لله ما أحلى هذا الموكب» أنيسة، تعالي وانظري، فيخفت نحو النافذة واتكأت على أخيها وشاهدت، دالجة من الطرف الآخر مركبة في منتهى الجمال والزخرف، يقودها جياد مطهمة مجللة بالسرج المذهبة، وتكتنفها الذوائب الحريرية المتلألئة، وحوذيها متشح ببرة شيلية رائعة فخيمة، وفي داخل المركبة رجل في ريعان الشباب، فرمقته أنيسة، وغشيتها حيرة وذهول.... وماتت على شفتيها كلمات الاستعجاب «أليس هو، يا ترى؟... فما أتى به ههنا؟ كلا، أنها تحلم، وكأني بها تتمثله في كل

طريـق... فالتفتـت مـن فورهـا إلى سـافلدا تسـأله، فارتـج عليهـا، وغابـت الألفـاظ عـن ذهنهـا عندمـا شـاهدته مسـبوها سـادرا، وقـد تقلصـت بشرتـه، وعيونـه تلحـق المركبـة في عدوهـا السريـع، إلى أن تـوارت عـن العيـان...

فهتـف موريـس، هـل رأيـت، يـا أنيسـة، مثـل هـذه المركبـة عظمـة وخامـة؟ وعـدا خـارج الغرفـة ليسـتخبر عنهـا السـيد مايـلا، صاحـب النـزل، عـن أمـر هـذه المركبـة وهـو يقـول «مـن لي بواحـدة نظيرهـا؟ فمـن هـو صاحبهـا»

فتبعتـه أنيسـة، فالقـى موريـس بـآل اندريـا، وهـم راجعـون مـن نزهتهـم، فبادرتـه ادمـا، بلهجـة الغطرسـة والخيـلاء «مـا عـسى أن يكون هـذا الموكب؟» ثـم سـألت السـيد مايـلا «ومـن يـا تـرى الشـاب الغطريـف الزاهـي الطلعـة، الـذي يحفـه هـذا الموكـب الشـائق... موكـب أحلامـي...»

فأجابهـا مايـلا «هـذا الكونـت مارسـيل، دون ميشـيل الظريـف، كـما يدعونـه هنا »

- مارسـيل «صرخ ارمـان، هـذا اسـم فرنـسي، وقـد قـرأت عنـه في جرائـد ومجـلات باريـس الطريقـة اللاهيـة.. - أي نعـم، مـن أصـل فرنـسي، وقـد اسـتوطن جـده هـذه البـلاد، وهـو الآن أكـبر مـزارع في أمـيركا الشـمالية، وهـو رجـل غريـب في أطـواره وأطباعـه، فـلا يهـدأ لـه حـال، ولا يسـتريح في مـكان، فهـو ابـدأ في حـل وترحـال، تـراه تـارة هنـا، وبعـد قليـل هنـاك، ويجـوب البـلاد وينتقـل فيهـا بـدون أن يـدري بـه أحـد، فيختفـي فجـأة ويظهـر كذلـك، ويجـب أن يظهـر أحيانـا بهـذه المظاهـر الفخيمـة حتـى يصبـح حديـث النـاس في اجتماعاتهـم وخلواتهـم، وتحيـط بـه بطانـة قـد تخـير أفرادهـا مـن مختلـف الأقطـار.

- فقال اندريا «لعله مطروق أرعن؟»

- كلا، وألف كلا، فليس من هؤلاء الرجال الذين تستخفهم العظمة، وليس مذهوبا ولا مطروقا... لو قابلته مرة، لما استطعت أن تتحلل من سحر عينيه، فهو معبود بين أتباعه، وتراهم مستعدين لأدنى إشارة منه أن يضحوا بكل غال وثمين لديهم ارضاء له، وائتمارا بأوامره.

فسألت ادما بلهفة، وهل هو متزوج؟... لله سحر عينيه، فقد خلبتا عقلي...

«كلا، أيتها الآنسة، وكثر الآنسات اللواتي يتربصن له ليوقعنه في حبائلهن، ولكنه يمر بهن غير آبه ولا ملتفت فكأن قلبه قد قُدَّ من جامد، أو كأن قلبه قد غيبي بطلسم يحميه من العيون الفواتر، ولا أحد يستهويه ويستغويه مثل نفسه، فهو مزهو بها جد الازدهاء».

- فأجاب ارمان «فهو على حق في هذا، فما لنا. والدنيا. فلا شيء يهمنا فيها إلا نفسنا، وتوقف عن الكلام لمّا لمح أنيسة قادمة، وتابع كلامه الأول... ما عدا التي أعدها القدر لأن تكون شريكة حياتنا، وأعز الناس لدينا» فقهقهت ادما، هازئة «قه... قه... ها قد غلبتك العاطفة، يا ارمان، وعدلت من كلام الاثرة وحب الذات، لفرط رؤيتك أنيسة... أنظري، يا أنيسة، كيف يغازل ويتغزل؟ أيليق به هذا؟»

- فأجابت أنيسة بهدوء ورصانة «كلا، وإني لم أعهد مثل هذا في ابن عمي.»

- فقال ارمان «وأنى لك هذه المعرفة، يا أنيسة، فقلبي في رقة العاطفة!

والتغـزل مـن شـيمي، إذا مـا رأيـت جـمالا كالماثـل أمامـي - وهـذه ادمـا تهـزأ بي وبـك، ولكنـي ضمـين مـن أن رؤيـة هـذا الشـاب قـد مـزق قلبهـا، وأضـاع شـيئا مـن رشـدها حتـى تتحفنـا بمثـل هـذه السـخافات».

فزرتـه أختـه بغضب «إنك لا تفتح فالـك حتى تفيض بالمجون والجنون...»

وقطـع عليهـا الـكلام ظهـور العـالم شـارل فدانـاه ارمـان لمـا رآه يتنـاول قبعتـه كأنـه متهـيء للخـروج، فسـأله «هـل تـرضى منـي رفيقـا؟» فأجابـه شـارل «لا مانـع لذلـك» والتفـت نحـو أنيسـة، وهـل ترافقنـا أيضـا الآنسـة؟ فقبلـت، وركضـت وأتنـت بقبعتهـا، ولكنهـا امتعضـت لمـا رأت ارمـان مـن الرفقـة...

فمـروا معـا في شـوارع العاصمـة، مجيلـين النظـر في البنايـات والحوانيـت الممتـدة عـلى طـرفي الشـارع، ووقفـت أنيسـة أمـام دكان رأت فيـه أنسـجة حريريـة قـد حاكتهـا نسـاء تلـك البـلاد، وأخـذت تقلـب النظـر فيهـا، فخطـر لارمـان أن يهـدي ابنـة عمـه واحـدة تكـون ذكـرى لحبـه، وتمهيـدا للاقـتران السـعيد... فرفضـت أنيسـة واسـتعصت، إلا أن ارمـان تغلـب عليهـا وأرغمهـا عـلى القبـول، ولم تبـد لـه مـن دلائـل الشـكر والامتنـان إلا مـا يحتمـه الواجـب واللياقـة، ولمـا مـد ارمـان يـده إلى جيبـه ليأخـذ محفظـة الدراهـم، أخـرج قطعـة مـن الجلـد سـوداء، قـد رسـم عليهـا شـمس تتبجّـس منهـا الأنـوار إلى الجهـات الأربـع، فاعتلـت وجهـه صفـرة هـي إلى المـوت اقـرب «ألا يزالـون في أثرنـا! حتـى في هـذه الأقطـار النائيـة؟ ومتـى أدرجـوا هـذه الورقـة في جيبـي؟ مـن لي باسـتطلاع سرهـم وفضـح سريرتهـم؟»

فادلهمـت الدنيـا في عينيـه، وغـدا مُسـتطار الأب مزدهـف الفـؤاد، فذهـل

عـن أنيسـة ومغازلتهـا، فـسري عنهـا وانفـرج كربهـا لأنهـا تخلصـت مـن تملقاتـه المضنيـة، ولمـا عـادوا إلى البيـت دخـل غرفـة أبيـه فوجـده مسـتلقيا عـلى سريـره واجـما حائـرا، وادمـا واقفـة بإزائـه مقطبـة عبوسـة، فسـألها ارمـان «مـا لكـم واقفـين كدميتـين كئيبتـين؟ » فأشـارت ادمـا «أنظـر مـا وضعـه لنـا هـؤلاء الأغبيـاء، أثنـاء خروجـي، فإنهـم لا يزالـون في أثرنـا» فتقـدم، فـإذا عـلى سريـر اندريـا مديـة مشـحوذة معكوفـة، مغـروزة في الفـراش، وقـد الصقـت بهـا قطعـة جلـد سـوداء رسـمت عليهـا الشـمس، مرسـلة أشـعتها إلى الجهـات الأربعـة فارتعـدت فرائصـه، وتخاذلـت مفاصلـه، فارتمـى بالقـرب مـن أختـه، وهـو يزمجـر « فـما يريـد منـا هـؤلاء السـفهاء؟ أتـرى لا تروقهـم رحلتنـا، فيحاولـون صدنـا عنهـا؟ أم مـا تراهـم يريـدون؟ ولم هـذا التسـتر؟ وكيـف دخلـوا ههنـا؟ ومـا كانـوا اسـتطاعوا الوصـول إلينـا، لـو لم يكـن لصاحـب الفنـدق يـد معهـم فأجابـت ادمـا «وهـذا أغلـب ظنـي، فلنذهـب إليـه ولندقـق في الأمـر، هلـم يـا أبي، وانـزع هـذا السـأم، فقـد أصبحـت مريـض شـفّه المـرض منـذ عهـد طويـل، فعـلام هـذا الاكتئـاب! فإنهـا مهزلـة يمثلونهـا معنـا، فعلينـا إلا نكـترث بهـا».

- مهزلـة، أجـاب اندريـا مُتأففـا، فأنـا أخـشى ألا تكـون كـما تديـن، يـا ادمـا، وأخـاف مـن أن تكـون مأسـاة سـنغدو نحـن ضحاياهـا، وأن نكـون سـاعين وراء حتفنـا في هـذه المجازفـة الجريئـة - ولكـن علينـا بالسـيد مايـلا، فلربمـا يكشـف لنـا عـن طـرف النقـاب».

فلـما دخـل عليهـم السـيد مايـلا، وشـاهد المديـة والرسـم بجانبهـا، اعتـلاه الاصفـرار وأخذتـه رجفـة، كأنـه لدغـه أرقـم، وصمـد جامـدا لا يعيـد ولا

يبـدي، متمتـما بـين أضراسـه بلهجـة مخنوقـة «اخـوان العـدل!...».

- أتعرفهـم، يـا سـيد مايـلا - بالصيـت والشـهرة، فقـد انتـشر صيتهـم، كانتشـار أشـعة الشـمس المحرقـة، فطبـق آفـاق الشـيلي، لا بـلى تجـاوز الحـدود ووقـع رعبهـم في القلـوب، حتـى أن الحكومـة تحسـب لهـم حسـابا، ولا تجـرؤ عـلى مناجزتهـم - ولكـن مـن هـم، ومـن أيـن هـم؟ - هـذا مـا لا يـدري بـه أحـد ولا يعـرف أنهـم في الوجـود إلا بأعمالهـم، ولهـم صولـة وسـطوة، لا تضاهيهـا صولـة، فـآن الانتخابـات، العضـو الـذي تؤيـده هـذه الجمعيـة، بـلا محالـة، رابـح، وهـو عـادة أصلـح المرشـحين، وأحسـنهم وأعدلهـم، فـإن هـذه الجمعيـة تعمـل في إقامـة العـدل، وتـدأب في قمـع الجـور والظلـم، فـإن هدفهـا صيانـة العـدل ونـشره، وإذا مـا فتكـوا بأحـد، سـواء كان رجـلا أو امـرأة، فهـو لأنـه أمـا حـاد عـن الطريـق واقـترف ظلمـة أو جريمـة، أو لأنـه سـلب فقـيرا عاجـزا مالـه، أو حـرم يتيـما رزقـه، أو اغتصب شـيئا ليـس لـه فيـه حـق، ولم تقتـص منـه الحكومـة ولم يجـر عليـه العـدل، فآنئـذ تقـوم هـذه الجمعيـة لإرجـاع العـدل إلى نصابـه، بالفتـك بهـذا الظـالم، فمنـذ قليـل، كان هنـا رجـل يدعـى بطـرس كمبيلـو، وكان ذا عـز بـاذخ، وصلـف كبـير، وقسـاوة فائقـة، وقـد شركتـه امرأتـه في هـذه الخـلال السـيئة، لا بـل فاقتـه بالاسـتهتار والفخفخـة، بمـا تسـكبه عـلى شـعرها مـن الدهـون والأطيـاب، وتذريـه عـلى وجههـا مـن المسـاحيق، وتضمـخ بـه مـن العطـور، وكان لبطـرس أخ تـوفي عـن ولـد وفتـاة قاصريـن، فاغتصبهـا بطـرس مـال أبيهـا، وأذاقهـا مـن ضروب الحـور ألوانـا لا تطـاق، فلـم يأخـذ أحـد بيـد اليتيمـين، وتركوهـم للشـتم والجـوع وكل أنـواع العسـف، لأن بطـرس ذو مـال

يسد به أفواه اللائمين، والمال أبدا مصون الجانب، مُفْتَغَرُ الهفوات، ولكنه أتى يوم وجدوا فيه برنار جثة هامدة، مطعونا بعدة ضربات، في ساحة بيته، وما زالت المدية التي طعن بها غارزة في جثته موثقة بقطعة جلد مرسوم عليها مثل هذا الرسم الذي ترونه، وعليها هذه الكلمات: «قد ثأر اخوان العدل لليتامى الذين غفل عدل البلاد عن حمايتهم أما امرأته فقد اختفت ولا يدري أحد مقرها، فأرجع المال إلى صاحبيه، وجرى العدل كما أراده اخوانه، على رغم الحكومة.

-- بالحقيقة، في الأمر ما يوجب الرعب والخوف... دخلوا عليه وطعنوه داخل داره؟

- إن لهم غير هذه المواقع التي تشيب من هولها الاطفال، فإن برنار الذي قصصت لكم مصرعه قد قتل الساعة الثامنة صباحا في ساحة قصره بينما كان بيته يغص بالخدم والمال...

- إذن، فأحد هؤلاء غمس يده في دمه، وإلا كيف تسنى لهم الوصول إليه؟

- من يدري؟ فإنه لا أحد يستطيع أن يتحدس ويتخرص، فإن لهذه الجمعية سطوة هائلة غريبة، وقد استعجمت مذاهبها وعميت مسالكها، ولا يقدر أحد أن يطلع على شيء من وسائلها، وبعد هذا، تطلبون إليّ أن أترقب وأكشف لكم حقيقة الأمر، فلا أنا ولا غيري يقدر أن يعثر على الذي وضع لكم هذه الورقة، فما لكم إلا أن تسمعوا نذيرهم وتهتدوا به، فهذا آمن لكم ولي»، ثم خرج مايلا من عندهم. فضرب ارمان على الطاولة ضربة قوية، وهو يتنقر غضبة: «أيظن

هـؤلاء الأشـقياء أنهـم سـيعرقلون مسـاعينا؟ كأنهـم قـد تأتـوا أخبارنـا، واسـتطلعوا نياتنـا، فسـاءهم أن نكـون أشـجع مـن غيرنـا لنقتحـم حصونهـم فيحاولـون أن يرهبونـا ويرعبونـا، ولكـن خسـئت ظنونهـم، وطـاش فألهـم، فـما نحـن براجعـين عـما عزمنـا عليـه».

فألحقـت ادمـا عـلى كلام أخيهـا: «فـلا يبعـد ولا يسـتغرب أن يكـون السـيد فـالار أطلـع أحـدا عـلى الوثيقـة، ولا يروقـه أن نسـتأثر بالمـال دونـه، فـإذا أكـثروا لنـا مـن الانـذارات ونحـن في باريـس، برميهـم في سـبيلنا هـذه الورقـات المشـؤومة، وهـا هـم الآن في أثرنـا حتـى في هـذه الأقطـار، لـكي يثبطـوا عزائنـا، فهـم بالحقيقـة ماهـرون، لا يشـق لهـم غبـار، ولكنهـم مهـما عملـوا لإرجاعنـا، فـلا يزيدوننـا إلا جـرأة واقدامـا، لأن النـصر يلـوح لنـا بأشـعة خلابـة، وانهـم لا يـودون لنـا النجـاح، فلـذا تراهـم يكـثرون التهويـلات، غـير أننـا لـن ننـدم ولـن نتقهقـر، ولـن تفشـل... فـإلى الأمـام، إذن، ولا تخشـوا العواقـب، فسـتعود وبـالا عليهـم، ونجحـا واغتباطـا لنـا، وإلى الامـام ولا نظهـر لهـم خوفـا ولا فزعـا، وإلا يظنوننـا غُلبنـا عـلى أمرنـا. سـيرى اخـوان العـدل أننـا أقـوى منهـم، وأنـا نهـزأ بإنذارهـم، ومـا هـم إلا اغبيـاء جاهلـون». وتشـجع آل اندريـا، وصممـوا عـلى المسـير. ولمـا كان المسـاء، عـادت ادمـا إلى غرفتهـا، وشـد مـا ذعـرت عندمـا رأت كلبهـا الصغـير موثقـا بسريرهـا ومديـة معكوفـة غـارزة في جسـمه، وقـد طويـت عـلى مقبـض المديـة ورقـة عليهـا هـذه الكلـمات بحـروف حمـراء: «اخـوان العـدل ليسـوا، كـما تسـميهم، أغبيـاء جاهلـين... المسـتقبل يعلمـك». فأطلقـت ادمـا صـوت، ارتجـت لـه جـدران الفنـدق، واسـتطير فؤادهـا ذعـرا، وامتقـع لونهـا، وراحـت تجـر رجـلا متخاذلـة نحـو كـرسي وارتمـت عليـه كفاقـدة حسـها،

فهرع إليها أخوها وأبوها مرتجفين، وطمأنا قلبها المهلوع. وقام اندريا من ساعته وذهب إلى قنصل فرنسا طالبا إليه أن يستخدم سلطته لكي يضع لتهويلات اخوان العدل حدة، فأجابه القنصل، هذا يفوق سلطتي، وليس في استطاعتي، فهذه الجمعية قوية، تستطيع كل شيء، ولا أحد يستطيع شيئا عليها.

- ولكن يا سيد مارتان، لا أظنك ترضى بأن يوقع هؤلاء الأجلاف بالفرنسيين، وأنت صامت.

- فرنسي أو غير فرنسي، ليس في وسعي شيء، فالسنة الماضية قد هدروا دم تاجر انكليزي، ولم تتصدّ انكلترا لأخذ ثار، لأنها عارفة أنها مغلوبة في أمرها، لا بل إنهم أرسلوا انذارا إلى القنصل، حتى يخلد إلى الهدوء والسكينة لئلا يصيبه ما أصاب مواطنه... إذ ليس من سلطة قادرة أن تصونه من ضرباتهم، فلم يرتدع القنصل عن الاستمرار في طلب الثأر والتعريض. فيوما ما اختفى ابنه، وله من العمر تسع سنين، وبعد التنقيب والتفتيش، لم يعثروا له على أثر، وعرف أنها ضربة من اخوان العدل، فأغضى على القذى وهو يتأكّل حسرة، ويقرع الصدر ندما على إلحاحه في طلب الثأر. وفي ثاني يوم وجد ورقة مربوطة بسرير ابنه وعليها هذه الكلمات: إذا كنت تحب أن ترى ابنك ثانية، فارفع على باب بيتك علما أبيض تدل به على أنك لن تعود إلى طلب ثأر أو تعريض». فامتثل الأب الناعس أمرهم. وعند الصباح وجد ابنه نائما في سريره براحة وهناء، فقص الولد أنه لا يدري كيف اختطفوه، إنما أفاق من نومه فرأى نفسه في مغارة، مع امرأة عجوز تعتني به، وتقدم

لـه مـن أنـواع المـأكل والمـشرب مـا طـاب لـه وراق، وهـي تداعبـه وتلاطفـه عندمـا يتذكـر أهلـه ويبـكي مشـتاق إليهـم، وتقـول لـه: «لا تخـف، فأنـت هنـا إلى زمـن قصـير، وعـن قريـب سـتعود إلى أهلـك».

فصعـق المنـدوب مـن كل مـا سـمع، ورانـت عليـه ذهلـة، وقـال: «أهكـذا علينـا أن نحتمـل جـور هـذه العصابـة، بـدون أن تبـدي دفاعـا؟ وإذ مـا قتلـوا البعـض منـا فليـس لنـا أن نترحـم عـلى الأمـوات وإن نشـفق عـلى نفوسـنا مـن أن يلحقنـا نصيبهـم؟ أهكـذا يكـون عجزنـا إزاء هـؤلاء الأشرار؟ فأيـن الحكومـة، وأيـن العـدل؟». - فأجابـه القنصـل: «أنـا أرى الاوفـق أن تعـدل عـن هـذه الرحلـة الخطـرة، إذا مـا كنـت ضنـين بحياتـك، وحريصـة عـلى حيـاة أولادك، لأنـه يلـوح لي مـن هـذه الدلائـل الجلمـة التـي نشروهـا عـلى طريقكـم منـذ مـا نويتـم عـلى هـذه الرحلـة أنهـا لا تروقهـم، ولـذا يكـثرون لكـم مـن التهديـد والوعيـد.

- أن نرجـع عـن رحلتنـا، بعـد مـا تشـجمنا في سـبيلها الصعـاب، فهـذا لمـن المحـال، وإن تعـود عـما توينـا وإن نصـدف عـن مبتغاتنـا، لأن أوغـادا تهددونـا، فهـذا لـن يقـال عـن اندريـا وأولاده!!!

-- وأنـا اقـول أن الفطنـة تقـضي بذلـك، فـلا عـار ولا شـنار عـلى مـن يتجنـب الأخطـار التـي تتهـدد حياتـه، وأنـا متأكـد مـن أنـك لـن تفلـت مـن أيديهـم، فإنهـم سـينالونك مهـما تحـذرت واحـترزت».

فـأصرّ اندريـا، وأوغـل في عمايتـه، متمطقـا متشـدقا، بأنهـم لـن ينالـوه، ثـم إن عليـه واجبـا يجـب قضـاؤه فهـو موفـد مـن قبـل الحكومـة، في بعثـة

رسـمية، فحبـه لبـلاده يقـضي عليـه أن يسـير إلى الامـام، وإن أودى بحياتـه، فيذهـب هكـذا ضحيـة حـب وطنـه، وطاعتـه لأوامـره..

- «مرحـى يـا اندريـا، ولتعـش، فانـك حقيقـة بطـل شـهم هـمام، كـثر اللـه مـن امثالـك...» غـير أن القنصـل لم تدخـل عليـه هـذه الخدعـة، لأنـه متيقـن أن هنالـك دافعـا آخـر مكتـوم، يقـوده إلى تجشـم كل هـذه الانجـاب، غـير حـب بـلاده، فإنـه يعـرف اندريـا وأفـكاره...

وكذلـك أصرّ ارمـان وادمـا عـلى السـفر، مسترسـلين في جهالـة عميـاء، كأن اللـه قـد طبـع عـلى قلبيهـما، وانهـما يعـدان التقهقـر نذالـة لا نذالـة دونهـا، وجبانـة ينـدى لهـا الجبـين، ثـم أن هنالـك مناجـم الذهـب!! ومـن ورائهـا الـثروة والغنـى، والراحـة والسـلام والدعـة والحيـاة اللذيـذة الرافهـة، فكيـف النكـوص عنهـا؟ فقطعـا عـلى السـفر عزمهـا، وأضربـا لـه جاشـا، ولـن يرهبـا المخـاوف والمشـاق، مـا دام الذهـب في المنتهـي، فنـزل لويـس اندريـا عـلى قـرار ولديـه، واستسـلم لهـا كعادتـه، يتحكـمان بـه كيـف يشـاءان، وكـما يشـاء هواهـا...

الفصل الثَّاني

مدينة في الجبال

نشطت قافلة اندريا في سيرها، وسارت بخطى واسعة حثيثة، وتوغلت بين تلك الجبال، حتى ناهزت الوصول إلى المناطق الخطرة، حيث تسود عصابة اخوان العدل المرهوبة، وكان يسير في الطليعة خمسة من الشبان البواسل مدججين بالسلاح، فيمشون في تلك الشعاب، مُتَبَهنسين كأنهم أسود الشرى، لا يرهبون مفاجأة ولا يخافون عدة، ويتبعهم عن قرب اندريا والأولاد، وهم يتسلقون الجبال بكل تحفظ واحتراز، هائبين من زلقة تؤديهم إلى حيث لا يردون في تلك الوهاد الفاغرة العميقة. ولم يعثروا في طول هذه المسافة على أثر يذكرهم بلك الجبال ورجاله، ولم يسمعوا عنهم لا نأمة ولا بغمة، فتسرب الاطمئنان إلى قلب اندريا وولديه، وأخذوا يتهكمون ويهزل بعضهم على بعض، زاعمين أنهم كانوا أضحوكة تسلى بها ذوو الأغراض، وأصحاب المجون، وهولوا لهم كما يهولون للأطفال، لكي يردعوهم عن أشياء لا يرغبون فيها لهم، ولكي يصدوهم عن امتلاك ثروة طائلة، يسوءهم أن يختصوا بها دونهم، فتفاءلوا خيرا، وأخلدوا إلى السكينة والسلام. إلا أن راحتهم لم تدم، وأخذت المخاوف تتطرق إلى قلوبهم عندما تقدموا في تلك الهضاب، ورأوا المساكن تقل وتندر شيئا فشيئا، وأمامهم الجبال ترسو شامخة كأداء، قد نثرت فيها من هنا وهناك بعض أجمات ملتفة الأشجار، تتطاير على أفنانها بعض الطيور البرية، تنعق فيها بنعيق راعب مشؤوم بوم ضخمة سوداء، ولمحوا تحتها حيوانات كبيرة الجثة جاثمة، وما عتمت

أن تحفـزت للهـرب لمـا رأتهـم قادمـين، ومـن حـين إلى حـين كنـت تسـمع صـوت أحـد الأدلاء يـتردد صـداه بـين تلـك الجبـال، مقطعـا تقطيعـا، تجاوبـه الشـعاب: «تاللـه مـا كنـت تبعثـك في هـذه المجاهـل السـوداء، لـو لم أكـن متأكـدة مـن أن ملـك الانـد يرحـم المسـاكين مثـلي، الذيـن يقدمـون عـلى مثـل هـذه الرحـلات، طلبـة القـوت والمعيشـة» وكانـوا كلـما لاقاهـم إنسـان تائـه في تلـك الفيـافي، يعجـب جرأتهـم وينذرهـم أن يحـذروا مـن ملـك الانـد، ويـردد عـلى مسـامعهم هـذه اللازمـة: «يسـتحيل عليكـم أن تمـروا... فـإن سـلطان الجبـل واقـف لكـم بالمرصـاد، ولـن يقبـل بـأن تـداس أرضـه بأرجـل غريبـة، فإنـه سـيقع بكـم وأنتـم عنـه غافلـون». فتجهمـت الدنيـا في وجـه أنيسـة، وأثـرت نفسـها غـم وحـسرة، وهـي تـردد عـلى مسـامع عمهـا هـذا السـؤال الملهـوف: «لمـاذا أتيـت بنـا إلى ههنـا؟ هـل كنـا عليـك عائلـة حتـى عزمـت عـلى التخلـص منـا، فجئـت بنـا لـكي تهلكنـا؟» فيحـاول أن يطـمأن بالهـا المزعـوج، ويقـرّ لهـا أنـه لم يكـن يتوقـع مثـل هـذه العقبـات ومـا كان ليصـدق أن أمـرا يلاقـي مثـل هـذه الصعوبـات لـو لم يذقهـا الآن بنفسـه. ونـدم عـلى الإتيـان بهـا وبأخيهـا في هـذه الجبـال، لأنـه كان يجـب عليـه أن يتركهـما في ليـما. فإنـه لم يكـن يصـدق مـن وصفـوا لـه كل المشـاق، ظنـا منـه أنهـم يغالـون، لـكي يودعـوه عـن عزمـه، فضـلا عـن أنـه ليـس بايـس ولا قانـط، فرجـاؤه متـين مـن أنـه سـينجو مـن هـذه العصابـة، ولا يخالهـا تقـدر عـلى جماعتـه القويـة المسـلحة. فأجابتـه أنيسـة: «ولكـن، يـا عمـي قـد خامـرك الفـزع والخـوف قبـل زوجـك مـن الديـار الفرنسـية، إذ آليـت عـلى نفسـك إلا أن تصطحـب معـك حاميـة مـن الهجـمات المخفيـة. وأشـارت إلى بيـترو ورفاقـه.

- هـؤلاء مهاجـرون، قـد ارتـادوا هـذه البـلاد لـكي يشـتغلوا معنـا في المنجـم الـذي نقصـده، غايـة انتجـاع المـال والغنـى، وأنـا لم أسـامهم السـلاح ولم أصحبهـم معـي إلا بعـد أن أطلعتهـم عـلى مـا لربمـا ينتظرهـم مـن هـذه المصاعـب والمشـاق»

فلـم تفـه أنيسـة بكلمـة، إلا أن خوفهـا لم يـزل، ومـا زالـت الظنـون تتنازعهـا فتريهـا، فإنهـا مـع صغـر سـنها قـد امتـازت بالتبـصر بالعواقـب، باذلـة كل جهدهـا للاطـلاع عـلى الأسـباب التـي تحمـل عـلى العمـل، أو تـرد عنـه، فتنظـر إلى الأمـور لتطللهـا وتسـتخرج منهـا النتائـج، فـلا تخفـى عليهـا خافيـة، ولم يخـف عليهـا ارتبـاك الرفـاق ومـا يختلـج في صدورهـم مـن الفـزع والخـوف، فيحاولـون أن يطـردوه منهـم بالعبـث واللهـو، وقـرع الكـؤوس، تاركـين الأمـر والسـيادة إلى الإدلاء ومتندريـن عـلى ارمـان وأبيـة بالفَهاهـات والسـخافات، التـي تسـكبها عـلى ألسـنتهم عقولهـم الملتهبـة. إلا أن أنيسـة قـد تراكمـت الهمـوم عـلى قلبهـا، وبَرَمـت بالحيـاة وسـئمت العيشـة بصحبـة ابـن عمهـا الـذي مـا زال يزعجهـا بملازمتـه الثقيلـة، وقـد أصبحـت هدفـا لجفـاء ادمـا وتعبيراتهـا، لأن أنيسـة جلبـت إليهـا القلـوب، ولم يكـترث أحـد مـن الرفـاق بادمـا وجمالهـا، فنخـر الحسـد قلبهـا النغـل الفاسـد وأخـذت عـلى نفسـها ألا تـترك لابنـة عمهـا إلا سـلاما ولا راحـة. فكانـت تعنفهـا بالـكلام، وتناديهـا بالقبـح الاسـماء. وتبـدي لهـا في حركاتهـا وسـكناتها كل مـا مـن شـأنه أن يجـرح تلـك الطبيعـة الرقيقـة الحساسـة. أمـا موريـس فلـم يكـن يأبـه لذلـك، وأمـا همـه أن يلهـو مـع الرفـاق ويتمـلى مـن هـذه المناظـر الغريبـة التـي تبسـطها أمامـه الآفـاق، ويهنـأ بهـذه الحيـاة الملآى لـذة وطـلاوة مـع مـا يتخللهـا مـن المجازفـة والمغامـرة..

فكان يسير مع العالم شارل يطارحه السؤلات ويستفحص منه مدققا عما يراه في طريقه من المشاهد والمناظر، وقل ما يخالط الرفقة الذين لم ترقه ومعاشرتهم ومخالطتهم، ولولا هذه الرفقة المنكودة، وأخطار الطريق، لنعمت أنيسة أيضا بهذه المشاهد الطبيعية الساحرة، التي كانت تتجلى بعظمة وبهاء فوق تلك الثلوج الأبدية التي تشي قلل الجبال وتكسوها رداء بديعا تزيده أشعة الشمس المنعكسة عليه زخرفة وجمالا. وما كانت اكترثت بالأمطار المدرارة التي كانت تهطل بغزارة ما بين هزيم الرعد القاصف، ولألاء البرق الخاطف، وهدر الهواء العاصف، فيلجئهم إلى أن يأووا إلى أحد الكهوف الفاغرة العديدة في تلك السفوح، وينتظروا إلى أن تهدأ الزوبعة ويخمد الاعصار، ثم يتابعون سيرهم على صهوات البغال، التي كانت تتسلق. بهم تلك الجبال، بتؤدة، ورفق، حذرة من المزالق والمهاوي التي كانت تعترضهم عميقة هائلة، تكاد تجذبهم إذا ما أدمنوا النظر فيها. وأنيسة لم تكن لتفارق موريس أثناء هذا الارتقاء الصعب المضني، مراقبة كل حركاته، ومنبهة إياه إلى مكامن الخطر، ومحذرة إياه من المزالق العديدة، في هذه العقبات الكؤود الوعرة، لكن هذه المراقبة الحريصة لم ترض ادما ولم ترق في عينيها، فانحت بالكلام الجافي القاذع على تلك الفتاة الجبانة التي تحصر حرية الفتى النشيط، وتمنعه القفز على الصخور، والعدو أينما شاء هواه.

وفي أثناء سيرهم في تلك المجاهل الموحشة، كانوا يلاقون الحين بعد الآخر أفرادا من سكان تلك الجبال، يمرون بهم مذهولين مذعورين، أمام هذه القافلة الغريبة التي لم يألفوا لها امثالا في سابق الازمان،

فكانـوا ينظـرون إليهـم نظـرة الريبـة والوجـل، فيحثـون الخطـى آغـا يؤازرونهـم، فيطـرح الرجـل عليهـم سـلاما مختـزلا راجفـا، والنسـاء يمـررن حانيـات الـرأس والظهـر تحـت عـبء الأسرة التـي تتأرجـح عـلى كاهلهـن، وفي أيديهـن المغـازل يفتلـن بهـا القطـن، ليسـلون ضجـر الطريـق الطويلـة، وكانـوا يلمحـون أحيانـا بعـض أطـلال شـاخصة، أو بعـض المعاقـل والحصـون قـد أتى عليهـا الدهـر، وعبثـت بهـا الأقـدار، فتركتهـا رسـوما واقفـة لتشـهد الملأ، عـن أمـم زالـت، وحضـارة درسـت. فتنظـر أنيسـة إلى هـذه الآثـار بعـين متشـوقة إلى اسـتطلاع أخبارهـا، والوقـوف عـلى تاريخهـا، إلا أنهـا لا تجـد فيمـن يحيطـون بهـا مـن يسـقي بمرامهـا، ويشـفي غلتهـا، فشـارل متضلـع مـن علـم الأرض والحجـارة، ويظـن أنـه لا وجـود لعلـوم غيرهـا، وأمـا اندريـا ونجـلاه فلـم يتعاطـوا الـدرس البتـة، ولا يعرفـون مـن التاريـخ إلا الفـترة التـي تـلي عـام ١٧٨٩، أي مـن ابتـداء الثـورة الـضروس، التـي أباحـت الـشرور، ونـشرت مـا يدعونـه الحريـة الفاسـدة، والاباحيـة الزائفـة، «ودبـت، كـما قـال اندريـا في إحـدى خطبـه في مجلـس الشـورى، الحيـاة في العقـول، بعدمـا كانـت جـمادا، تهُـزّ مـن الجهالـة في مهـود، وفكـت عـن العقـول الأصفـاد التـي كانـت ترسـف بهـا مـن جـراء ظلـم الاكليـرس وطغيانـه....». فـما عسـاها أن ترجـو مـن وغـد كهـذا، لا علـم لـه إلا مـا يكفـي شرة نهمتـه إلى المـال، وإن بـاع في سـبيل ذاك ضمـيره وعقائـده!

ويومـا، بينـما كانـت القافلـة، تجـد في تلـك الشـعاب، تحـت سـماء صافيـة لازورديـة، وفي حـرارة محتدمـة حارقـة، والخيـل تحـضر تـارة تقريبـا وتـارة خببـا، إذا بصـوت أحـد الأدلاء، يـصرخ بالقـوم: «فلنـسرع، يـا اخـوان، فلنـسرع، فعـن قريـب سـيهب اعصـار، وسـتأخذنا العاصفـة، فـإلى الهـرب».

فدهـش المنـدوب لهـذا الـكلام، واعترتـه الذهلـة، إلا أنـه لم يعبـأ بـه، ظنـا منـه أن الدليـل يهـدس، وأنـه شرب كاسـا غـيرت في نظـره مشـهد الكـون: «عاصفـة في مثـل هـذا الوقـت؟ فـما أظنـه إلا أن الحـر قـد ألهـب تلافيـف مخـه، فـراح في الهذيـان...»

فقاطعـه ارمـان: «ألا أنظـر إلى الأمـر بروية، يـا أبتـي، فـإن الدليـل معرفـة بالبـلاد وجوهـا، وهـو أدرى بتقلبـات طقسـها، وأنـا أرى مـن السـداد والتعقـل، أن نصـغ لنصحهـم، لئـلا نكـون فتشـنا عـن حتفنـا بظلفنـا، وهـذا مـما لا نـوده جميعـا. وكان المسـافرون قـد وصلـوا إلى هضبـة منبطحـة، حيـث انتـشرت بعـض الأعشـاب المحروقـة الكالحـة، وشـعروا فجـأة بريـح بـاردة أخـذت تنفـح، فاقشـعرت لهـا أجسـامهم، وتقلصـت لهبوبهـا بشرتهـم، مـع أن الشـمس مـا زالـت ترميهـم بأشـعتها المحرقـة، فوخـروا مطاياهـم وركلوهـا، وتوغلـوا في شـعب وراء الدليـل الـذي ابتـدأ يحـث الخطـى وهـو يتعـرج بهـم في أسـمات متشـعبة وعـرة، لا يخـشى تيهـا ولا ضـلالا.

وفيـا هـم كذلـك، إذ سـمعوا بغنـة، هزيـم رعـد قاصـف ارتجـت لـه الجبـال المحدقـة، حتـى لقـد خالوهـا غـارت بهـم، أو أطبقـت عليهـم، وثـارت للحـال عاصفـة، وهبـت الريـاح سـافية عاتيـة، ارتفعـت في السـماء كعمـود وراحـت تنهـب الأرض في عدوهـا، هوجـاء متلولبـة.

فـصرخ الدليـل: «اسرعـوا، اسرعـوا، فالإعصـار شـديد هائـل، وينذرنـا بأسـوأ الويـلات، إن اعترانـا الخـور، أو لم نلـق أحـد الكهـوف للنفـوذ بـه، فيحمينـا مـن هاطـل الطوفـان، ولفـح الريـاح الجارفـة» وبـدا لهـم عـن بعـد غـير سـحيق جـدار عـالٍ، فتوجـه الدليـل نحـوه، وهـو مـا فتـئ يهيـب بالرفـاق

أن يغـذوا السـيد ولا ينُـوا والا ذهبـوا فريسـة الاعصـار.

فتنهـد ارمـان زافـرا متذمـرا: «ولكـن كيـف الوصـول إلى هـذا البيـت؟ في هـذا المرتقـى الصعـب الكـؤود؟» أمـا الدليـل فلـم يكـترث بـه، ولم يعبـأ بكلامـه، بـل تابـع سـيره منسـابا في طريـق تحـف بهـا الصخـور العاليـة، وتعترضهـا الحـين بعـد الآخـر، قطـع مـن الحجـارة الضخمـة، والبغـال وراءه ترتقـي بـكل عنـاء ومشـقة، وأفـراد القافلـة لاحقـون بـه صامتـين واجمـين كأنهـم مسـوقون إلى المـوت، والرعـود في معـرض السـماء مـا لبثـت تجلجـل داويـة صاخبـة، والـبرق يلمـع مارقـا خـلال السـحب الدجنـاء، والغيـوم المتلبـدة، نذيـرا يهددهـم بـشر الويـلات والمصائـب، إلا أن حـب الحيـاة قـد دب الشـجاعة في قلـوب المسـافرين، فزادهـم اقدامـا وجـرأة، فأخـذوا يتشـاجعون ويحـث بعضهـم بعضـا، عـلى المسـير، وبعـد هنيهـة مـن هـذا السـير الحثيـث، هبطـت هممهـم، وارتخـت أقدامهـم، وسـمعوا للفـور صوتـا مذعـورا متقطعـا رددت دويـه أصـداء الجبـال، فالتفتـوا فـإذا ببغـل موريـس في الـوادي، والصخـور تلطمـه يمنـة ويـسرة، وأوشـك موريـس أن يلحـق بـه لـو لم يبـادره بولـس السـائر وراءه ويمسـك بجلبابـه وينتشـله لأن رجلـه قـد زلّـت وزلقـت عـلى السـفيح، فارتمـى يحـاول أن يتشـبث بالأعشـاب والصخـور، لينجـو مـن التهلكـة، ولم تشـاهده أنيسـة إلا في آخـر هـذه المحاولـة الهائلـة، عندمـا مسـكه بولـس وخلّصـه، فلمحهـا موريـس وكان قـد اعتلاهـا اصفـرار المـوت، فهتـف بهـا: «يـا أنيسـة، أنـا سـليم، ولم يصبنـي ضر... ولكـن أيـن بغـلي؟»

«فلنسرع، صرخ الدليل، فلنسرع، فإن الصاعقة تكاد تبلغ أوج شدتها. وقد. نشأت القطرات تزخ كبيرة هاتنة، ولم يمر إلا قليل حتى أدهمت الدنيا فلم يعد المرء يميز أين يرفع قدمه ويضعها، وكأن كوى الجَلَد تفجرت، فسكبت على الأرض المياه من أفواه القرب، فدفقت المسايل وطمت، فهدرت المياه ساكبة في الأودية، جارفة كل ما اعترضها، في جريها، ومقتلعة الصخور، فيتألف من دفقان المياه وقعقعة الحجارة المتدحرجة، ضجة تصم الآذان وتنهلع لها الفرائص، إلا أن الدار قد اقتربت والخلاص قد لاح، ولو طالت بهم الطريق بضع دقائق لذهبوا كلهم ضحية المياه الطاغية، فتراكضوا نحو البيت ولاذوا بقاعاته، والجين أينما انفتح أمامهم باب، بدون افتكار ولا انتباه، ساحبين وراء هم الدواب، بينما الاعصار يزداد شدة واحتداما، فاستلقوا على الأرض مستجمين، والدليل يردد لهم: «علينا بإسداء الشكر لله الذي نجانا من اشنع الميتات وأرداها». أما موريس ففتش عن أخته ولما رآها عدا إليها وضمها إلى صدره معانقا وأوسعها تقبيلا، وهو يقول: «آه يا أخية نشكر لله سلامتنا وخلاصنا، وأنا لولا العناية الربانية، التي أرصدت لي هذا الشهم بولس، لكنت أوديت، وفارقتك إلى الأبد». وللحال ترك أخته وقفز نحو بولس ويداه ممدودتان ووجهه طافح شكرا وامتنانا، ولسانه يتلعثم بترداد عبارات الود وعرفان الجميل..

«لقد فعلت، ما وصلت إليه يدي، إجابة بولس، ولا حاجة إلى كل هذه الدلائل، يا موريس».

وأقبلت أيضا أنيسة، بصوت يخنقه التأثر والعبرات: «أشكر لطفك، يا

بولـس فليـس في وسـعي أن أكافئـك عـلى مـا غمرتنـي بـه مـن جميلـك».

فقـال بولـس: «لا يسـتحق الأمـر كل هـذا، أيتهـا الآنسـة اللطيفـة». ومـرت عـلى وجـه بولـس علامـات الانفعـال والتأثـر، وتلـكأ مـرددا: «لا شيء يذكـر، فلـم أفعـل أمـر يسـتحق هـذا الشـكر وهـذا الثنـاء».

وكانـت ادمـا إذ ذاك منزويـة في قرنـة مـن المغـارة تنظـر إلى أنيسـة وبولـس، بعـين غاضبـة حاقـدة، وقلبهـا يتـأكل حنقـا، فـأرادت أن تـروح عـن فكرهـا، فأومـأت إلى أخيهـا، وسـألته، بصـوت خافـت منقطـع «هـذه المغـاور، يـا ارمـان، هـل لهـا سلسـة وغايـة؟»

- تاللـه، لا أدري، وأنـا لسـت بالشـاب المتعلـم المتقـين، فاسـألي موريـس أو أنيسـة فهـما أدرى منـي بهـذه الأمـور العالميـة، فضـلا عـن أنهـا وحدهـما يلـمان بالإسـبانية، ويتكلمانهـا، ففيهـما أن يسـألا الدليـل، فيطلعنـا عـلى أسرار هـذه الكهـوف». فتقدمـت أنيسـة مـن الدليـل، وطرحـت عليـه سـؤال ادمـا، فأجابهـا الدليـل: «إن القدمـاء قـد اسـتعملوا هـذه المغـاور مدافـن يقـبرون فيهـا موتاهـم، وانكـم لتجـدون في البعـض منهـا رِمَـما واشـلاء».

- فارتعشـت ادمـا: «للـه هـذا المحـل، فهـو يجلـب إلى النفـس القشـعريرة والأسى... عـلى كل، ليـس لنـا الآن غـيره مـن ملجـأ، فالقبـور نـذرى بهـا، خـير مـن أن نكـون تحـت هاطـل المطـر، وفي زمهريـر الريـاح...»

وبـدأت القافلـة تحتـاط بالتدابـير اللازمـة لـكي تقـضي الليـل في هـذه الكهـوف، وتقاسـم كل أفـراد البعثـة اقـران وزوايـا المغـاور، ومهـدوا لهـم فيهـا مضجعـا، وبعـد وجبـة جـددوا فيهـا مـا خـار مـن قواهـم ونشـاطهم، استسـلموا إلى النـوم والراحـة، وكانـوا أفـردوا إلى أنيسـة وادمـا زاويـة منفردة

بمعزل عن الرجال، فتمددت أنيسة بالقرب من ابنة عمها، منهوكة القوى، بعد كل ما عانته من أمر الاوصاب، وقاسته من الانفعالات العميقة المثيرة، من جراء حادث أخيها... فظنت، عندما ألقت رأسها على الحضيض، أن الكرى سينقض على جفنيها انقضاض النسر على فريسته، فعقدت الجفون، ولكن النوم لم يأت، همدت الأصوات حولها، وسكنت الحركات، وما كان يسمع في ذلك المحيط النائم، إلا زفيف الهواء يمر من أمام باب الكهف، هادرا ثم يروح يتلاشى قليلا قليلا، في تلكم الابعاد... حاولت أنيسة أن تنام، ولكن النوم لم يأتها، فثارت في نفسها الهواجس، طاردة عن أجفانها الاغفاء، وباتت تلك الليلة، رهينة البلابل ونجية الوسائس، وهي تتمثل تارة شبح موريس زالقا على سفح الجبل أو متدهوار في أعماق الوادي مهشما متقطعا، فتعتريها الرعشة، وتنهض من محلها كالمسبوهة، ثم تعود إلى الفراش، وتعود الخواطر المزعجة تترى في خاطرها المتوتر، فتتصور رفاق البعثة يحملون إليها موريس مقتولا مشوها داميا، فتتساقط نفسها عليه حسرة، فتضيق بمرقدها، فإذا بها قائمة وقاصدة إلى حيث موريس نائم، فتفقده وتتحقق أنه سالم معافى وترجع من حيث أنت، دون أن يشعر بها أحد، فإن النعاس إلى أن يهجرها، فنهضت بهدوء، ماشية نحو باب المغارة بكل خفة ورشاقة لئلا توقظ ادما، وكانت العاصفة قد خمدت، وانجلت عن السماء الغيوم، فبدت النجوم ساطعة متألقة، ولما صارت في الباب شعرت بلفحة هواء باردة قرحت جسمها، فتدثرت بمعطفها الصوفي الثقيل لكي تقي نفسها، ووقفت في ذلك السكون العميق، شاخصة إلى القبة الزرقاء، علها ترى لها شبيها، أو تنال منها سلوى

ولكـن النـيرات صامتـة، تترجـرج في اللانهايـة غـير عابئـة بهـا، ولا مكترثـة لبلواهـا، وأطالـت الوقـوف حالـة متحـسرة، بمـا يكتمـه عنهـا الغيـب، ومـا يخفيـه لهـا المسـتقبل، وعاودتهـا ذكريـات المـاضي، فسـطا عـلى قلبهـا حـزن عميـق لمـا مـرت أمـام عينيهـا سلسـلة العذابـات التـي تجرعتهـا وأخاهـا مـن يـوم ربطـت حياتهـا بحيـاة آل اندريـا... وفازعـة مـن عـدم انتهـاء هـذه الآلام، فـما شـعرت بمفاصلهـا أن ارتخـت وجثـت عـلى الأرض البـاردة، رافعـة بصرهـا إلى السـماء، وقلبهـا يـصرخ بلهفـة الكسـير البائـس:. «يـا إلـه المسـاكين، وأبـا اليتيـم، يـا مـن لا يـرد ضعيفـا بـه اسـتجار، ارحـم أخـي، وصـن حياتـه مـن الـشرور والمهالـك... فقلبـي عليـك متـكل، فـلا تهملنـا في هـذه الضيقـات».

قطـع عليهـا صلاتهـا شـبح خـرج فجـأة مـن أحـد المغـاور، وتقـدم متمايـلا، فأمسـكت أنفاسـها وربـدت في محلهـا لئـلا يبـصر بهـا، وهـي تحـدق بـه النظـر لتتميـزه وإذا بـه بيـترو، فـإن مشـيته تـدل عليـه، فهـو يمـشي باعوجـاج، كان ادمـان السـكر قـد طبـع في جسـمه العـوج، فـلا يسـير إلا متمايـلا، فأيـن يقصـد هـذا الليـل ومـاذا يريـد، فظنتـه في خـمار السـكر، ففضلـت أن تختفـي وتعـود إلى مرقدهـا، ولا تبقـى ههنـا رقيبـة مناظـرة فيلحقهـا مـا لا تريـد، فعـادت عـلى أعقابهـا متئـدة وتمـددت في جانـب ادمـا التـي كانـت تغـط في نومهـا، وحاولـت أن تغفـى، ولكـن عبثـا، جفاهـا النـوم، وباتـت ليلتهـا مسـهدة، مزاحفـة خيالاتهـا، وخيالاتهـا يزاحفنهـا، حتـي عفـا الليـل، وبـرز الصبـاح...

الفصل الثَّالث

الوثيقة

أفـاق القـوم مـن رقادهـم، والشـمس تتـلألأ سـاطعة مـن الأفـق البعيـد، غامـرة الجبـال المحيطـة بأنوارهـا البهيـة، ونهضـت أنيسـة مـن مرقدهـا واتجهـت نحـو البـاب ذاهلـة معجبـة مـا امتـد أمـام عينيهـا مـن المناظـر الخلابـة، مناظـر الجبـال المعممـة بالثلـوج الناصعـة وقـد انعكسـت عليهـا الأشـعة الحمـراء ووشـحتها بألـوان سـحرية... «انظـري انظـري يـا ادمـا، مـا أجمـل الخلـق، ومـا أبـدع؟...»

وادمـا مـا زالـت منـذ نهضتهـا لاهيـة بترجيـل شـعرها وعقـص ضفائرهـا، وتزجيـج حاجبيهـا، لـكي تصطنـع لهـا الجـمال الـذي سـبغته الطبيعـة عـلى ابنـة عمهـا... فـما يهمهـا جـمال الطبيعـة ومناظرهـا، مـا دامـت هـي لا تجلـب الأنظـار؟... فلـما طرقـت مسـمعيها كلـمات أنيسـة، هـزت كتفيهـا، هازئـة سـاخرة: «بالحقيقـة إنـك خفيفـة، يـا ابنـة عمـي... أنمتـع أبصارنـا بمشـاهد فانيـة شـوهاء، ونفـرح بهـا، والاخطـار تحيـق بنـا، ولا تـزال بعيديـن عـن غايتنـا ومحـط رحالنـا؟.. هـل لـك يـا أنيسـة أن تبشريني بقـرب الهـدف، ودنـو الغايـة؟ - فأجابهـا الدليـل، عوضـا عـن أنيسـة، وقـد بقـى لنـا يومـان أيتهـا الانسـة».

وبعـد أن تناولـوا طعـام الصبـاح، اهتـم الخـدم والأدلاء بتوكيـف الـدواب وتحميلهـا، بينـما كان بيـترو ورفاقـه واقفـين أمـام ركـوة قهـوة تغـلي، قـد سـطعت رائحتهـا، فنـادى اندريـا موريـس، وطلـب منـه أن يسـأل صاحـب المنـزل الـذي أووا في مغـاوره هـل لـه الملام ومعرفـة بهـؤلاء

الشذاذ واللصوص الذين وقع رعبهم في القلوب، وحذرونا من بطشهم وفتكهم... ولأول كلمات موريس، انطلق الرجل بضحكة عالية مقهقهه «أأنتم ترهبونهم، ومعكم هذه العدد وهذا السلاح؟ وهب أنهم تجرأوا عليكم، فلا قبل لهم معكم.... فضلا عن إني لا أرى واحدة منهم وأنا منعزل هذا الانعزال الذي ترون، وأغلب ظني أنها قصص اختلقها ذوو الغايات لكي يصمدوا الناس عن التمتع بهذه المناظر البهية، أو استغلال أراضيها الخصبة الغنية...» فقاطعه اندريا متنفسا، وقد أصبح آمنا مطمئنا: «وهذا ما كنت أظن، بيد أن لي سؤالا آخر أريد أن أطرحه على الرجل: «هل في وسعنا أن نغير طريقنا وإن نعرج على ثغرة المونتانو، قبل أن نتوجه توا إلى تلتال؟»

فأجابه ذاك: «الأمر هين وسهل، وأنا أعرف الطريق فقد سرته مرة، وهذه الثغرة هي، من أوحش جهات ليار الكورد». فشكره اندريا، وعاد مع موريس وأنيسة إلى المغاور حيث كان الرفاق في انتظارهم، وقبل أن يلجوا المغارة، مسك المندوب بذراع أنيسة وهمس في أذنها: «إن لي أمرا مهما أفضي به إليك وإلى موريس يا بنيتي، فأتني بأخيك وتعالي». فاعترى أنيسة الانذهال إلا أنها أذعنت ولبت طلب عمها، بدون تردد ولا ابطاء، فدخلت وراء اندريا، في كهف حيث كان ارمان وادما جالسين في الانتظار، وهما يتحاوران ويشوشان، كأنهما يتبادلان أسرار يخشى أن يختلسها أحد، فلما دخلت أنيسة، قام ارمان أمامها باسطا إليها يده، بحفاوة وطلاقة، وهو يبذر كلام الترحيب والتشبيب: «آه!، إني لأشعر في قلبي حرارة لم أكن أعهدها، فمنذ دخلت أشعر في نفسي حياة وانتعاشا!» فأعرضت عنه أنيسة باشمئزاز ونفور، إلا

أنها مدت يدها، ولامست بخفة وسرعة أطراف أنامل اليد الممدودة إليها، وحولت عنه بصرها... فذهبت ادما بضحكة صاخبة، ارتجت لها جدران المغارة «إن أنيسة تستثقل ظلك، يا ارمان، وتسأم من تزلفك وتحبك، فكفاك ما أبدت الآن» فشزرها ارمان غاضبا متنمرا؛ أما هي لم تنقطع عن متابعة حديثها: «والابنة تقية رصينة، فلا تستخفها كلمات الملق، بل تلذ بالأعمال النزيهة، وتحب الكلام الرصين». ثم التفتت نحو أنيسة: :إنك أتيت هنا، لتسمعي كلاما رصينا، يا أنيسة، وأنت ههنا لأطلعك على ما ينتظرك من الأعمال النزيهة التي تستريح إليها نفسك الزكية». وحارت على شفتي ادما ابتسامة ساخرة... وأنيسة واقفة لم تحر بنت شفة بينما تيار الكلام يتدفق من فيه ابنة عمها، وبعدما استتب المجلس باندريا، قال لأنيسة بلهجة الأمر الذي لا يقبل ردا ولا امتناعا: «اجلسي، هنا، يا أنيسة، وأنت يا موريس، دونك هذا المقعد واسترح، أو لك أن تختار لك مكانا حيث تريد، ثم أعيروني الآن سمعكم، يا أولادي». ووقف بهم وقفة الخطيب، الذي يحاول أن يكسب عطف سامعيه بما يكيل لهم من المديح جزافا، بتفهيق وتشدق، كما كان شأنه، في إلقاء الخطب السياسية من على منصة منبر الشورى، لما كان يتابع خطابه بينما السامعون غافلون، يهومون برؤوسهم ميمنة وشمالا، ولا يفيقون إلا عند قرع الرؤوس، لكي يروا إذا لم ينته الخطيب المصقع من الثرثرة المملة....

«عند ما تسلمت الوصاية بكم يا أولادي، عثرت بين أوراق جدكم، على صك ممهور بعلامات شتى، لم أفقة لها في البدء معنى، وما كنت لأكترث بها لو لم يوضح ما حواه الصك، في ذيل الحقة به، عالم لغوي

مدقـق، صديـق السـيد فـالار، كـما تُـدلي بذلـك الحـواشي المعلقـة عـلى هوامـش هـذه الورقـة الغريبـة، وهـذه الحـواشي مـن خـط الجـد الكريـم، ومـن هـذه الأوراق ومـما علـق عليهـا قـد توصلـت إلى النتيجـة التاليـة التـي أردت أن أطلعكـم عليهـا، قبـل وصولنـا إلى غايـة سـفرنا، فأنتـم تعلمـون أن جدتكـم كانـت اسـبانية - نعـم، قاطعـه موريـس، واسـمها دونـا ماتيـل، وكانـت حلـوة جميلـة، ولنـا منهـا صـورة مشـبهة، وهـي الحبيبـة أنيسـة». فتـوردت وجنتـا أنيسـة، وأطرقـت بعينيهـا مكمـودة مخزونـة لذكـر الأم العزيـزة، إلا أنهـا أصغـت إلى كلام اندريـا بلهفـة، لـكي تطلـع عـلى المنتهـى.

«فوالـد دونـا ماتيـل، السـيد أناطـول دي بـارا، كان رجـلا مقدامـا، مـاضي العزيمـة، قـد تجشـم السـفر الطويـل الشـاق إلى بـلاد الشـيلي منتجـع الـرزق والـثراء، إلا أن الحـظ خانـه ولم يشـف منـه لبانتـه، بيـد أنـه نـال مـن أحـد أمـراء تلـك البـلاد آنئـذ، ورقـة تفصـل لـه تعليـمات دقيقـة للوصـول إلى منجـم يزخـر بالذهـب، وهـو في ناحيـة مـن الكوردليـار لا تنـال إلا بالجهـد الكبـير والعنـاء الطويـل، ويسـتحيل عـلى مـن ليـس لـه إلمـام بالطريـق أن يتوصـل إليـه، وأنـا نعـرف أن دون أناطـول لم يـرد أن يتحمـل هـذه المشـقات في سـبيل هـذا المنجـم، وعـاد إلى اسـبانيا لأسـباب نجهلهـا ولا يمكننـا التخـرص بهـا وهنـاك لم يبطـئ المـوت أن اخترمـه تـاركا وراءه امرأتـه مـع ابنـة. لم تـزل في مهدهـا فاحتفظـت امرأتـه بهـذه الأوراق ضنـا منهـا بآثـار زوجهـا، إلا أنهـا لم تكـن تـدري مـا تحويـه مـن الوعـود بالغنـى. ويومـا مـا، وقـع نظـر دونـا ماتيـل عـلى هـذه الورقـة، وعرضتهـا عـلى قرينهـا ادمون دي سـاكس، جدكـم، وكان إذ ذاك ضابـط في الجيـش الفرنـسي ولكنـه لم يسـتطع فـك ألغازهـا، فأهملهـا ورمتهـا امرأتـه في (جـرار) فغطاهـا الغبـار،

وغشيها النسيان، إلى أن وجدها أبوكم بعد زواجه من ماري دي فالار، ولما لم يدرك هو أيضا معنى هذه الحروف المطلمسة، أتى بها إلى صهره فحملها هذا إلى صديق له، عالم متبحر فتوفق بعد جهود كبيرة وأبحاث كثيرة على حل الألغاز، وفهم محتوى هذه الورقة العجيبة فبشَّر أباكم بالخير والغنى. أما أبوكم فلم يأبه بهذه الوعود الخلابة، ولم يعمل بها، وقد خط لنا السيد فالار أسباب هذا الاحجام في ذيل الورقة وها أنا اقرأه على مسامعكم بحرفه لكي تطلعوا على كل شيء». وانتشل اندريا محفظته من جيبه، ولم تفارق عيناه أنيسة وموريس، لكي يرى الانفعال الذي أحدثه كلامه عليها، فرأى أنيسة ذاهلة حائرة، كأنها تصغي إلى قصة غريبة هي أشبه شيء بأساطير الأولين فيتأرجح خاطرها بين التصديق والتكذيب، ولا تدري أهي ألعوبة الأحلام أم هي ضحية الأطماع، وموريس كان فاتح فاه يصغي كما يعني الطفل إلى قصة لذيذة، ولا يجول له فيها أدنى خاطر، ولا يشغل فيها فكره، فهي رواية تروق له فيود لو تطول، حتى يطول تمتعه وتسليته. فسحب اندريا الورقة، وأخذ يقرأ بإفصاح: «إليكم يا أولادي الأعزاء، أوجه هذه الأسطر. عندما تعثرون على هذه الورقة ستتساءلون طبعا، لماذا لم يعبأ أبونا بهذا الذهب ولماذا لم يخبرنا عنه لما شعر بدنو أجله، فاسمعوني يا أولادي الأحباء، فإنني عندما أطلعوني على هذه الورقة، كنت مصابة بالداء العضال الذي أقعدني عن مثل هذه المجازفات، فضلا عن إني كنت من هؤلاء القوم الذين ألفوا العيشة الساذجة، فلم تطمح نفسي إلى الخروج عنها في أخريات سني حياتي، وإن العذابات المبرحة التي حطت في جسمي وأذاقتني الأمرين، لم تترك لي راحة الافتكار بهذه

الأمـور، فكنـت دائمـا متألمـا متوجعـا والمـوت أمامـي والقـبر نصـب عينـي، فلـم يبـق لي فكـر بالأمـوال ولم تعـد نفـسي ترتـاح للدنيـا ومـا فيهـا، وشرعـت في إعـداد نفـسي لملاقـاة ربهـا، ففنيـتُ لـكل مـا في الدنيـا، والدنيـا فنيـت لي.

فلـذا لم أعـد أكـترث بمـال الدنيـا وعزهـا وخفرجـة عيشـها، فأهملـت هـذا المنجـم، تعزيـة بـأن هـذه الـثروة الطائلـة سـترجع إلى أولادي، يتنعمـون بهـا مـا شـاء اللـه لهـم أن يعيشـوا، ومـا شـاء هواهـم، فلـذا أمـوت سـعيدا لعلمـي بـأن أولادي لـن يتعذبـوا في حياتهـم كـما تعذبـت أنـا، وسـيقضون العمـر في رغـد وهنـاء، إلا أننـي قـد انتابنـي فكـر أقلقنـي قليـلا، عـن مصـير هـذا الذهـب بـين أيديكـم، فـاني أخـاف أن يطغـي بقلوبكـم، ويفتـح لكـم أبـواب المآثـم والمعـاصي، وطلبـت إلى ربي أن يـرأف بكـم ويسـدد خطاكـم إلى مـا فيـه مجـده وخيركـم الأعظـم، وأمكـم كانـت دائمـا تجيبنـي بـأن أولادنـا مسـيحيون حقيقيـون، وسـيصرفون هـذا الذهـب في إنشـاء وإحيـاء النقابـات الخيريـة، لسـد عـوز الجائـع والمسـكين، ولإعانـة المنكوبـين والبائسـين، وأنـا كنـت أجيبهـا: ولمـا سـيصرفونه الـشرور كثـيرة، ومـا أدراك يـا مـاري، بالشـهوات التـي تثيرهـا في قلوبهـم رؤيـة الذهـب، فضـلا عـن أنـه يسـهل لهـم نيـل كل مـا ترنـو إليـه نفوسـهم، وتبغيـه قلوبهـم، وأنـا أرى أن الأفضـل لهـم، أن ندفـن هـذه الورقـة عنهـم، فـلا يـدرون بوجودهـا، إلا بعـد أن يكونـوا شـبوا وترعرعـوا، وتأصلـت في عقولهـم المبـادئ المسـيحية، التـي تسـاعدهم عـلى محاربـة اهوائهـم، وقمـع مطامعهـم وهكـذا تحملهـم قواهـم ألا يبـددوا هـذا المـال في شـبل الـشرور والإثـم. وقـد طوينـا هـذه الورقـة واودعناهـا صندوقـا، مرفقـة ببعـض ايضاحـات وتعليقـات، قـد سـطرت تحـت مراقبـة صهـري، أتطلعكـم عـلى أصـل هـذا الإرث، والآن يـا

أولادي، اتبعوا في شان هذا المال ما يوحيه إليكم ضميركم، فإذا رأيتم أن هذا الذهب سيعود بالنفع عليكم وعلى بني الإنسان البائسين بتخفيف المصائب، أو لإنهاض أعمال الخير، فاذهبوا وأتوا به، غير إني استحلفكم، بأن تهملوه إذا ما ثارت في قلوبكم نزوات الهوى الفاسد، وغركم الشيطان بأن تستعملوه فيما لا يريده الله، ولا يتيحه الخير، فاهربوا من المال، إذ ذاك، هربكم من الأفعى»

«جان دي فالار»

فجاشت العواطف في قلب أنيسة، واغرورقت عيناها بالدموع، وكذا موريس، مسح من عينيه دمعة حائرة: «مسكين، والدي... مسكين، لله ما أحنّ قلبه...» وكان آل اندريا ينظرون إلى الولدين بطرف ساج، وتأثر غير مصطنع... فقالت ادما: «أهكذا تستقبلون هذه البشرى؟ وهل خَطَر قطر على بالكم أن لكم مالا، يتجاوز مئات الملايين؟»

فأجاب موريس: «أهذا مقدار غنانا، ونحن لا ندري» وحملق عبني مذهولا: «فأنا سأشتري سيارة، وسأقوم بأسفار كثيرة، أجوب فيها الدنيا من أقاصيها إلى أقاصيها، وسأختص بجزء كبير الأب أُربان، فهو يصرخ دائما أن ليس لديه مصاري للقيام بمشاريعه الخيرية، ودائما يده ممدودة للتسول والاستجداء».

فتمتمت ادما: «مجنون يا موريس، ألا أبذر مصاريك في غير هذه الأرض!، فأنت شاب فتمتع...»

«أنا مجنون! صرخ موريس، ليس المجنون إلا من كلبت الأهواء قلبه، فساوي نفسه بالبهيمة، يا ست ادما...»

فزارتـه أنيسـة، وأمرتـه بالصمـت، ثـم التفتـت إلى اندريـا: «لا أفهـم لمـاذا أيهـا العـم، أطلـت عـلي بهـذه الأسرار ولم تمـض بهـا إلينـا مـن قبـل؟ ولم الانتظـار إلى اليـوم»

فتنحنـح اندريـا: «هـاك الـشرح يـا أنيسـة، إني أحببـت أن انتهـز مـن هـذه الفرصـة التـي مهدتهـا لي الحكومـة الفرنسـية بإرسـال هـذه البعثـة العلميـة، حتـى اسـتولي معـك عـلى هـذا المنجـم الذهبـي، الـذي خلفـه لكـما الوالـد، وبحسـب التعليـمات المسـطرة في الورقـة، فهـو موجـود بالقـرب مـن محلـة تلتـال حيـث نحـن ذاهبـون، فانـت تفهمـين لمـاذا لم اتكلـم عـن هـذه المسـألة منـذ البـده وكتمـت الأمـر عليكـما إلى الآن، فهـو خـوف مـن ثرثرتـك، فـإن الأولاد لا يحفظـون سرا، ولا يكتمـون أمـرا، وكنـت أخـاف أن ينفضـح أمرنـا ويكشـف، فيخيـب رجاؤنـا بعـد طـول هـذا الامـل، فارتأيـت أن أخبركـما الآن، لأننـا عـلى مقربـة مـن المحـل المنشـود.

- أفلأجـل هـذا إذن، أتيـت بنـا مـن بلادنـا؟» وصوّبـت إليـه نظـرا رزينـا مسـتوضحا..

- «نعـم، لأجـل هـذا، حتـى تلتـذا باسـتملاك مـا خلفـه لكـما جدكـما... أو لم يـسرك، يـا أنيسـة هـذا الخـبر؟

- كلا! ثـم كلا! فـمالي والمـال...» وقطـع عليهـا حديثهـا موريـس وادمـا معـا: «غريبـة أنـت يـا أنيسـة بأفـكارك وأطـوارك فـما أظـن تجـردك إلا متكلفـا مصطنعـا»

فأجابـت أنيسـة بهـدوء وسـكينة: «ليـس التصنـع مـن شـيمي، فـما يـبرز لسـاني إلا مـا يجـول في جنـاني، وأنـا لسـت براغبـة في أن أكـون أحسـن مـما

أنا عليه الآن، مها حاولت الطبيعة في اغرائي إلى الميل إلى الزهو، والجنوح إلى العجرفة، والنزوع إلى العيشة الراغدة الثرية، فاني قد تعلمت وأنا حديثة السن أن اظلف هذه النوازع، وأنا أخاف من عقائب هذه الثروة الضخمة، فسأفقد من جرائها راحتي وسأخسر سلامة قلبي. ما لي والمال، والقلب في قلق، والنفس في انزعاج؟ إلا أن فكرا يتجاذبني، ويميل بي بعض الميل نحو هذا الذهب، ألا وهو فكر الفقراء والمعوزين الذين سأضمد جراحهم الدامية، وأردّ سَغَبَهم الصارخ، وأقبلهم عثراتهم الفظيعة». وفاضت أنيسة في حديث طويل بينما اندريا وولداه في صمت وذهول يصغون إليها واجمين أمام هذه المبادئ الغريبة التي تبديها بتأثر وحماسة، ولما طال حديثها،

فرغ صبر ادما، فقطعت عليها الكلام، بشدة: «أنعِم بك مطروقة مخبولة، لا أظنها تشفى إلا بالحشر في مأوى المعتوهين، ترجع إلى العقل السديد، والفكر الرشيد، فمالك والفقراء، أهم أولاد أبيك، أو اخوة أمك؟ فتنعمي وتلذذي وأرشفي الملذات كأسا دهاقا، ما دام لك الذهب والمال، أما تدرين يا أنيسة أن الذهب مفتاح الهناء والسعادة، وما لنا في حياتنا إلا التلذذ والتنعم؟» وزادها ارمان مُلحّا: «بالذهب ستنالين كل ما تطمح إليه نفسك، وتتوق إليه رغائبك، ستصبحين ملكة يا أنيستي، ملكة على الذهب، وملكة على قلبي... أما يبسم لك هذا المستقبل الزاهي؟ فأنت فتية بعد، غضة الصبا، فلا تحرمي نفسك، وتذوي حلو الحياة...». وبينما كان ارمان يتدفق كلاما، كان فكر أنيسة شاردا، فلا تأبه لحديث ابن عمها، فتمثلت رسما رأته في كنيسة شاتنيل: ففي وسط بيداء مخيفة، وقف المعلم الالهي، ووجهه

يتلألأ نورا وضياء، ينظر إلى شاب أمامه، متشح بأثمن المطارف الفاخرة، ويشير إلى جنات خضرة، وحدائق غناء تبدو له في الأفق، والشاب يقول ليسوع: «إذا جثوت وسجدت لي، سأعطيك كل هذا... ويسوع يزجره بإباء وازدراء: «اذهب عني يا شيطان، لأنه مكتوب، للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد». وهي أيضا في هذه الساعة من حياتها تقف وقفة المعلم، وأمامها من يحاولون اغراءها بالسجود للمال دون الإله، فرفعت للحال رأسها وحدقت في آل عمها بأنفة، وقالت بلهجة لا تحمل ردا ولا مواربة: «أنتم تعلمون أن اعتقادي لا يتلاءم وما تعدوني به، فإن لي نظرة في الحياة غير التي ترونها، فالحياة ما هي إلا مرحلة في البادية، وقد أعطيت لنا الغاية أسمى مما تصفون، فالحياة أمد زائل، وللملذات نهاية، إلا أن نفسي لن تموت، فويل لي إذا خسرتها: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟» وإني لا أفهم حقا كيف، وأنتم الشيوعيون المشهورون، تلحون علي لكي أتمتع بكل ما طاب لي وراق، وتحرضوني لكي لا آبه للفقراء والمساكين، اخواني، مع اعلانكم وتعليمكم، بأن الأموال مشتركة مُشاعة... أهكذا تعلمون شيئا وتعاون شيئا؟» فامتعض المندوب وارمان من كلامها، واظهرا حنقهما لأن أنيسة ضربت على الوتر الحساس، أما ادما فقهقهت: «يا لك من مجنونة حمقاء، من أين لك هذه الفلسفة العوراء؟»

- فإذا بارمان يودع أخته: «لا أدري من المجنون، هي أم نحن، فأنا أرى أنها: تنطق بالصواب، ألا تقبليني تلميذة يا أنيسة، لكي أتلقن على يديك مبادئ الاشتراكية الحقة؟» فأجابته أنيسة بسكون: «أنا لا تعليم

لي إلا تعليم الانجيل، فهو الذي يأمرنا بازدراء الغنى وقمع الشهوات، وحب القريب، والسعي وراء الفضائل الطبيعية كالبساطة والوداعة والنزاهة في كل ما نقول ونعمل، فهذه التعاليم مفتاح السعادة، وسر الفلاح.». ثم التفتت إلى المندوب: «والآن علام اجمعتم وعلام انعقد الرأي؟.

- سنتوجه إلى المنجم، ثم عقب ذلك، إذا ما ساعدتنا الظروف سنقصد إلى منجم تلتال، لكي نحفظ لرحلتنا غايتها الرسمية، وتنال رضى الحكومة، وعن قريب سنصل إلى الهدف المقصود، ولا أظننا إلا فائزين لأن الطالع أسعدنا إلى الآن». وأصبحت لا أوقن أن هنالك من قطاع طرق أو لصوص». أما ارمان فلم يكن يشارك أباه في هذا التفاؤل: - «إلا اننا لم نصل بعد يا أبتي... وما ندري ما يخبئه لنا المستقبل». وتبعه موريس معارضا: «وإذا ما هاجمونا من حيث لا ندري، فما ترانا فاعلين، أيها العم؟ ألا تعطيني بندقيتك، يا ابن عمي؟ وساريك من أفعالي العجب، - أليس من بغينا أن ترينا مهارتك، يا موريس، فنحن في غير هذه الشؤون». فرَبتت أنيسة على كتف أخيها بهدوء ودعابة: «هيا بنا يا موريس ولنُضّد حقائبنا فنكون على أهبة للسفر، آن الرحيل».

فقامت أنيسة، وانصرفت مع أخيها تاركة اندريا وولديه يتجاذبون أطراف الحديث، وما غاب الإخوان عن العيان حتى أخذوا يتندرون عليها وعلى مبادئ أنيسة، إلا انهم كلهم أطروا عقلها الحصيف الذي يفوق عقل أولاد جيلها، وخافوا أن تقف عقبة في سبيل مطامعهم... فنهض ارمان غاضبا متنمرا: «سأوجبها عندما تصبح لي زوجة، وسأقلع

مـن مخهـا كل هـذه الأفـكار الغريبـة التـي غرزتهـا في رأسـها وجعلتهـا لهـا عقيـدة، أمـا موريـس فهـو ولـد غـرّ غبـي، لا خـوف منـه، ولـن يتـاح لـه مـن العمـر مـا يوصلـه إلى اقتسـام المـال معنـا، فسـأنصب لـه الحبائـل وأنزلـه الـردى، في القريـب العاجـل». ولمعـت في عينـي ارمـان شـعلة غضـب جهنميـة، ووقـف فـترة ثانـا فائـزا، وهـو يـبرق ويرعـد متوعـدا مهـددا: «سـأنال منـك يـا أنيسـة العاتيـة، كل مـا أريـد وأروي منـك غليـلي، وأنـت يـا موريـس سـتموتن أردأ، ميتـة...»

وفي تلـك الغضـون كانـت أنيسـة مرتبكـة بترتيـب حوائجهـا وتنضيدهـا في الحقائـب إلا أن يديهـا تنضـدان وترتبـان وعقلهـا مـا فتـئ سـابحا متأمـلا في الأمـور الخطـيرة التـي أطلعوهـا عليهـا منـذ حـين، وتعجبـت مـن نفسـها كيـف لم تـسر وتعتبـط لمـا بشروهـا بهـذه الـثروة الطائلـة، مـع أنهـا تشـعر بنفسـها ميالـة إلى الزهـو والعيـش الرغيـد. ومـرت إذ ذاك في مخيلتهـا مـرور الـبرق، هـذه الكلـمات التـي قرأتهـا في رسـالة مـن رسـائل القديـس بولـس: «إنـا لم ندخـل العـالم بـشيء، ومـن الواضـح أننـا لا نسـتطيع أن تخـرج منـه بـشي.... أمـا الذيـن يرومـون الغنـى فيسـقطون في التجربـة والفـخ، وفي شـهوات كثـيرة، سـفيهة مـضرة، تغـرق النـاس في العطـب والهـلاك»... وهـي لا تريـد العطـب والهـلاك... لكـن: أحـق أن اندريـا يحبهـا ويحـب خيرهـا بهـذا المقـدار، حتـى يتحمـل هـذه الصعـاب في سـبيل تمليكهـا هـذا المـال؟ وراحـت أنيسـة تزاحـم أفكارهـا، فتجنـح عـن البعـض بسرعـة، وتطيـل التفكـر في غيرهـا... لقـد رأت في ذلـك الحـين مسـتقبلها، وحاولـت أن تتطلـع إلى مـا يخبئـه لهـا، فهـل سـاء طالعهـا هكـذا حتـى تغـدو فريسـة مطامـع عمهـا، أهكـذا يحيـك لهـا حتـى يـزوج أنيسـة المثريـة بارمـان الفقـير،

فيستولي هو على الذهب الكثير، فإن اندريا لا يحبها بل يجب نفسه، ويسعى وراء خيره، وليس وراء خير أنيسة وأخيها... آه! أخوها! وهل يحبه ارمان؟ فإنهم يعللون النفس بالاستيلاء على ماله ولربما يبددونه ما دام موريس قاصرا، وآنئذ سيتدهور أخوها في وهدة الشقاء التي أخذ عمه في فتحها تحت اقدامه...

آه! يا ليت هذه الورقة لم تدم مع الأيام، ويا ليت الزمان هفاها وعفاها، ولم يبق منها أثرا، أو على الأقل، لو درت بها قبل نزوحها عن باريس، لكانت أعدت للأمر عدته، فما الذي حدا باندريا على كتمان الأمر عنها وهي ليست بالابنة الصغيرة التي لا تسع للسر كتما، فالأمر لا يخلو من ريبة، ويثير فيها الهواجس، فشعرت إذ ذاك بغمرة الحزن شملت نفسها، وارتجف قلبها هلعا، وبدا لها الآتي أسود حالك، ينذرها بأعظم الويلات. وهل يسلم أخوها من هذه الموابق؟ نظرت، فلم تجد حواليها من تفضي إليه بسر قلبها الكبير، فيفرج عنها الغمة الخانقة، فما كان منها إلا أن جثت حيث كانت، ورفعت إلى رب السماء، عائل اليتامى ومنقذ المساكين، الذي وعد بأن يخفف الأعباء الثقال، ويجلو عن القلب الهموم العظام، أكف الضراعة الحارة، أن يكلأها ويكلأ أخاها بعين العطف والحنان، ويقيهما من مكايد الأشرار، وكل عثرات الزمان، فإنه ما رفض قط حزينا به استجار... وإذا بموريس داخل، وهو يقول: «ألم تنتهي يا أنيسة؟ فتعالي إذن معي نستنشق الهواء النقي العليل، ولا تبقي ههنا رهينة الجدران كالحبيس». ومسك

بيد أخته وجذبها غير منتبه لما ينتابها من عوامل القلق والازعاج، وخرج بها، فوقع نظرها على لارا ورفاقه، وهم محيطون ببولس محدقين بشيء في يده، فتقدم موريس ونظر «- جمجمة إنسان؟... - أي نعم يا موريس، جمجمة إنسان وجدناها في مغارتنا، وهناك أشلاء أخرى، تدل على أن هذه المغاور كانت قبورا لأهل هذه البلاد..» فقاطعه فكتور: «أما أنا فاغلب ظني أنها كانت حبوسا ومنافي يسلك فيها أمراء هذه البلاد العصاة المجرمين من رعاياهم ويتركونهم ههنا يموتون جوعا وبردا، فهذه الكهوف كانت كالباستيل عندنا، على زمن ملوكنا الأغبياء الظالمين». فاعترضت أنيسة: «وأين رأيت أن سجناء الباستيل كانوا يموتون جوعا، بل التاريخ يقرّ بأنه كان يعتنى بالسجناء كل العناية، أحسن مما يعتني بهم الآن على عهد جمهوريتنا المقدسة... وإن كان ثمت مخالفات للعدل فهذا يعود إلى ظلم القضاة، وليس إلى الهيئة الحاكمة». فأجابها واحد بصوت متهدج: «العدل! العدل!، وهل من عدل في الدنيا ما دام المال محتكرا في أيدي الأغنياء والنبلاء، فالعدل عفا عن الأرض - كلا يا سيد فالعدل موجود، ولكن ليس على الأرض، التي تتحكم بها الأهواء، فالعدل لا يسود إلا حيث يسود الله وشرائعه...» فهزوا رؤوسهم وتضجرين هازئين: «دعينا من عظاتك، وأتركيها لقوم أغبياء، فنحن لسنا منهم...» فعارضه بولس: «لا بل أتركها، فالحرية تقضي بأن تبدي أفكارها بدون ممانعة، ولا حرج عليها، ودعنا نسير نحن، كالقطيع وراء خطبائنا المتشدقين بالوعود الخلابة لكي ينالوا من أكتافنا مراقي نحو المجد والسؤدد، وإذا نالوا ما طمحت إليه نفوسهم، أهملونا ولم يعودوا يكترثون بنا، لقد نهبنا مال الرهبانيات والديورة،

وقـد هدمنـا وخربنـا، فـما الـذي نلنـاه مـما جنـت أيدينـا إلا الفشـول والفاقـة، بينـما غيرنـا اسـتغنى وأثـري... فأنـا لا أحـب الكهنـة، وأنـا اشـتراكي قـحّ، إلا أننـي أراني الآن فقـيرا أجـوب الفيـافي في سـبيل كسـب معيشـتي، وأنـا أعـرف أن غـيري نـال الغنـى لأنـه خدعنـي واسـتعملني كآلـة للوصـول إلى مطامعـه، وأنـا بعـد مـا ظنـت الغنـى عـلى مـدى حبـل الوريـد، فـإذا بـه سراب لاح ثـم اختفـى، فـما زادني إلا ظـمأ وفشـلا... - مـن أيـن لـك هـذا العقـل، ومـن أعطـاك هـذه الفلسـفة، يـا بولـس؟ - مـن أيـن لي هـذه الفلسـفة؟ فمصائبـي علمتنـي، وأنـا لا أريـد أن أسـير سـير الغنـم لإشـباع هـذه الديـدان التـي تمصّنـا، وتـسرق دمنـا، ونحـن عـما يفعلـون غافلـون... - فأنـت مـن حـزب الكهنـة! يـا بولـس وأراك طلقـت مبادئـك الاشـتراكية؟ - وأظـن أن ليـس حزبهـم بالحـزب الـرديء، مـا زال بـين صفوفهـم مثـل هـذه القلـوب الطيبـة. وأشـار إلى موريـس وأنيسـة... فقهقـه الرفـاق: «لقـد اقتنصتـه عيـون الفتـاة! وعـن قريـب سـيجثو بجانبهـا ليتلـو صلاتـه، آه أمـا أسـحرك يـا عيـون، ومـا أغـواك يـا جفـون... - سـأصلي إذا مـا راقنـي الأمـر، ولا دخـل لكـم في شـؤوني». وأمَـرَّ فيهـم نظـرات حمـراء مغضبـة: «كل حـر بأفعالـه وليـس أحـد عـلى أحـد رقيـب». ثـم أدار ظهـره، وانكفـأ عنهـم متوجهـا نحـو العـالم شـارل، يصـف في حقيبتـه المعـادن التـي التقطهـا. «هـل لي بمسـاعدتك، يـا سـيد شـارل؟» قـال بولـس بـأدب وحشـمة.

- «أشـكرك يـا صـاح، أنـا لا أرفـض مسـاعدتك، فإننـي تأخـرت، لأني أطلـت النظـر في قطعـة غريبـة وجدتهـا، وأنـا أيضـا أسـاعدك، تابـع موريـس، ثـم سـنفطر معـا، ونذهـب، فأنـا أرى أن الطريـق قـد طالـت، وكـم أرغـب في الوصـول إلى غايتنـا...»

فتمتمت أنيسـة بلهفة وتوجع: «وأنا لا أرغب..... وأنا لا أحب...»

الفصل الرَّابع

في القيود

وبعد سير ثمان وأربعين ساعة، وصلت القافلة إلى ثغرة المونتانو، وتحقق لهم ما سبق وقاله لهم الدليل، بأن هذه الثغرة من أوحش وأجفى أجزاء الكوردليار، فهي ضيقة، مخنوقة بين جبال شامخة، نشرت على سفوحها، على مسافات متباعدة، ضمم من الأعشاب المصهورة، فتظهر للرائي بمظهر كئيب يوقع الخوف والرعب في القلب، فتمتم موريس في أذن بولس السائر إزاءه: كفانا الله شر هجمة هؤلاء اللصوص الذين طالما أنذرونا ببطشهم...» وأجابه بولس: «فالفرصة سانحة لهم، والمكان قفر، وإذا دهمونا، فسنذهب كلنا ضحية وفريسة... ولا سبيل إلى النجا». وكانت الصبيحة باردة، والريح تنفخ قارسة. وأوصاهم الدليل أن يلتفعوا بما لديهم من الأردية الصوفية الثقيلة لكي يتقوا شر لسعات البرد، أما أنيسة فكانت تسير وحدها واجفة سادرة، متمنية على ربها أن يقرب اليوم الذي تفترق به عن آل اندريا بدون أمل اللقاء، ولكن هل يعطى لها مثل هذا اليوم وهي ذاهبة وإياهم وراء الذهب والغني، وهل يتركونها بعد اقتنائها هذه الثروة الضخمة؟ فإذا بها تتوسل إلى الله أن يغيض هذا المنجم فلا يعثر له على أثر. وتابعت السير في صمت وانفراد، فلمحها موريس وتقرب منها مستفهما: «ما لك يا أخية، وعلام هذا القلق البادي على ملامحك، وحتامّ أراك واجمة، كئيبة، لماذا لا تنظرين إلى ما يمر أمامك من المشاهد الفنانة، وتمتعين العين بمحاسنها وجمالها، ألا تروقك الرفقة؟

- «إن لي هموما يا حبيبي، ليس في وسعك الآن حملها، وليس في مقدوري أن أفضي بها إليك». فوقف موريس إزاء أخته موقف الخدن الكسير الذي ليس في وسعه تخميد نيران اللوعة والأسى التي تحترق صديقه الأعز، إلا أن وقوفه لم يطل إذ قد غلب عليه طبعه الخفيف الفاره، فعدا عنها بعيدا، وتركها في صمتها، ولحق بولس ممتطيا جواده وهو يركله فيطير به طير، وكان بولس قد لاحظ أنيسة وحزنها وسكوتها، فسأل موريس عنها، فأجابه موريس أنه لا يدري، لأن أخته لا تبوح له بمكنونات صدرها، فأردف بولس: «أغلب ظني أن ارمان سمج معها، وتقيل الظل بمداعبته الغليظة التي يحاول بها كسب عطفها، وهو لا يأبه أنها تكرهه». وأكد موريس إذ ذاك: «أن أنيسة لا تطيق ارمان، وأنها لن ترضى به أبدا زوجا لها».

ونحو الظهر حطت القافلة الرحال، وخيمت لتناول طعام الغداء، والشمس إذ ذاك، قد تكبدت عنان السماء، مرسلة أشعتها المحرقة كأسهم ملتهبة تلذعهم وتكويهم بلظاها المتوهج، فكابدوا منها الأمرين، كأنهم مكتوون بأتون مستعر. فتمطى بولس على بساط من العشب المصوح وتظاهر بالنوم، إلا أنه لم يطبق له

جفن، بل كان يتبع بنظره ارمان وهو يختفي تارة ويظهر أخرى بين تلك الصخور، وهو يومئ إلى موريس أن يلحقه، فاقتفى موريس أثره والعرق يتصبب من كل جسمه بدون اكتراث بالتعب الذي يشعر به، فنهض بولس من فوره وتتبع أثريهما عن بعد من حيث يراهما ولا يرى، فإذا بهما يتسلقان طريقا كؤودا ضيقا تتسلل ما بين الصخور

مرتقيا نحو كهوف بانت لهما من علٍ، فرآهما تارة يسيران متجانبين، مازحين ضاحكين، وأخرى منفردين، بدون حديث أو كلام. ولما وصلا إلى الهضبة، أسرع بولس في تسلقه، فوجدهما أمام مغارة تدوي في داخلها المياه المتدفقة، ومنها تنتشر برودة فائقة تكاد تجمد الدم في العروق، وأنصت إلى ما يدور بينهما من الحديث، فالتقط هذه الكلمات من حديث ارمان: «أتعجبك هذه المغارة، يا موريس؟ هيا بنا ندخلها لنرى ما فيها، فادخل أمامي، وأنا سألحق بك بعد ما أكون اشعلت القنديل، لكي نستهدي به في هذه الظلمات الدامسة.

- «حييت يا ابن العم، الذي أتيت بي إلى مثل هذه المشاهد الرائعة، التي لم أرَ لها مثيلا!» وقفز موريس متجها نحو باب المغارة إلا أن بولس سبقه، وأمسك به وهو عنه غافل، وأرجعه إلى الوراء جرا وسحبة لأن موريس كان مصرا على الولوج. - «البرد عظيم، ولا يمكنك تحمله يا موريس، وإن هذه المغارة قد تكون قبرك إذا ما دخلته». وفيما هو يتكلم شزر ارمان بغضب وازدراء، فامتقع لون ارمان وتكلف الجمود أمام نظرات بولس الصامدة، وقال: «أشكرك، فأنا أيضا كنت مزمعا على دخولها... - إلا أنك دبرت أمرك حتى يدخل موريس قبلك... لله يا ارمان...» وصمت بولس على هذه الكلمات وهو محدق نظره به... «فتعال يا موريس ولا تبقى في هذه البرودة». ومسك بيده وابتعد معه عن المغارة قافلين من حيث أتيا، فاعترضهما بيترو في الطريق مستندا على صخرة متأملا، فبادره بولس: «أرأيت ما كاد يحدث ههنا؟ فإن هنالك معمل جليد!!... فأنا لو لم أتدارك الشر، وأسبق موريس لكان ذهب ضحية الحسد والبغض، وقبره ارمان في هذا الكهف».

- قد رأيت بعيني ما حدث، أجابه بيترو بفتور.....

وانحدروا معا مهرولين إلى حيث القافلة قائلة، وكان موريس قد سبقهم، فمال بولس وهمس في أذن بيترو: «هذه مرة ثانية يحاول فيها هذا الوغد هلاك هذا الطفل الغرير... وأنا أيضا قد رأيت هذا، فسبحان من وهبنا العقل والذكاء وجمع أفكارنا... لأنت يا بولس أذكى مما يلوح عليك... فعلينا أن نترقب هذا اللئيم... لئلا يوقع ابن ساكس في إحدى التهلكات، ولا أخالك يا بيترو، ترضى بأن يقتل هذا الدنيء ارمان، ولدا ظريفا نبيلا كيسا، كموريس...

- ما لي ولهما، فلا يعنيني منها أمر، فهما من طبقة المثرين الأغنياء، فليقتتلا، ويتفانيا، فليس لي شأن معهما».

فمسكه بولس بساعده وهزه بعنف: «هل جمد دمك في عروقك، وأصبحت فاقد الاحساس، أما تشعر أنه من اللآمة أن نترك هذا الولد يروح فريسة لحقد ارمان وآله؟

- اتركني ولا تهزني هكذا، فقد كسرت لي ساعدي... وأنا سأكون عند رغبتك إذا أردت أن أكون عليك وعلى موريس رقيبا، فلك ما تريد، فقط أتركني...»

ولما وصل موريس إلى أسفل، توجه توا إلى حيث كانت جالسة أخته بالقرب من ادما، تحت ظل صخرة ناتئة، وهما مصغيتان إلى اندريا يرد عليها حديثا ذا شأن... فلما رآه العم: «هذا أنت يا غبي، فعن قريب سنكون في المحل المنشود، وعن قريب ستكون في معين غناك ومنجم ثروتك... - أصحيح ما تقول - كل الصحة، في هذا المساء سنضرب

هنالـك خيامنـا، وسـتنام فـوق شـذرات الذهـب، - فيـا نعمانـا، سـأفترش أرض الذهـب وسـأملأ منهـا حقائبـي...». فجذبتـه ادمـا بيـده، قائلـة مشـيرة إلى أنيسـة: «أنظـر إلى أختـك، أهـذا وجـه مـسرور بـثروة تنتظـره؟ أم هـي حزينـة لأنهـا سـتصبح بعـد قليـل غنيـة سـعيدة ؟...»

فأجابتهـا أنيسـة بجمـود: «أنـا لسـت مـسرورة لهـذه البشـائر، وإني حقيقـة أنـدب سـوء حظـي الـذي اقتـادني إلى هـذه الأصقـاع البعيـدة الموحشـة وراء ظـل سـيفلت منـا، ووراء غنـى سـيفوتنا... وإذا قـدر وعثرنـا عـلى هـذا المـال، فلـن نـدري وجـوه اسـتعماله عـلى صغـر سـننا، فـكان الأجـدر أن نسـتنظر للدخـول عليـه، حتـي نكـون مدركـين...»

- واجبـك أن تمتلـكي هـذا المـال الـذي هـو مالـك شرعـا، قـد تركـه لـك ولأخيـك، والـد يحبـك، أجابهـا اندريـا، وقـد انتهـزت هـذه الفرصـة السـانحة المعطـاة لي مـن الحكومـة لامتلاكـه، وأكـون حقـا فاقـد الرشـد إذا لم اسـتفد مـن هـذه البعثـة، فغريبـة أطـوارك يـا أنيسـة، فعـوض أن تظهـري نحونـا بمظهـر الشـكر والامتنـان عـلى هـذا الصنيـع، فـلا أزال أراك عابسـة لائمـة، كأننـا اقترفنـا إليـك أقبـح الذنـوب... - كلا أيهـا العـم، فأنـا مدينـة لـك، وأقـرّ بفضلـك، إلا أننـي كنـت أفضـل أن أكـون مطلعـة عـلى كل شيء قبـل نزوحنـا عـن فرنسـا... فقاطعتهـا ادمـا هازئـا معنفـا: «ليـس مـن الحكمـة أن يطلـع الأولاد عـلى مهـات الامـور... - فأجابتهـا أنيسـة بحـزن: «مـا أظنـك يـا ادمـا تقبلـين، لـو عاملـوك بنفـس المعاملـة التـي اتحفتنـي بهـا منـذ بـدء السـفر إلى الآن...»

ونهضـت أنيسـة مكتئبـة، وابتعـدت عنهـم متجهـة نحـو السـيد شـارل الـذي

كان يقتلع من الصخر قطعا ليدرس تركيبها، فشعر بقدومها بولس الواقف بالقرب من شارل يساعده «آه! هذه الآنسة أنيسة. أتيت تنظرين إلى السيد شارل فهو ينزع هذه الحصاة، زاعما أنها مشوبة بالزئبق، وأنا لا أرى فيها شيئا مغايرا للصخرة، إلا أن العالم يرى أشياء لا نأبه لها نحن الجاهلين، آه لو كنت عالما! لكنت رأيت الزئبق يسيل على جنبات هذه الصخرة...»

- أما درست في حياتك يا بولس -- كلا أيتها الآنسة، فربيت نِقادا يسحبها كل ذي هوى!!! أتبع كل من ابتسم لي دون أن أميز صاحبي من عدوي، وكم من أناس غدروني ورموني لإشباع أطماعهم، في حومات القتال، وخرجت من بين أيديهم أفقر مما كنت قبلا، بعد ما وعدوني بالغني والمال الكثير..

- ولكن ثق يا بولس فإن في السماء إلها رقيبا محاسبا، سيرد إلى كل إنسان ما كسبت يداه...

- يا ليتني كنت أومن مثلك... - ستأتي ساعة ينقشع فيها الظلام، ويسقط الحجاب، فما يترك الله قط رجال النية الصالحة، وأصحاب القلب السليم...»

ودوى صوت اندريا آمرا بالرحيل، فإذا بالرفاق يشهرون العصيان، ويرفضون الذهاب، مستزيدين الوقت للراحة، - «ستستريحون آن الوصول، فلسنا ببعيدين عن المحل المقصود، والأفضل أن نسير قبل انسدال الليل» إلا أن الرفاق تألبوا ورفضوا السير

بتاتـا، وتهـددوا اندريـا، فأرغـم عـلى الخنـوع والاذعـان لأمـر مرؤوسـيه... وانتحاهـم وابتعـد عنهـم، وفي قلبـه تثـور العواصـف، وتزدحـم الظنـون، وألحقـه الرفـاق أبصارهـم، وبيـترو يغمـز بطرفيـه ويقلـب شـفتيه سـاخرا هازئـا: «ألم أقـل لكـم اننـا سـنغلبه عـلى أمـره ونكـسر شـكيمته، فـما لنـا إلا العربـدة ورفـض الطاعـة... مـع هـذا فليـس لنـا غايـة في هـذه المكابـرة، وهـذا العنـاد إلا أن نظهـر لاندريـا اننـا أحـرار، وفي وسـعنا أن نسـير بحسـب مـا توحيـه لنـا إرادتنـا، ومـا غايتنـا مـن المكـوث ههنـا... آه، مسـكين الأخ اندريـا، لقـد نغصنـا عليـه عيشـه، وكسرنـا خاطـره...»

فالتجـأ المنـدوب إلى أولاده كسـير القلـب كظيـما، وهـو ينفـث غمتـه مـن صـدره كالصـدور، مُبرقـا مُرعـدا، متوعـدا متهـددا، وقـد تمـشى الغضـب إلى ارمـان ودب في مفاصلـه دبيـب لسـع العقـارب: «فلنذهـب نلهـب السـوط في ظهـور هـؤلاء المتمردين الأجـلاف... والا...» فقاطعتـه أنيسـة بسـكينة وهـدوء: «هـذا أنـت الشـيوعي الثائـر تتكلـم بهـذا الحديـث؟... فبحسـب مبادئـك، لا اللـه ولا رب... وكل حـر في أعمالـه، فكيـف تقـاصُّ رجـالا أدرجـوا اعتقادهـم في حيـز العمـل... وأنـا أرى أنـه حسـب معتقدهـم لا لـوم عليهـم ولا تثريـب».

فاحمـر ارمـان لهـذا الجـواب السـديد، إلا أنـه كظـم غيظـه لأن ادمـا لم تـترك لـه وقتـا للـرد، بـل بـادرت أنيسـة: «أسـكتي يـا غبيـة، ولا تصـكي أذاننـا بسـماع أفـكارك التافهـة، فلسـنا بحاجـة إلى كلامـك».

وساد المغارة حيث كانوا صمت عميق مشوب بالتنهدات المكظومة، إلى أن هدأ روع اندريا عندما رأى أن لا مندوحة عن النزول عند رغبتهم، والاذعان لإرادة الرفاق.

ولما مال النهار، وأخذ الظلام ينشر جناحه على تلك الآفاق، قامت القافلة وأخذت في المسير، يتقدمها الدليل الذي توغل في تلك الشعاب متغلغلا في المضايق، وهم يجانبون نهرا يسيل هدّارا طاميا، فتبعوا شعبا متخفيا ما بين جلاميد الصخور، وهو يذهب متلويا على سفح الجبل، فهال أنيسة هذا المشهد الراعب، وأدارت بصرها نحو ارمان السائر وراءها: «أما ترى يا ارمان، أن هذا المحل محفوف بالمخاطر، فويل للرجل التي تزلق فيه، ثم صاننا الله من إحدى الهجمات المباغتة... - وأي هجمات تعنين، يا أنيسة؟ هدي روعك، فلا خوف علينا فإننا أخذنا للأمر حيطتنا، وهل تخافين ما دام حولك أسود يفدونك بالأرواح... وهل تخافين ووراءك واحد يفديك بالدنيا وما فيها، إذ أنت كل الدنيا له، وبدونك لا مجال للدنيا ولا سعادة... فدامت على شفتي أنيسة ابتسامة مغتصبة هازئة: «عجب منك يا ارمان، أتنسى. المخاطر المحدقة بنا... ؟ - فأنا أسلو كل شيء بقربك... وما لي من الحياة إلّاك... أتجهلين أن قلبي لا يبغي إلا هوالك، ولا يشتهي إلا التمتع بمرآك...» فانتفضت أنيسة لهذه الكلمات المشغوفة، انتفاضة أجفلت البغل. «ماذا تعني يا ارمان؟ - أعني أنني أودك لي عروسا، وأنا... - آه أنا لك عروس، وأنت لي زوج؟ هذا ما لم يخطر لي قط على بال، ومما لا ترضاه أبدا نفسي - كيف لا وقد استهواني جمالك، ودلهني حبك... باقتراني بك تقترن بي السعادة... أتدرين يا أنيسة» - فامتلكت

أنيسة نفسها وعاودت جمودها، ووجهت إليه بجرأة: «كف عن هذا الحديث يا ارمان، فليس الوقت الآن وقت مغازلة وزواج... ولكن اعلم أنك تطلب مني المحال، فإننا لم نخلق لنعيش معا، فلا اتحاد بيننا ولا وئام وهل تنسي الدين المفرق بيننا؟ - فأنا سأكون طوع هواك، فديني هو أنت، وعقائدي ما تأمرين به قلبي... - كل ما فينا يتجافى: أذواق متغايرة، طباع متعاكسة، أفكار متضاربة؛ فكيف تجتمع المتضادات...»

وللحال سمعوا دوي صفارة تجاوبته الأصداء، وامتدت فوق الهضاب، وظهرت للفور عصاية كانت كامنة وراء الصخور، فتبددت القافلة رعبا، وأسقط في أيديها، فصرخ بولس: «ها قد وقعنا في الاحبولة، فعلينا السلام...» واعتلى صوت بين رجال العصابة، فإذا بالرجال يفكون أحبالا كانوا ملتفين بها، ورموا رفاق اندريا بنصاحات التفت حول أكتافهم، وألقتهم على الحضيض لا يستطيعون حراكا. فتهاجم عليهم رجال العصابة، وفكوا النصاحات من أعناقهم، وأوقفوهم وصفدوا أيديهم بالأغلال ولفوا على وجوههم لثائم ووقف زعيم العصابة بين أفراد القافلة وأمرهم بلغة فرنسية ناصعة «قفوا على الاقدام...» فتمتم اندريا متلكئا، وقد علاه شحوب الموت «ماذا تريدون منا، فأنا مندوب فرنسي، قد أوفدتني حكومتي...» فقاطعه الصوت بنبرة الأمر المحتد «اخرس، وإلا أرسلك في الحال إلى حيث لا تريد». فتقدم رجال العصابة، وألقوا الأيدي على أفراد القافلة، واقتادوهم وراء هضبة عالية، حيث استراحوا، فأمر الزعيم رجاله أن يفكوا اللثائم عن الوجوه، فرأى اندريا نفسه مع رجاله، في فسحة ملأى من البيوت الصغيرة، تخطها الطرق من كل جهاتها، وتحدق بها الأشجار العالية

وتنمقها الحدائق الأنيقة المنظمة، وتجري خلالها سطور الماء بخرير هادي. لطيف، وسمعوا عزف آلات موسيقية تصدح في هذا السكوت المخيم، مصحوبة بأصوات نساء ناعمة، ويلمحون من وقت إلى آخر أشباح رجال: تظهر ثم تختفي ما بين ثنايا الطرق، وحنايا الحدائق، غير مكترثة بالقادمين. فوقف الرفاق مشدوهين أمام هذه المناظر التي لم تكن قط في الحسبان، فمن أين هذه المدينة؟ ومن أين لها هذه الأنوار الكهربائية الساطعة التي قلبت الليل الدامس نهارا واضحا؟ فهل هم في حلم أم في اليقظة؟

ولم تطل لهم فترة الدهش والذهول، لأن صوت الزعيم دوّى راعدا «تقدموا...» فأطاعوه كالآلات، وتبعوه وهو يسير أمامهم، إلى أن وصلوا إلى اكواخ من خشب، سلكوهم فيها، اثنين في واحد.

أما بيترو والإدلاء، فلم يكونوا معهم، وقد لاحظت أنيسة، كما لاحظ أيضا بولس وارمان، أنهم تسللوا واختفوا بدون أن يمسوا بضرر، وهم يصرخون... في سبيل العدل.

الجزء الثَّالث

الفصل الأوّل

في المدينة العجيبة (ساليبتو)

فاجأت الرفاق هذه المهاجمة، فأذهلتهم، وطاب منها ذهولهم، فكأنها أضغاث احلام ساورتهم، فخلبت منهم العقول، وكلهم في تلك الغضون كأنهم قد فقدوا الارادة والحرية، فكانوا يتبعون آسريهم كالأرقام، عن وحي الفطرة الخائفة المنقادة لصولة أشد، وسطوة أعظم، ولما أوصدت عليهم الأبواب، لبثوا حيارى لا ينغمون برهة غير وجيزة من الزمن، كأن الالسنة قد عقدت..

وكأن الزعيم أمر أن تسلك ادما وأنيسة في غرفة واحدة، فلبثا واجمتين مرتجفتين مدة طويلة، وهما منطرحتان على حشيّتين من القش، لا تتحركان البتة، تحت ضوء قنديل كهربائي ضئيل، فلما هدأت بها الحال، أدارت ادما رأسها نحو جارتها، وقالت بلهجة اللهفة والرعب «ما عساهم يعملون بنا، يا أنيسة؟ فها قد وقعنا في الشرك، الذي كثر ما حذرونا منه... فقط يا ليتهم يقبلون فدية...». فضمت أنيسة يديها المرتجفتين على صدرها، وأرسلت آه محرقة متنوعة «إلهي... إلهي... أين موريس» فأجابتها ادما بمرارة وحنق «هو مثلنا، وفي ذات الخطر...» فنهضت أنيسة واستوت على حشيّتها، واضعة وجهها بين يديها، والدموع تتسايل على وجنتيها صامتة لاذعة... «أنا الآن حبيسة، موريس أيضا حبيس، وقد وقعنا بين أيدي أناس لم يسمع قط أنهم افلتوا واحدا وقع في قبضتهم... وكل هذا من جراء جشع إلى المال

لم يخطر لنا قط ببال... آه! يا رب انقذنا، وانقذ أخي... ولا تهلك البريء في وزر الأثيم. وزفرت زفرة من أعماق صدرها الضائق، عقبها سكوت عميق، كسكوت المقابر في ظلماء الليل... ففتح الباب فجأة، ودخلت إليها امرأة طويلة رفيعة، هزيلة، لا يظهر عليها إلا القفص والعظام، وتقدمت منها بهدوء ووضعت على الأرض وعاء فيه صحنان تموج فيهما مرقة سوداء تثير رؤيتها الاشمئزاز وتنزع القابلية من الجوعان، وتقهقرت للرجوع، فخاطبتها ادما بالفرنسية، فلم تحر المرأة جوابا، ووقفت أمامها كالتمثال المنحوت، ثم خاطبتها أنيسة بالإسبانية، ففهمت عليها، فسألتها أنيسة «ماذا سيعملون بنا؟» فأجابت د ما يروق في عيني مليكنا - ومن هو مليككم؟» فانحنت المرأة واضعة يدها على قلبها «مليكنا، دون ميشيل، الكوندور الأعظم، ملك الاند - وهل سنراه نحن، هذا الملك عَبدته تجهل ذلك، فساد الغرفة صمت عميق، غابت في أثنائه المرأة عن العيان. فبعدما خرجت قامت ادما وتناولت الصحن بنفور «ما هذه القذارة التي أتونا بها، إلا أنها تجرأت وأخذت منها وذاقتها، فوجدت طعمها ألذ مما كانت تتوقع، فأتت على صحنها بلحظة، وأعادت الكرة على صحن أنيسة، زاعمة أنها خائرة القوى، وأنها ستموت جوعا... فضلا عن أنها محتاجة إلى الأكل لكي تتقوى وتقتحم بشجاعة الموت الذي ينتظرها حتما، ما دامت بين أيدي هؤلاء الأشرار...

وبقيت أنيسة غائصة في أفكارها المحزنة، غير آبهة لادما وكلام ادما، لأن فكرها عند أخيها، البعيد عنها، وهي متمددة على حشيّتها. وفي منتصف الليل، قامت ادما، وقد قرصها البرد مريرا، وسلبت جارتها

الإحرام الوحيد الذي كانت تقي نفسها به من لسعات البرد القارصة، غير رائفة بابنة عمها التي كانت تنتفض انتفاض الريشة في مهب الريح، وتتقبض متلوية، لعلها تدفئ نفسها... فما أتى الصباح إلا وقد هراها البرد وتشنجت كل عضلاتها.

ولما دخلت الهندية حاملة إليها وجبة الصباح، ورأتها على تلك الحالة، حزنت وتملكها الحنان والرأفة، وتقدمت نحوها بلطف «هل أنت مريضة، يا سيدة؟ - لقد لذعني البرد شديدا في هذه الليلة.

- «فها إن الشمس قادمة، جالبة إليك أشعتها المنعشة، والدفء اللذيذ» وكانت الشمس قد نفدت إلى الغرفة من خصاص الباب وملأتها، فنهضت أنيسة لتأكل شيئا مما أتت به الهندية، لأن الجوع قد بلغ منها فرنقت عيناها وخفتت قواها، ولكن عبث ما حاولته، لأن القشعريرة قد تخلت إلى كل أعصابها ومفاصلها وعطلت فيها كل حركة، فارتمت على فراشها مقفقفة راجفة، بينما كانت ادما تتجول في أطراف الغرفة ضاربة قدميها بالأرض علها تجلب إليها الحرارة، غير مبالية بأنيسة المحمومة التعبية.

فما مضى إلا القليل حتى فتح الباب فجأة، ودخل رجل أشهب اللون، متشحا بزي صياد، ائترز بأسفطة الذخيرة، والرصاص، وعلى جنبه يتدلى مسدس، فارسل صوت أجش قاسيا «تعاليا...» فنهضت أنيسة بعناء شديد، وتبعت ابنة عمها بأقدام متخاذلة، وسارتا وراء الرجل، فانبسط أمام ناظريها فسحة مترامية الأطراف، قد نشرت فيها البيوت مختفية ما بين الحدائق الغناء، وتشقها الطرق الواسعة المظللة بالأشجار الوارفة

الكثيفة، ورأتا الناس سائرين في الشوارع ذهابا وايابا، كلهم لابسين مثل ازياء الصيادين، وفي أفواههم السجاير، فتوجهت الفتاتان مع قائدهما إلى كوخ متطرف، تعلوه أخشاب مدهونة حمراء، فدفع الباب ودخل، فإذا بها في غرفة فسيحة صفت فيها المقاعد الحريرية حول طاولة من خشب الأبنوس الغالي، يغشيها بساط من دمقس أخضر، تنوس أهدابه المتراسلة على وجه الأرض، كلما مرت نسمة خفيفة، وعلى هذه المقاعد كان قاعدة اندريا وارمان وموريس وشارل وبولس ورفاقه، فصرخ موريس لما رأى أخته داخلة، ووثب من محله وارتمى على عنقها، وبللا وجناتها بالدموع الحرار، وهم يتساءلان عن صحتها وراحتها.

كيف أنت، يا أختي؟ فلا تغتمي، ولا تجزعي، فالعم يؤكد لنا أنهم سيطلبون منا فدية، وإننا سنخلص من بين أيديهم، مالي أراك واجمة كئيبة؟ فقصت له طرف ما ألحقته بها ابنة عمها ادما أثناء الليل.

«يا لها من اثيمة» وصوب موريس إلى أدما نظرا يتطاير شرا وغضبا، فإذا برجل قوي البنية غليظ الألواح، ممتلئ البدن، تعلو رأسه لُمّة شعثاء، قد ولج إلى الغرفة يتبعه اثنان مدججان بالسلاح، ولما صار في الوسط أجال فيهم نظرة وأمر «وقوفا...» فوقفوا كلهم بدون أن ينبسوا ببنت شفة، وأردف الرجل قائلا، متأنيا «ستتقدمون الآن تدلون بأسمائكم، فردا فردا» فهمس اندريا في إذن ادما «أنت ترين، أنه لأجل الفدية، وإلا ما الغرض من تسجيل أسمائنا». ولما انتهي من تقييد الأسماء، التفت إلى فكتور ورفاقه «أنتم حاولتم الهرب، هذه

الليلة، فلكي انزع منكم هذه الرغبة مرة ثانية، ستُعطون بعد حين ثلاثين سوط « فاعترض بولس « الله! إذا ما أردتم قتلنا، فاقتلونا دون هذه المساخر، وبدون أن تهرأوا أجسامنا بالجلد والضرب - أغلق فاك، وإلا، سأزيد العدد» ثم أمر أحد رجاله بالإسبانية «إليك بهؤلاء الرجال عني... ولا تنفذوا الحكم إلا بعد عودة دون ميشيل».

فدوت صفارة، فإذا بعدة رجال دخلوا واستاقوا فكتور ورفاقه، وقد امتقع لونهم رعبا وفزعا، ما عدا بولس فإنه مشى رافعا رأسه، محاولا أن يظهر بالشجاعة والاستعصاء، أما الآخرون فلبثوا داخل الغرفة في انتظار أوبة دون ميشيل، ونهض الرجل، ومعه الجنديان المرافقان وقصدوا الخروج، فأوقفه اندريا «التريث والابطاء؟ إذا كنتم تريدون فدية، فنحن مستعدون لدفعها...» فرشقه الرجل ورفيقاه بنظرة مليئة هزها وسخرية، وقهقهوا معا «لا تخف يا اندريا، فلن نطلب منك بدلا، ولسنا محتاجين إلى دراهمك...

- فإذن ماذا تريدون منا؟ - أتريد أن تعرف لماذا أعقناك من السفر، ومتابعة رحلتك: فقد غاليت يا فخامة المندوب في فضولك وسؤالك، ثم ليس من شؤوننا أن نطلعك على هذا، فغيرنا سيطلع بهذه المهمة، وهو لها كفوء، أما نحن فنؤكد لك فقط أنه ما من أحد دخل مدينة ساليتو، وخرج منها! فإنه إما يبقى تحت سيطرة الكوندور الأعظم، فيصبح له مواليا أمينا، وإما سيحتفظ به هنا للقيام بأعمال الخدمة، في مرافق المدينة، إلى أن يلاقوا فيها حتفهم... وبعد هذه الكلمات خرجوا من الغرفة، بينما أنيسة ضامة يديها وشاخصة إلى السماء،

تتلهف قائلة: «إلهي لا تفرقني عن أخي، فلنكن دائما معا في الحياه وفي الممات، يا جامع الطيور في الأوكار، اجمع بيني وبين أخي...». وضجت الغرفة بأصوات التنهدات، إذ كل من جهته يئن ويتحسر على ما صاروا إليه وأمام ما ينتظرهم من ذل الاسترقاق المؤبد، والاتعاب المضنية، فأخذت أنيسة موريس وجلست وإياه في زاوية على انفراد، ولبثا برهة متعانقين، لا يتكلمان، والدموع تتدرج بصمت على وجناتها، وخلال الدموع الصامتة تمتمت أنيسة إلى أخيها.

والآن يا موريس، لربما سيفرقنا الزمان... فكن شجاعا يا حبيبي، ولا تنس قط أنك مسيحي، فمت كما مات المسيح بشجاعة وثبات، ومت كما يموت الفرنسي أبيا شريفا... - أي نعم، يا أختي الحبيبة، أعدك ذلك، لن أنجس ديني حقه، ولن أنكر أصلي... ولكن أنت، ماذا ستصيرين؟» فانتفضت أنيسة انتفاضة شديدة، نفرت معها الدموع من عينيها، فحاولت اخفاءها عن عين موريس المُغمَصَة... «فلنصل، يا أخي، حتى يرأف الله بنا... آه! ألف ميتة أولى من أن نفترق، وأبقى رهينة هؤلاء الأوباش». ولما دقت الساعة الحادية عشرة، دخل الغرفة شاب يدعى ماتيو، ووقف بهم وأمرهم باتباعه، فنهضوا جميعا ولحقوه صامتين، في شارع فسيح قد نصبت فيه عمدة مطلية بدهان أبيض، وفي أعلاها ترف أعلام سوداء في وسطها رسمت شمس مذهبة الأطراف تشع منها الأنوار من كل صوب، فرأوا فكتور وبولس وفيوليت موثقين بتلك الأعمدة، فتقدم الجنود من اندريا ومن معه وأوثقوهم كلا إلى عمود، غير مسكنين أنيسة وادما، وبعد أن انتهى الجنود، أطلق بولس ضحكة عالية، وهو يقول: «هكذا ارتفع الحسد فكلنا في الشر سواء، فقط يا

ليت موريس وأنيسة لم يكونا في هذا العذاب، مسكينة أنيسة، فوجهها يعلوه شحوب الموت...» وأنيسة كانت تعاني المضض من أشعة الشمس المحرقة، على كل ما قاسته سابقا من الجوع والأرق، وكانت قد انحلت غدائرها الشقراء وانسدل الشعر على وجهها المورد... وعيناها غارتا حاسرتين مختلجتين كأن الكفاف دب فيها.

وكانت الجنود تتمشى حول السجناء الموثقين، يتميزون لمحاتهم، ويتبادلون الخواطر «فأين المندوب» فأجاب واحد بالفرنسية «هو ذاك الضخم، هذا الذي يدعونه اندريا، الذي غدر بهؤلاء الأشخاص وأتى بهم إلى هذه الأصقاع». ولم تكن إلا دقائق حتى سرت بين الصفوف: «قد وصل الزعيم». فنظروا إلى جهة الجبل، فلمحوا غبارا ساطعا، وخيالا يأتي نحوهم خببا، ممتطيا جواد مطهما. فلما اقترب منهم وقف الجواد يفحص الأرض بسنابكه رافعاً رأسه، جامعا جافلا، وهو يخطر بذنبه، وخياله شاب، طرير، في ميعة الصبا، وغضارة العمر، قد ترقرق في وجهه ماء الشباب. روقا جميلا، وهو يتجالس على صهوة الجواد برشاقة ولدانة كأنه عود الخيزران، ويتبعه كوكبة من الفرسان، يسيرون ببطء مقصود، وصمت معتمد، فدوت السياحة بالأغاني والتهاليل لتحية الملك دون ميشيل، فاخترق الجموع المحتشدة راحة على هتافاتهم بتلويح يده وابتسامة عذبة فاتنة، فهمس اندريا لأنيسة «أليس هذا الكونت مارسيل الذي رأيناه في ليما؟...» فتقدم الخيال من المسجونين، فما كان من أنيسة إلا أن رفعت رأسها المثقل الحامي، وألقت نظرة من جهة الزعيم القادم، فلا لمحته أخذتها رعشة، وأسقطتها حالمة... فهل هي الحمى التي أفقدتها الرشد وشردت عقلها، أم هي حقيقة ترى

باللحـم والعظـم ذاك الشـاب الـذي أوشـكت سـيارته أن تـدوس الطفـل الـذي خلصتـه هـي في شـارع باريـس؟... ورأتـه مؤخـرا في شـوارع ليـما، تقلـه عربـة فخمـة بديعـة... أليـس هـو الكونـت مارسـيل؟ فهـي ذات العيـون العيـون السـواحر التـي سـلبت لبهـا لأول مـرة رمقتهـا، وطالمـا تصورتهـا في أحلامهـا.... ولكـن، كلا، هـي ألعوبـة لمخيلتهـا المشـبوبة، فهـي شـاردة العقـل مسـبوهة...

فاخـترق دون ميشـيل الصفـوف، وأخـذ جـواده يتقفـز تحتـه، كأنـه لا عـبء عليـه، وهـو مـن عـلى صهوتـه يجيـل في الموثوقـين نظـر العجـب والخيـلاء، فلـما وقـع بـصره عـلى أنيسـة، ورأى عيونهـا النجـلاء السـوداء المتألمـة الحائـرة، تحركـت أوتـار قلبـه بانفعـال شـديد، ووقـف أمامهـا دهشـا، ذاهـلا، كأنـه يسـترجع ذكـرى خياليـة، ويتمثـل شـبحا رآه، فمـرت عـلى جبينـه سـحابة سـوداء، وترشـحت مسـامه بعـرق بـارد، والتفـت نحـو دون اسـطفان، الواقـف وراءه «لم أوثقتـم هاتـين الآنسـتين المسـكينتين؟ - أنـت الـذي أمـرت بـأن نعاملهـم بـلا شـفقة - الرجـال دون النسـاء، ولا سـيما ليـس هـذه الفتـاة المسـكينة، أمـا تـرى أنهـا إلى المـوت أقـرب منهـا إلى الحيـاة... فحـل وثاقهـا حـالا...» ووثـب دون اسـطفان عـن ظهـر جـواده، وبضربـة مـن حسـامه قطـع وثاقـات أنيسـة، وترجـل دون ميشـيل وتقـدم منهـا، ورفـع بيـده القنـاع المسـدل عـلى وجههـا، وقـال لهـا بكياسـة وأطـف «أرجـو منـك أيتهـا الآنسـة، أن تقبـلي جميـل عـذري، عـن هـذه المعاملـة الشـاذة، فكيـف سـأكفر عـن جهـل وكيـلي...» فتذكـرت أنيسـة هـذه اللهجـة السـاحرة، وتذكـرت هـذه التغيـرات الفاتنـة، وتمثلـت تلـك الطلعـة التـي حلمـت بهـا أحيانـا... ولكـن كيـف أصبـح رئيـس عصابـة؟ ومـا زال دون ميشـيل محدقـا

في وجـه أنيسـة، يقـرأ عـلى ملامحهـا مـا يجـول في خاطرهـا، ورأى أن وراء هـذه العيـون الفاتـرة ألغـازا تحـاول كشـفها واستفسـارها، وهـي رانيـة إليـه مدهوشـة، فانبسـطت قسـماته بابتسـامة ضعيفـة، وانحنـى نحوهـا، وسـألها بالفرنسـية - هـل أنـت الآنسـة دي بـرافي؟ - نعـم، يـا سـيد».

والتفـت الزعيـم إلى دون اسـطفان «ارجـع المسـاجين إلى أكواخهـم، ثم عد إليّ لأخـذ الأوامـر بشـأنهم». وركل حصانـه بعدمـا امتطـاه ثانيـة، وتابـع سـيره. غـير أن أنيسـة أوقفتـه، ورفعـت عـن وجههـا الـذي وردتـه الحمـى وكوتـة الحـرارة، وقالـت لـه «أمـا فيـك، يـا سـيد، أن تعفـي هـؤلاء المعتقلـين مـما حكمـوا بـه عليهـم مـن العـذاب؟». وأشـارت إلى بولـس ورفاقـه فافـترّ لهـا دون ميشـيل عـن عطـف وحنـان «الأمـر هـين، مـا دمـت أنـت تلتمسـانه، فـإذن يـا دون اسـطفان، أنـا اعفـي هـؤلاء مـن عذابهـم» فتعجـب الواقفـون حولـه مـن هـذا التنـازل الـذي لم يـروا لـه مثيـلا قـط، لأن العفـو لم يكـن مـن عـادات ملـك الجبـال... وبعـد أن رفـع قبعتـه وحـي الآنسـة، راح يعـدو عـلى ظهـر الجـواد نحـو خيمتـه المنصوبـة في طـرف المدينـة.

فحـل الرجـال وثـاق المعتقلـين وقادوهـم إلى أكواخهـم، فسـارت أنيسـة مسـتندة عـلى أخيهـا لأنـه لم يعـد في وسـعها أن تخطـو خطـوة واحـدة فقـد أنهكهـا العيـاء، ولمـا انفـردوا في داخـل حبسـهم قـال اندريـا: «هنيئـا لـك جرأتـك، يـا أنيسـة، وهنيئـا لـك هـذه الحظـوة التـي نلتهـا في عينـي الزعيـم... فيـا للـه! اعتـذارات، وابتسـامات، وتحيـات، مـاذا بقـي بعـد؟ ومـاذا لم تنـل؟ نلـت بكلمـة مـا لا ينـال بألـوف...» فأجابـت ادمـا بابتسـامة مريـرة وبغلظـة وجفـاء «بقـي أن تنـال العفـو عنـا، بمـا أنهـا نالـت مـن

قلب الزعيم هذا المحل الكبير، ثم نتمنى لها معه زواجا سعيدا...» قالت هذا وهي تتميز غيظا لأن الزعيم لم يلتفت لها قط.

وأخذ المعتقلون يتبادلون الخواطر في شأن دون ميشيل، دون ميشيل الزعيم، الكونت مارسيل الذي ملأ الآفاق بصيته وشهرته، دون ميشيل الذي تحف به باريس وتكرمة، دون ميشيل الذي تحفل به ليما وتجله وتعظمه، وهم لا يدرون أنه رئيس عصابة؟... وأردف اندريا «بالحقيقة طلعته زاهية، ووجهه فاتن، وصوته ساحر» وكان بولس قد هرع إلى أنيسة ومسك بيديها المرتجفتين، شاكرا لها استعطافها لأجله ولأجل اخوانه، ونيلها العفو عنهم، فرمقته أنيسة بعين ترقرقت فيها عبرة حاولت اخفاءها، وقالت له «لا حاجة للشكر فالله الذي ألهمني ذلك، فاطعتُه بدون اختيار مني، وهو الذي سهل لي الطريق، ورقق قلب الزعيم».

- «ما أحسنك يا أنيسة، وسبحان الذي جبلك على هذه الرفعة وهذا الشرف وكسى عينيك سحرا سطا على لب الملك، ونال منه كل صعب المنال، وعسير الطلب»

قطع عليهم الحديث دخول رجل طويل القامة، طاعن بالسن، فتوجه نحو أنيسة وسألها «أأنت الآنسة دي برافي؟ - نعم - فأجابها، أنا طبيب دون ميشيل وقد أوفدني إليك كي اعتني بأمرك، بقدر ما في وسعي، فإنه مذعور قلق، من أن تكون المعاملة الوحشية التي عوملت بها قد أثرت في صحتك، وزادت في مرضك».

- أشكرك، يا سيد، فلا حاجة إلى كل هذا الالتفات إليّ....

- «وأنا أرى أنك الآن محمومة، وإن الحمى شديدة، ومد يده وقبض على معصم أنيسة يجس نبضها، فحق ما كنت أتوقع، فالحمى نافض خبيثة، فلا بد من معالجتها وقمعها بأسرع ما يمكن خوفا من استفحال شرها» ثم أشار عليها بأن تتبعه، فنهضت أنيسة بعد قليل من الارتياب والذعر، فعارضت ادما: «وأنا سأبقى وحدي؟».

- أي نعم، أجابها الطبيب، فلم أتلق أوامر في شأنك. - ولكن أنا لا أريد التخلي عن ابنة عمي، فخذنا معا فلا يحسن بي أن أتركها وحدها في مرضها، وأنا بمثابة أخت لها.. فأجابها الطبيب بحدة ونفور: «لا سبيل إلى ذلك ما لم تأت الأوامر من عَلُ...» ولما رأت أنيسة سائرة مستندة على ساعد الطبيب، قالت لها بغضب: «جميل منك أن تتركيني وحدي، يا عادمة الإحساس، ويا فاقدة الشعور، يليق بك أن تتركي قريبتك، يا جامدة القلب، فقد عودتني على مثل ذلك...» فلمح الطبيب دلائل، القلق على محيا أنيسة، فالتفت إلي ادما بلهجة المتهكم اللاذع:

«الأحرى بك أن تسري، يا آنسة، إذا كنت تحبينها، فإنها ذاهبة تستشفي وتسترجع قواها، ثم يلوح لي أن عشرتك ثقيلة لا يصبر عليها إلا... الملاك...» فأخرست ادما هذه الكلمات القاسية، وبقيت واجمة بعد أن خرج الطبيب وأنيسة، فقادها إلى مغارة، دفع بابها، فانفتح لها عن ممشى فسيح مغشى بالرمل الناعم، تلمع فيه عدة مصابيح كهربائية، ومروا إلى غرفة واسعة الارجاء مفروشة بأفخر البسط الشرقية الزاهية الألوان، ومنضدة فيها المقاعد الوتيرة والارائك البهية، تتدلى من سقفها الثريات تسكب نورا رائعا، راحة للعيون، فاستقبلتها

امـرأة هنديـة مكتنـزة العضـلات، لطيفـة باشـة مرحـة، فبادرهـا الطبيـب: «الونسـا، هـذه هـي الفتـاة التـي تيـل نفسـها إلى عنايتـك السـاهرة، فاعتنـي بهـا اعتنـاء بابنتـك، واظـن أن دون ميشـيل أوصـل إليـك أوامـره في هـذا الصـدد. - نعـم يـا سـيد! فـإن الزعيـم نـاداني منـذ حـين فسـأهتم بهـا جهـدي... مسـكينة هـذه الفتـاة الناعمـة... - أجـل يـا الونسـا، أنـا أعـرف أنـك ممـن يعتمـد عـلى غيرتهـم وانسـانيتهم... فأنـت الآن يـا أنيسـة أمـام أحسـن سـيدة في العـالم، فاجلـسي واسـتريحي، إلى أن تهـيء لـك السريـر، وأنـا سـآتيك عـن قريـب بحبـوب كينيـا... هـل لـك رغبـة فاعرضيهـا عـلي قبـل أن أذهـب، فـدون ميشـيل يتـذرع بـكل الوسـائل للتعويـض عـما ألحـق بـك مـن المهانـة فهـو طـوع رغائبـك.

- فتمتمـت أنيسـة أود أن أرى أخـي، وحملقـت في الطبيـب عينيهـا المريضتـين.

- أظـن أن دون ميشـيل افتكـر بالأمـر قبلنـا، فـإلى اللقـاء، فنامـي الآن واسـتريحي»

فتهالكـت أنيسـة عـلى سريرهـا وارتمـت عليـه، وبعـد دقائـق قليلـة رنـق النـوم في عينيهـا، وراحـت في غيبوبـة، مـا أفاقـت منهـا إلا عنـد دخـول موريـس الـذي ركـض إليهـا مـادا ذراعيـه، وصارخـا بلهفـة: «أختـي... أختي... كيـف أنـت؟ ومـاذا أصابـك؟ فانـت حمـراء وحـارة كالجمـرة. - لا تخـف، يـا حبيبـي، فالطبيـب أكـد لي أننـي سأشـفى فـلا تنزعـج. وبقربـك سـيسرع إليّ شـفائي. هـل أذنـوا لـك بالمكـوث عنـدي؟ موريـس، موريـس، اقـترب منـي... هـات يـدك يـا أخـي. - لقـد أذنـوا لي بذلـك، وقـد سـمعت دون ميشـيل

يأمـر أحـد خدمـه أن يهيـئ لي غرفـة بـإزاء غرفتـك، آه مـا ألطـف هـذا الزعيـم يـا أنيسـة، فتمتمـت أنيسـة وهـي تحـاول أن تنـام «مـا ألطـف هـذا الزعيـم... أي نعـم لطيـف، وويـل للقلـب مـن سـحر لطفـه!...»

الفصل الثَّاني

المحاكمة

قضت أنيسة ليلتها، ترتعش من الحمى، وتهذي هذيانا متواصلا، كأنها تصاول أشباحا تهاجمها، وتردد بلجاجة اسمَيْ ادما وارمان! ودخل الطبيب عليها وهي على هذه الحالة، فسمعها تقول «ادما! ادما، قد جمدني البرد يا ابنة عمي، فأعطيني غطائي... أو اعطيني على الأقل طرفا منه، حتى أرد عني لسع البرد المرير... ادما، جمد الدم في عروقي، ادما، غطيني!...»

فسأل الطبيب موريس الواقف بالقرب من سرير أخته سادرا كئيبا «ما تقول؟» فقص له موريس ما قاسته أخته من جور ادما، وما تحملته من البرد والجوع، أثناء تلك الليلة التي قضياها معا.

- يا بئسها من خليقة سافلة، وحاولت أن تظهر لي بظهر الشفقة والحنان عندما أتيت بأختك، من تلك الغرفة إلى هذه... ولكني لم اغتر بمعلقها وخداعها، فويل لها من دون ميشيل عندما سيسمع هذا الخبر...»

فترت الحمى عند الصباح وانفتأ أوارها، وعاد إلى أنيسة شعورها، فعرفت موريس وابتسمت له، وبعد الظهر تماثلت، وحسنت حالتها، والونسا ما فتئت تشبل عليها اشبال الأم الرؤوم، فتوفر لها أسباب الرَفه والهناء حتى تسلو آلامها، فأمر لها الطبيب، عند المساء ببرتقالة، فأتتها الونسا بواحدة ضخمة في صحن من بلور موشى، يزخرفه طوق من الذهب المطروق.

وبعد ليلة هادئة قضتها أنيسة براحة، قامت صباحا، معافاة صحيحة، وابلت من مرضها تماما إلا أن الطبيب أمرها بالاستجمام، وقضت أنيسة نهارها مع موريس بسرور وهناء ما بين الألعاب الهادئة اللذيذة، والتمتع بمناظر المدينة الخلابة، المنبسطة أمامها، بيد أن سرور أنيسة لم يكن كاملا، إذ من وقت إلى آخر كانت تثور في فكرها، سؤالات جمة لا تستطيع الرد عليها «ما عاقبة أمر القافلة؟ وماذا سيعمل دون ميشيل بهؤلاء المعتقلين؟ وما هي الأسباب التي حملت دون ميشيل على معاملتها وأخاها هذه المعاملة الودود اللطيفة دون رفاقها...؟» فكانت تسكت تحت انفعال هذه الأفكار، بينما موريس ما يزال متدفقا في حديثه، يصف لها ما شاهده ورآه في المدينة، إلا أن أنيسة كانت تضرب عن حديث موريس كشخا لا تأبه له، وتحاول أن تكسر من عجبه مما رأى وعاين إلا أنها مع حرصها على عدم اظهار عواطفها، لم تكن لترتاب من أن الزعيم، دون ميشيل، هو ذلك الرجل الذي جمعتها به الظروف، وتبادلت وإياه لحظات لم تمحها الأيام، وكيف تنسى تلك التقاسيم الزاهية، وتلك الطلعة البهية؟... رأته... رأته، هوا هو بنفسه... ألعله رنَف بها وعاملها هذه المعاملة، مكافأة لها على بسماتها ونظراتها؟ ولكن كيف ذلك، وهو الآن رئيس عصابة؟... فقاطعها موريس «مالك ساهية، يا أنيسة؟ أأنت دائما مزعوجة موعوكة الا اطمئني بالا، فأنا ضمين لك بأن دون ميشيل سيطلق سراحنا، وسيردنا إلى الحرية.... - الحرية... أي نعم، إذا ما دفعنا له فدية، وأنّى أنا فدية؟ فإنه يظننا أغنياء، ولا أخاله يظهر البشاشة واللطف، إلا على ظن منه أننا أصحاب ثروة واسعة...». وما أنهت هذه الألفاظ إلا وقد دخل الطبيب «كيف

الآنسة الآن؟ فأنا أرى وجهك متوردا، والصحة ترجع إليك، فعن قريب سآذن لك بنزهة صغيرة تستنشقين هواءنا النبي المنعش، والآن قد أرسلني دون ميشيل لأسألكما هل لكما رغبة في حضور جلسة استجواب المعتقلين، الذين استحضرهم إلى ديوانه؟ وإذا كنت ترغبين في الحضور، وتشعرين الآن أنك تعبة، فسيؤجلها إلى وقت آخر. - كلا بل اذهب الآن، أنا قوية ولا أحس بوجع...»

فمسك الطبيب بيدها ضاحكا بلطف وحنان «ما لي أرى القلق باديا على ملامحك، والهواجس مرسومة في مقلتيك؟ فلا خوف عليك وعلى أخيك، وإن دون ميشيل لا يعدكما محبوسين عنده، إنما يحسبكما ضيفين أَمَتُما دياره، وهو يكرم مثواكما، فسيوفر لكما وسائل الرفاهية والرغد». فسألته أنيسة « ولكن لم يا دون سانشو، يختصنا هكذا دون البقية؟» فأجابها مبتسما: «هذا لا يعنيني، وليس لي أن أسأل الزعيم عن غاياته وأفعاله، وليس من عاداته أن يطلع احدا على نياته وأسراره.

فضاق صدر أنيسة وساورتها الهواجس من جديد بشدة أكبر، متسائلة عما سيعلنه لها المستقبل الزاخر بالأسرار، والمفاجآت، فسارت أنيسة ومو يس، إلى خيمة الزعيم، فدخلت في غرفة منحوتة جزئيا في الصخر، ومقدمها بناء سامك تسنده أعمدة رخامية بديعة الهندسة، تذهب مترامية في الجو العالي والأرض تؤج لمعانا من شذرات التبر المنثورة ما بين ذرات الرمل الدقيق، تحت الأنوار الكهربائية الناعمة، والجدران مخفية وراء السجادات الثمينة المسدلة وعلى جوانبها قد مدت الأرائك البديعة والبط الفخيمة، وعلى المناضد الزاهية، نصبت أصايص حالية

وزهريات أنيقة، تلوح فيها زهور عطرة تعبق الأرجاء بعبيرها الذكي الساطع، ومن هنا وهناك تتدلى معلقة على الحيطان اسلحة قديمة، ناهية الصنعة والاتقان، وقد رصعت في مضاربها عروق اللؤلؤ، فتشع تحت أشعة الشمس مهروزة الأنوار مكسورة الأضواء، فيتألف من كل هذا منظر خاطف، ومشهد فاتن وقف إزاءه موريس ذاهلا مبهوتا فلم يجرؤ على الدخول، فرآه رجل جالس أمام طاولة كدست عليها كتب كثيرة، متقنة التجليد، فقام وتوجه نحوهما، فإذا به دون ميشيل مخاطبهما بصوت عذب مفتان «ها قد عوفيتِ أيتها الانسة... وانحنى بها مسلما، متابعا حديثه، لا يمكنني أن أصف لك عظم كدري لاعتلالك، كما ليس في وسعي أن أصف لك عظم سروري لإبلالك...

- «أجل لقد اعتنى بي دون سانشو اعتناء جميلا، لا أنساه، وأشكره له من صميم فؤادي» إلا أن أنيسة كانت تتكلم كالحالمة، وكمن تصاول رؤى، فلم تستطع أن تفرز الحقيقة من الخيال... ما هذه الردهة الفخيمة، ومن هو هذا الشاب الغطريف، الذي ينحني أمامها باحترام ووقار، وأين هي الآن؟ أفي شوارع باريس، أم هي في جبال الاند، بين يدي رئيس عصابة...؟ فنبهها الصوت الحالي «هيا أدخلي يا آنسة، وأنت يا سيد دي برافي...» فلحقا به نحو اريكة فاخرة من الديباج الأحمر، فارتمت فيه أنيسة وغاصت، والزعيم واقف أمامها «ما خطر قط على بالك أن تلاقي هنا في هذه الأقطار الموحشة رجلا صادفك في باريس وتحدّث إليك....

- فأنت إذا، هو ذاك الشاب... - أي نعم أنا بذاتي، ميشيل مارسيل، دون ميشيل في الجمهوريات الأميركية، ملك الاند في أعين رجالي، والزعيم لكل اخوان العدل، أما كيف أنا كل هذا في الوقت نفسه، فسأوضح لك ما غمض عليك وسأجلو عن ذهنك كل مبهم خفي، فأنا أرغب جدا في ألا تحسبيني زعيمة شرسة العصابة شذاذ وقطاع طرق، وأنا أعرف أن هذه الفكرة استولت على ذهنك.... - فالظواهر كلها تدلي علي بهذا الزعم وتنطق به، فتبسم دون ميشيل، - تعجبني صراحتك، ولكن علي أن أنزع منك هذه الأفكار، وعما قليل ستسمعين استنطاق أهلك الكرام، وسترين من اللئيم منا هم أم أنا.....

- ماذا تعني؟ - أعني أنك ستسمعين وتحكمين، فالأفعال تنطق على أصحابها ولكن منذ الآن أحب أن تقري بالا، وتهدئي روعك فلا خوف عليك وعلى أخيك، فإني سأخرجك من هذه الجبال، وسأرجعك إلى فرنسا، بشرط أن تقسمي لي أنت وموريس بأن لا تبوحا ما تكونان سمعتماه وعاينتماه ههنا...

- والباقون، ما مصيرهم؟ - فتقطب حاجبا الزعيم، وأجابها بخشونة مصطنعة، «لا شأن لك معهم، ولا تهتمي بأمرهم، فقد حم القضاء، وصدر الحكم عليهم». فارتعشت «لا أظنك قاتلهم يا دون ميشيل» فازداد تجهم وجهه وأردف بجفاء «ليس من عادتي أن أؤدي حسابا على ما يروق لي أن اعمل، فالحكم حكمي.. وها أنا أناقض عوائدي، بإطلاق سراحكما، إذ ما من أحد دخل مدينتنا وخرج منها سالما، فلا تلحي علي بالسؤالات، أيتها الانسة» ثم انحنى وحياها، وذهب إلى

محله، فاستوى أمام منضدته على كرسي موشى بالحرير، وضغط على زر كهربائي تبعه طنين خفيف، فظهر للفور رجل قصير القامة أصلع، تنم تقاسيمه على ذكاء متقد «أدخل المحبوسين يا شوفار....»

ووضع الزعيم مسدسا على الطاولة، ثم تناول سيجارة وأشعلها وهو يرمق أنيسة بطرف خفي ليختلس حركاتها، ويرى الكآبة التي علت ملامحها من جراء كلماته الأخيرة، ولم يكن إلا القليل حتى دخل شوفار يتبعه اندريا وولداه وشارل والرفاق الآخرون فتقدموا أمام دون ميشيل الجالس مصوبا إليهم نظرات الاشمئزاز والاستهزاء فلمح بولس أنيسة فصرخ: «أنيسة، وموريس....» فأسكته صوت الزعيم: «اخرس، لا أحد يتكلم هنا إلا عند ما يسأل، فلسنا ههنا في مجلس الشورى الفرنسي!...» ثم التفت إلى شوفار: «ابدأ الآن...» فوقف شوفار بإزاء الزعيم وابتدأ الاستنطاق:

- يا سيد اندريا، قل لهذا السبب الحقيقي، الذي قادك إلى هذه الأصقاع... فاعتدل اندريا، وشمخ برأسه وقوص صدره «قد سبق وقلت لكم، إني موفد من قبل الحكومة الفرنسية لدرس معادن وطبقات جمال الكوردليار» - أجل، أجل، هذا هو الطلاء الخارجي لهذه الرحلة، أما الأسباب الحقة لم تقر بها، - ليس لدي من الأسباب غير ما قدمت.
- ونحن ليس في وسعنا تصديقك، لأنك لم تقل كل الحقيقة. - عجب، كأنكم أدرى بأفكاري، فإذا كنتم ترون السبب الحقيقي الذي لا أراه، فأعطونا... - سأساعدك على أن تتذكره إذا كنت ناسيه: أنك وجدت في أوراق السيد فالار، جد هذين القاصرين، الموكولة إليك اعالتهما، وثيقة

تطلعه على وجود منجم من الذهب، في إحدى زوايا الكوردليار... وأنت...» فقطع اندريا: «افك، وكذب... ما هذا إلا فرط اختراع وتلفيق ...»

- صه!.. لا تقاطعني ثانية، فأتابع شرح الحال، فإنك ترأفت إلى أصحابك رجال الحكومة، وماذَقْتَهم لكي يسندوا إليك قيادة هذه الرحلة العامية، حتى تتمكن من الوصول إلى هذا المنجم، عن طريق التستر والخفية، وقد خامرك خوف شديد من أن يبطش بك وبأتباعك ملك الاند، فوكلت إلى لارا أن يجمع لك رجالا أقوياء بطاشين يسندون ضعفك ويتحملون عنك مضض المحاربة والدفاع إذا ما أغار عليكم هؤلاء «الأوباش» كما كنت تدعو ملك الاند ورجاله، وسافرت مسترفقا ذينك القاصرين، حتى يتسنى لك أن تخدع الآنسة دي ساكس فتقترن بابنك ارمان، وأنك مع ولديك، قد عزمتُم على اهلاك موريس، أثناء الطريق، حتى يكون المال خالصا لكم بدون مقاسمة ولا اشتراك، وكل هذا طبعا بحسب مبادئك الاشتراكية، التي تدين بها...» وتوقف شوفار قليلا، منعما النظر في ملامح المندوب.. حتى يرى الانفعال البادي عليها، فوجم اندريا مكفهر الوجه، كأنه مخبول، فانبرى ارمان: «يا للفظاعة، ترموننا بهذه التهم الشنيعة ظلما، فهذه أراجيف لم تدر لنا قط ببال». فزأره دون ميشيل زأرة دبت الرعب في قلبه وربطت لسانه، فتابع شوفار إذ ذاك: «كان في نيتك أن تتخلص من القاصرين الموكولين إلى عنايتك، وقد حاول ذلك ابنك مرتين، أولا بينما كنتم ترتقون عقبة النسر، وثانيا لما حاول اغراءه بالولوج في مغارة باردة، بينما هو يتصبب عرقا، ويتلظى حرارة...» وسُمعت دمدمة وهمس، لم يتوضحا خوفا من نظرات الزعيم

الفاتكة، واعتلى وجه أنيسة شحوب أقرب إلى شحوب الموت، وكانت تنظر إلى أهلها بطرف مكسور حزين، ودون ميشيل ينظر إليها بعطف وحنان، فالتفت شوفار: «أتقر بهذا يا ارمان؟ - كلا، وألف كلا، فكيف يخطر على بالي أن أهلك ابن عمي الذي أحبه حب الأخ؟ - لا حاجة لنا في هذا الموقف، إلى جمل التملق والخُبث، ثم إن عندنا شهودا على محاولتك قتله: ما ظنك بارمان، يا بولس؟ فأجاب بولس: «إذا أردت الحقيقة، فقد ظننت في ارمان ما تنسبه إليه. - وأنت يا بيترو، ماذا تقول؟ -: وأنا أقول مثل ذلك».

فضاق ارمان صدره، وصرخ بعربدة وحنق: «بيترو، بيترو خائن... فلطمه شوفار لطمة أغلقت فاه، وللحال انقضّ عليه رجلان جراه خارجا وهو يتخبط صارخا، فانحنى دون ميشيل نحو منفضة كانت بجانبه، ونفض دخان سيجارته وهو يقول: «لعل الباقين يعتبرون ويلبثون بسكوت آمن لهم». وتابع شوفار سرد المنكرات والفظائع التي تذرع بها آل اندريا، للإتيان بهم إلى هذه الأصقاع، فلم تخف عليه خافية، فإن شوفار فضح كل نياتهم وكشف كل أسرارهم، كأنه مشارك لهم في هذه الرحلة ومطلع على كل مقاصدها، لا بل شهر حتى الكلمات التي تهامسوها همسا في خلواتهم، كأنه التقطها من أفواههم. فارتج على اندريا وانعقد لسانه، فلم يقدر أن يتبرأ مما قذفوه به، فبقي صامتا مطرقا كالمذهوب به، وكان الرفاق يسمعون وأصحابه يتغامزون عليه مستخفين، لأنه أصبح في أعينهم أحقر من قلامة، لأنه أخذهم بهذه الخدمة التي لم يكونوا ليظنوها، وشارل وقف فاتحا فاه كالمجنون، ذاهلا دهشا، كأنه لا يصدق ما يقرع أذنه من الأخبار العجيبة، لأنه

لم يكن فطن قط أن اندريا على هذه الدناءة والنذالة. أما ادما، فلما رأت أن قد افتضح أمرهم وما ثمَّت سبيل إلى الإنكار، قلبت لأبيها ظهر المجن، وأنحت عليه باللوم والسباب لأنه كان سبب عثرتهم، كأنها لم تكن مطلعة على سرائره، ولم تشاركه في مقاصده، وأنها أرغمت على الإتيان معهم لأنه يستحيل على فتاة نظيرها أن تبقى في المدينة الكبيرة بدون عائل...

فلم يعر شوفار أذنا صاغية لثرثرة ادما ووقاحتها، فقال لاندريا: «أقرّ واعترف، يا اندريا». - بل أنتم تفترون علينا، فكل ما قلته كذب وبهتان، وأنا منه براء». فأسكته بحركة جافة: «حسن! حسن! قد كفانا ما لدينا من الشواهد. - وأنت الآن يا ادما، فقد اشتركت مع أبيك وأخيك في كل ما تقدم ذكره، ولك يد في تلك المؤامرة الفظيعة على حياة ابني عمك». - فأجابت ادما مستاءة متبرمة: «إنكم تظنون في سوءا وأنا بريئة من كل مظان الشر والسوء! أحب ابني عمي حبا جما، وإذا ما صح أن هنالك مؤامرة، فهي صنع أي وحده، لأنه جاف القلب مستبد.. فاني لم أكن أدري في أبي هذه الجرأة على ارتكاب المآثم الفظيعة التي يستنكرها العقل السليم، بل أنا عازمة منذ الآن ألا أعايشه البتة إذ هو على هذه الزنامة!» فصوب إليها دون ميشيل نظرا حادا: «لله هذه الوقاحة التي تتدفق من هاتين الشفتين اللئيمتين».

وأردف شوفار: «أتريدين أيتها الآنسة أن أردد لك نفس الكلمات التي هت ها أنت ولم يقُلها أبوك؟ ثم قصّ على الواقفين مبهوتين مذهولين مما يرون ويسمعون، فعائلَ ادما الشنعاء وأقوالها البذيئة، ثم أتى على

ذكـر مـا ألحقتـه بأنيسـة مـن الجـور والعسـف، وكيـف خطفـت غطاءهـا وتركتهـا عرضـة للـبرد فـأدى ذلـك إلى دُبـوب المـرض فيهـا، وكيـف اختلسـت أكلهـا وتركتهـا عـلى الطـوى تتضـور جوعـا. ثـم قـال: «ولأجـل ذلـك أمـر الزعيـم أن تنـزع عنـك أغطيتـك هـذه الليلـة حتـى تختـبري بنفسـك مـا قاسـته أنيسـة مـن جـراء ظلمـك، ولأجـل هـذا أيضـا منعـوا عنـك الأكل صباحـا، حتـى تذوقـي مـا أذقتـه لابنـة عمـك». فهفـا فـؤاد ادمـا هلعـا، وامتقـع لونهـا، فـأدارت نحـو أنيسـة عيـون حمـراء، وقالـت: «لقـد عرفتـك يـا كذابـة، أفّاكـة، فأنـت اخـترت عـلى كل هـذه الأراجيـف، حتـى ترمينـي في الهـلاك، لأنـك تحسـديني...»

فبرقـت في عينـي دون ميشـيل بارقـة غضـب واحتـدام، ورماهـا بلهجـة قاطعـة: «إنيّ لا اتحمـل قـط أن تقلقـي الآنسـة دي سـاكس، أو تشـددي معهـا الـكلام، فضـلا عـن أنـه ليسـت هـي التـي أخبرتنـي بظلمـك، فنفسـها الأبيـة منعتهـا مـن أن تفضـح دناءاتـك وأنانيتـك... فوجمـت ادمـا تحـت لمعـان هـذه النظـرات الفتاكـة، واسـتطار لبهـا، وتسـاقطت نفسـها، فركنـت إلى السـكون والسـكوت، فـزاد دون ميشـيل: «عليـك يـا شـوفار أن تسـتخدم هـذه الآنسـة الجافـة القلـب في الأشـغال الشـاقة في البسـاتين والحدائـق، فإنهـا لم تشـفق قـط عـلى أحـد». فأظهـرت ادمـا اسـتياءها: «أنـا اشـتغل في الأرض؟ أبـدا! أبـدا! هـذا ليـس مـن دأبي... - أتجمحـين وتسـتعصين؟ فكـم قـد روضـت جموحـا مـن قبلـك، وكـم قـد أسلسـت كل صعـب المـراس نافـر، فسـتذلين أنـت أيضـا، إن لم يكـن باختيـارك، فرغـما وكرهـا. إنـك تتبجحـين باشـتراكيتك، فعليـك أن تشـاركي المـال الذيـن وقفـت نفسـك مدافعـة عنهـم، في أشـغالهم». وكأن أدمـا قـد طرقـت فلـم تعـد تعـي مـا يقـال حواليهـا، لأن

فكرة اعتقالها امسكت عليها كل مشاعر قلبها، فخانتها رجلاها، وارتمت على الحضيض ضامة يديها، وصارخة: «رحمة... رحمة... اشفق على شبابي... - إليك عني بهذه المرأة، يا شوفار فقد طالت بنا المهزلة، فاسلكها حالا في الاشغال، فعلها تهدأ وتستكين»

ولما خرجوا بأدما، استطير قلب اندريا ذعرا وجزعا، ووجب قلب شارل ورفقائه متوقعين لهم شر القصاص، فأمر بهم دون ميشيل نظره مدققة في الملامح ليستطلع ما يجول في الخواطر.

ثم استدعى شارل وقال: «ألم يكن لك علم، يا شارل، بما تستر وراء هذه الرحلة العلمية، التي تكبدت في سبيلها هذه المشاق الجزيلة؟ - كلا يا سيد، ولم أكن أظن قط سوءا في نيات اندريا، ولم أدرِ بمطامعه الجشعة، إنما انخرطت معهم بقصد الدرس والتنقيب. - أعرف أنك سليم النية، طيب القلب، وكذلك ادمون بولس، فهو بريء من كل خبث ورياء، لا بل هو شريف المحتد، مع مبادئه الاشتراكية الفاحشة، وفضلا عن هذا فقد أديتما للآنسة دي ساكس وأخيها خدمات طبية تشكران عليها، فإنك يا بولس قد خلصت موريس مرتين، من الموابق التي دبرها له ارمان. أنه لا يمكنني أن أطلق سراحكما، وأرد لكما كامل الحرية، فلم يخرج قط محبوس من سالبيتو، إلا إني امتعكما هنا بما تريدان وتودان وسأوفر لكما كل أسباب الراحة والهناء، فاختارا لكما أي الاشغال تودان بدون قسر ولا إرغام، فتلهوا بها. بل إني أعفي شارل من كل شغل حتى يتعاطى دروسه بكل روية واطمئنان. أما أنت يا بولس فانتقِ لك شغلا تتسلى به، كما تشاء لأن الإنسان يملّ الحياة، والحياة

تملّـه...» فأجـاب بولـس: «أشـكر لـك فضلـك، وأنـا أعتقـد كـما تقـول أن الإنسـان الكسـلان عالـة، فسأشـتغل، ولكـن صعـب عـلي أن أبقـى ههنـا إلى مـدى العمـر. - كلا يـا بولـس، بـل سـتعتاد البقـاء، وسـتألف العيشـة، وأنـا ضمـين لـك بأنـك سـتجد سـعادتك، ولـن تعـود إليـك رغبـة في الخـروج مـن مدينتنـا. أنـا أطلـب منـك طاعـة عميـاء، وحـذار أن يغريـك حبـك للحريـة بالهـرب، فآنئـذ سأقسـو عليـك، وأحرمـك مـا وهبتـك».

فتمتم بولس بين أسـنانه: «ليسـت هينة، المعاملة مع هذا الزعيم!...»

ثـم تقـدم الآخـرون، واجفـين مرعوبـين، وفضـح شـوفار ماضيهـم جميعـا، فعلمـوا أن سـيمون سرق كاهنـا كان قـد رباه، وأن فكتـور قـد اغتـال امرأتـه وهـي شـابة في السـابعة عـشرة مـن عمرهـا، وإن تومـاس قـد قتـل واحـدة، وأن الحكومـة لم تعـثر لـه عـلى أثـر... فوجـف الثلاثـة، كأن صاعقـة انقضـت عليهـم، ثـم التفـت إلى اندريـا وقـال: «نعـم الانتخـاب انتخابـك، يـا فخامـة المنـدوب، فـإن رجالـك أكفـاء لـك، فـلا مراتـب بينكـم، إذ كلكـم في اللئامـة سـواء، فلـذا سـتموتون معـا غـير حاقديـن بعضكـم عـلى بعـض». فـصرخ اندريـا بصـوت مخنـوق، ورجـلاه ترتجفـان متخاذلتـين: «نمـوت؟ نمـوت؟ يـا وغـدا، يـا لئيـما، أهكـذا تعامـل مندوبـا فرنسـيا» فقهقـه دون ميشـيل هازئـا: «منـدوب فرنـسي! إن صفتـك مندوبـا حملتنـي عـلى أن أقسـو عليـك بالقصـاص، لأني اربـأ بمنـدوبي فرنسـا أن يكونـوا نظـيرك... هنـا، يـا سـيد اندريـا، أن تجـد قضـاة يدعـون ضمائرهـم بالرشـوة، ولا العـدل ببـدر المـال، كـما فعلـت أنـت قدمـا، فانـا زعيـم اخـوان العـدل أحكـم عليـك بالإعـدام، لأني بإعدامـك سـأقلع مـن الأرض إحـدى جراثيـم الظلـم، ثـم أحكـم عليـك

لأنـك تواطـأت عـلى قتـل الـبريء، إذ لم تـردع ابنـك عـن ذلـك... فجرائمـك كثـيرة متنوعـة، فـلا يجـوز أن تدنـس الأرض مـن بعـد...

فجرض اندريـا بريقه، وتلهف... «اخوان العدل... العدل...

- أي نعـم أنـت الآن بـين أيديهـم، وإنـك لتختـبر الآن صحـة مـا رووه لـك عنهـم، وذهبـك الـذي أتيـت في طلبـه، هـو بـين يـدي، وقـد مـرّ عـلي سـنون وأنـا اغـترف منـه، فالمنجـم هـذا قـد تركـه لي جـدي، فهـو مـالي... ولكـن لا حاجـة إلى الـشرح الطويـل». ودوت للحـال صفـارة، فدخـل الغرفـة رجـال، قـادوا المحابيـس، مـا عـدا شـارل وبولـس فانهـما خرجـا طليقـين...

فقـال بولـس لرفيقـه: «كأننـا نعيـش في عـالم الخرافـات، وأسـاطير الأولـين أو مثـل مهزلـة لم تكـن في الحسـبان، يـا سـوء طالعنـا، أنـا الـذي لم أكـن أعـرف ريـا ولا سـيدة سـأعيش العمـر تحـت سـلطة زعيـم مسـتبد يتحكـم فينـا كيـف شـاء هـواه». أمـا شـارلي فمـد يـده عـلى جبهتـه يمسـح العـرق المترشـح، وتنهـد: «عـلى الأقـل سـتخلى للـدرس، فهـذا مـا يعزينـي عـن فرقـة أختـي وأولاد أخـي، غـير إني لا أخـال دون ميشـيل يحولنـي عـن مكاتبتهـم أحيانـا، فالزعيـم سـاحر حقـا يـا بولـس. - أجـل لا أظنـه يبخـل عليـك هـذا الإذن... أنـا أحـسّ بحـسرة أن أرى الرفـاق في هـذا الضيـق، وإن كانـوا لا يسـوون فلسـا... أمـا الزعيـم فقـد وقـع في قلبـي حبـه... فهـو فتنـة مـن بدائـع الدهـر... إذا مـا عـزت الفـتن...»

الفصل الثَّالث

أنيسة والزَّعيم

وبعد خروج المعتقلين، نهض دون ميشيل وتوجه إلى أنيسة وموريس، الجالسين لا يبديان حراكا، من شدة ما اعتراها من الذهول والدهشة لما رأيا وعاينا وسمعا، فشمل أنيسة بنظرة عطف عميق، وقال: «إنك تأثرت مما سمعت أيتها الآنسة، فأنا أحببت أن أطلعك على دناءة هؤلاء الأهل الذين غشوك ورموك في المهالك. - فظيعة هذه الأعمال ولم أكن أتصور قط مثل هذه الدناءة على وجه البسيطة! - فاسألي بولس فهو رأى وتحقق بأم عينه». فرمت أنيسة ذراعيها على عنق موريس: «حبيبي موريس، أين كنت الآن لولا هذا الشهم بولس؟» فمال موريس على أخته وقبلها قبلة طويلة وقلبه يخفق خفقان الملهوف، وقطرات الدمع تندرج على خديه، والزعيم ينظر إليهما بتأثر شديد...» كل شيء قد مضى، والله قد خلصنا من حبائلهم، وهكذا تكشف ارمان عن مكر وخداع. لقد كان يراوغني، ويتودد إليّ كثير، وذلك لكي يردينني ويهلكني... أشكرك يا إلهي الذي خلصتني».

وأردف دون ميشيل: «نذل لئيم... ومع كل هذا كان يصبو دائما إلى يوم اقترانه بك....

فرفعت أنيسة نحوه عينيها السوداوين، وقد لمع فيها الانذهال: «وكيف تعرف كل شيء يا سيد؟»

فافترَّ لها دون ميشيل: «اخوان العدل في كل مكان، وأنا الزعيم الأكبر لهذه الجمعية، فكل الأمور تصل إليّ، وسأطلعك يوما على سر هذه

الجمعية، وأما الآن وأنت في حاجة إلى الراحة بعد هذه الهزات العنيفة التي أثرت في أعصابك، وأتعبتك.

-هل تأذن لي بسؤال؟ - سلي ما تشائين. - قد سمعتك منذ حين تقول أن المنجم مالك، فكيف يا ترى وصلت هذه الوثيقة التي سببت لنا كل هذه القلاقل، إلى يدي جدي - إن اناطول دي بارا قد اختلسها». فتورد خدا أنيسة خجلا. واختلجت شفتاها ورف في مقلتيها قلق وبلبال. «لا تضطربي يا آنسة، لهذا الأمر، فإن اناطول دي بارا قد ندم على فعلته هذه، فإذا لم يقدم على احتلال المنجم والتسلط عليه. - ولكن كان عليه أن يرد الوثيقة إلى أصحابها، وألا يحتفظ بها. - لم يمهله الأجل، ولا غبار عليه في هذا. - إن والدنا قد أوصانا في ذيل سطره بخط يده في مؤخر الوثيقة، ألا ندخل على هذا المال، لأن نفسه أبت عليه أن نأكل ما لا يخصنا... ونحن لم ندر بهذه الوثيقة إلا في منتصف رحلتنا... - أي نعم، فأنا أعرف كل هذا، وأعرف أن السيد فالار كان العدل بالذات مثل والدك، أيضا، فاختلاس الوثيقة كان فلتة من فلتات الطبع الغرور الذي يبهره أبدا بريق الذهب ولآلئ المال، إلا أنه ما عتم أن ندم على ما جنت يداه، والمال بقي لأصحابه سلالة البربون».

قال موريس، وعيناه لا تفارقان ذلك الوجه الجميل: «فأنت إذن هندي!

- نعم ولا، فجدي (أبو الوالد)، الكونت روبير مارسيل، قد ذهب ضحية مؤامرة شنعاء سلبته كل ماله وألصقته بالحضيض، فالتجأ إلى الشيلي وهناك. تعرف بجامسا، آخر سليل البربون، وكان له ابنة وحيدة، لها من أدبها ما لا يقل عن جمالها فأحبها، وتزوج منها، فاطلعه

الشيخ إذ ذاك على هذا الكنز المدفون، فذهب إليه جدي واكتشفه بعد عناء شديد، واجتلب معه من الدراهم ما كفاه لابتناء مزرعة كبيرة، فأخصبت له أرضه، حتى أصبح بعدد قليل من أكبر المزارعين، إن لم أقل أكبرهم، إلا أن فكرا لاحقه وهو فكر الظلم الذي قاسى عواقبه المرة القاسية فحفر في قلبه جرحا لم يندمل مع مرور الزمان، فلما شب ابنه وترعرع أطلعه على ذلك الجور طالبا منه المساعدة الاقتصاص من أعدائه، فأسسا جمعية سرية ما لبثت أن انتشرت في كل أنحاء المعمور، وهدفها الأكبر ظلف الجور، وقع الظلم، وإصلاح ما اعوج من أخلاق الناس، لتردع الطغاة الباغين عن بغيهم، ولتنصف الفقير والضعيف من الغني المتبختر، وتنصر المظلوم على الظالم، وقد حبا الله والدي نفسا نشيطة لا تصبر على الضيم، ولا تستريح لرؤية الأذى، بل يستخفها عمل الخير، ويطربها الجمال أينما لاح، فسخرته هذه الفكرة وأخذ من فوره في العمل على توطيد دعائم هذه الجمعية، فربط أتباعه بقسم هائل، فانبثوا في العالم يدعون للانضمام إليهم كل من رأوه مظلوما مقهورا، فكثر جيشهم، وأبى يبذل لهم الأموال عن يد سخية، والمنجم هذا يضمن له سد ثلمة هذا التبذير، فالذهب كثير وهو بعيد عن أن ينضب معينه!، فوطد بينه وبينهم علاقات الثقة والتواد، ثم تزوج من فتاة شيلية يتيمة كان أنقذها من ظلم وجور وصيها، بعد أن فتك به إخوان العدل، وتوفى الله والدتي يوم فتحت عيني على نور هذا العالم، وأبي أحنى علي، وتعهد تهذيبي بكل ما أوتي من قوة ونشاط، وهو الذي جهز هذا المعسكر وبنى هذه المدينة لكي تكون موئلا للقيادة العامة، ولكي يحافظ على

منجم الذهب، معين غنانا وثروتنا، وما كدت أدرج نحو الثامنة عشرة حتى شعر أبي بدنو الأجل لأن مرض عضالا كان ينخره، فقدمني إلى رجاله خلفا له فاعترفوا بي عريفا عليهم واقسموا بين يدي القسم العظيم، وبعد سنتين قضى والدي...» هنا توقف دون ميشيل قليلا، وزفر زفرة حارة جللت وجهه بسحابة سوداء ما عتم أن انقشعت، وتابع الحديث قائلا: «ففي هذه الآونة كانت جمعيتنا ممتدة ليس في أوروبا وأميركا، وإنما تغلغلت في أقصى الجهات وأبعد الأصقاع، ومنذ ثماني سنين أقود زمامها وقد أصبحت قوة هائلة، وقعت رهبتها في القلوب، وليس في وسعي أن أعدد لك كم قمعنا من ظلم وكففنا من جور، ورجالنا منبثون في كل مكان، يتتبعون أعمال الظلم التي يرتكبها الناس من حيث لا يدرون بنا، ثم ننذرهم بأن يقلعوا عن غيهم، فإن أذعنوا لم نلحق بهم أذى، وإن أصروا وأبوا، فاذ ذاك ترغمهم على الكف والعدول عما كانوا عليه، فهاك مثلا يفهمك ما أقول: «إن خدم عمك اندريا هم من أعضاء جمعيتنا وهم الذين اعلمونا بكل تدابير المندوب، فغضب يوما عليهم فطردهم، ولكن الذين خلفوهم كانوا أيضا منا حتى الطاهية أيضا منا... وهكذا لم تخف علينا من شؤون رحلته خافية، وطول السفر كان يراقبهم واحد منا، وهو الذي دخل ليلة في غرفة اندريا ورمي على سريره المدية مربوطة بشعار الجمعية كما ترينه مرسوما على باب الخيمة، وهو الذي قتل كلب ادما، حتى يفهمها أن اخوان العدل ينالونها أينما كانت، ولا تعوقهم العوائق. فقال موريس: «بديع! فأنتم في كل مكان!...» فقاطعت أنيسة: «بل هذا تجسس شائن وفعال سوداء!...» ونهضت محولة أبصارها عن

الزعيم، خوفا من لحظاته الساحرة، الجذابة، وقد شعرت بأوتار قلبها تتحرك إلا أنها تجمدت وقالت: «يغمني أن أراك زعيم جمعية شذاذ دأبهم القتل والتجسس، والفتك بالناس...»! - ماذا تقولين: «أتسمين أعمالي شائنة، وترمينني بالتجسس؟» ومسك على معصمها وهزها بعنف مصطنع. فخارت أنيسة وارتمت على الكرسي فاقدة الشعور، مغشيا عليها ولما ثاب إليها حسها رأت موريس واقفا بازائها كئيبا حزينا، والونسا الخادمة تنشقها قنينة، وبالقرب منها جثا على الأرض دون ميشيل، ماسكا بيدها، وينظر إلى وجهها نظرات الاضطراب والقلق، فارتعشت لما شعرت بيده، واختطفت يدها من قبضته وأحالت عنه وجهها فاصفر لون دون ميشيل وقال لها: «أنا أستحق منك هذه المعاملة! فقط أرجو منك أن تعفي عني...

- أنا لا أبغضك يا دون ميشيل! واعترف إني اسأت إليك في صدق لهجتي وبفضولي إلى معرفة أسرار قلبك، فأنت مقتنع أنك تعمل كل شيء في سبيل الخير! - كلا! لم تسيئي إليّ يا أنيسة، أنما أنا لم أراع حرمتك، ولم أؤد لك الاحترام اللازم، فهي عادة الأمر قد قادتني إلى هذه القوة التي سببت لك هذا الفهم، فالعفو منك يا أنيسة، فهذا ما أرجوه.». فرمقته أنيسة، وأطالت فيه نظرها، كأنما تريد أن تثبت له اخلاصها، ثم حارت على شفتها الذابلة ابتسامة فاترة، وزادت فقالت: «أنا أسامحك يا دون ميشيل، بلساني! لأن قلبي لم يجد عليك ولم يحفظ لك قط كرها!... فابتسم لها دون ميشيل فانتعشت واستوت على الكرسي

مستندة على ذراع أخيها موريس فقال لها: «هل أنت أحسن يا أخية؟

- نعم، نعم، إني أشعر بالقوة دبت في عروقي، وسأذهب الآن بسهولة إلى غرفتي...»

الفصل الرَّابع

الرَّحمة والهوى

لما لاح الفجر، في اليوم الثاني، دخل الطبيب غرفة أنيسة، وأشار عليها بأن تخرج لاستنشاق الهواء النقي، فتتعش بعد ذبول، فنهضت من ساعتها وأخذت قبعتها المريضة الأطراف، فغاص فيها رأسها فظهر وجهها صغيرا ضئيلا، وتبعت الطبيب.

فتبدت لهم المدينة، جميلة أنيقة تحت أشعة الشمس الساكبة بكثرة، المتلاعبة بالألوان، المختلفة، فتمشوا في شوارع ساليتو الواسعة الظليلة، متملين من مناظر الجنائن الغناء المحدقة بالبيوت الصغيرة الانيقة، فاعترضهم رجال كثيرون في ذهاب وإياب، كأنهم منهمكون في أشغال لهم، ورأوا أيضا نساء كثيرات هنديات سائرات بخفة ومرح إلى حيث تدعوهن الحاجة. وبينما هم يتغلغلون بين الحدائق، لمحت أنيسة امرأة قد ناهزت الخمسين من عمرها، في أسمال رثة، تدفع عربة مثقلة سمادا، فلما قربت منهم رفعت نحو أنيسة عيونا غائرة مسترحمة، فرأت أنيسة فرع رأسها يتساقط مهملا حول وجه لم يتوصل جور الزمان أن يمحو عنه كل سمات الجمال السابق...

فقال الطبيب: «هذه امرأة نقسو عليها، لأنها كانت قاسية على الفقراء، وقد سلبت اليتامى القاصرين أموالهم لكي تشبع جشعها المفرط، فلذا حكم عليها دون ميشيل بهذه الاشغال». فتنهدت أنيسة: «فدون ميشيل بلا شفقة؟» والتفتت نحو المرأة فرأتها محدودبة الظهر مشوهة المحيا بعد ما كانت زاهية حالية في زمان السعد والحرية، وتابعوا طريقهم،

فظهـر لهـم مـن بعـد شـبح توقـف ازاءه موريـس يستكشـفه، ثـم قـال بلهجـة عجـلى: «أليـس هـذا السـيد دي جـود؟» وكان الشـبح القـادم قـد تنحـى في زاويـة حتـى يمـر المتنزهـون «أي نعـم، أنـا هـو فقـد عرفتنـي يـا موريـس. - أجـل عرفتـك منـذ أيـام أيضـا، فكيـف أنـت ههنـا؟ سـأقص ذاك عليـك فيـما بعـد، وليـس الآن وقـت الحديـث، إنمـا الدهـر قُلـب ولا يبقـى عـلى حـال... وأنـا أتيـت لأنـادي الطبيـب دون سانشـو، غـير إني أراه مشـغولا فقالـت أنيسـة. ولا حاجـة إلى ازعاجـك، يـا دون سانشـو، إذا مـا كانـت أعمالـك تقتضيـك إلى غـير المحـلات، فنشـكرك! وأذهـب إلى حيـث يدعـوك الواجـب». فتركهـا الطبيـب، وذهـب، فمسـك موريـس بيـد أختـه وأخـذ يتجـول بهـا خـلال الشـوارع لأنـه كان زارهـا مـرارا فاطلـع عـلى أنحائهـا، فمـرا أمـام سرادق الزعيـم، المرتكـز عـلى سـفح الجبـل، ثـم توغـلا في سـمت ضيـق يرتقـي صعـدا نحـو الجيـل فتبعـاه فـأدى بهـما إلى هضبـة قـد بسـقت فيهـا أشـجار مختلفـة، مغروسـة بهندسـة ونظـام، وقـد نـشرت هنـا وهنـاك ضمـم مـن الزهـور البديعـة، مصـورة عـلى أوراقهـا ألـوان قـوس القـزح بائتـلاف فائـق رائـع، ثـم لمحـا أزجـا مـن بلـور تقـود إليـه مراقـي منحوتـة في الصخـر، فتسـلقاها ووقفـا ذاهلـين أمـام الـورود المختلفـة الألـوان الشـائقة العـير، ومـا لبـث موريـس أن صرخ: د هـذه ادمـا، يـا أنيسـة!» وحقيقـة رأيـا أدمـا في ثيـاب رثـة متسـاقطة، اخراقـا قـذرة، دائبـة عـلى نكـش الأرض، تحـت عـين رقيـب أسـود، جالـس بمقربـة منهـا يدخـن غليونـه، فنسـيت أنيسـة كل مـا قاسـته مـن قسـاوة ابنـة عمهـا، فأسـبلت دموعهـا غطـاء عـلى المـاضي، وتألمـت لرؤيـة ادمـا في هـذه الحالـة ورقـت لهـا. «مسـكينة ادمـا!...» فشـعرت ادمـا بوجودهـما فصبـغ الغضـب

وجهها احمرارا، ورمت إلى أنيسة نظرة حاقدة: «أتأتين تهزئين مصابي، حتى في قعر جهنمي وجحيمي» ووقفت تحرق الارم وتصر بأسنانها احتداما. «كلا! يا ادما، لا تظني بي». فقاطعها الرقيب الأسود: عفوا يا سيدتي فالزعيم لا يأذن بمحادثة المعتقلين. - أنها ابنة عمي، وأنا أعرف أن الزعيم يأذن لي بذاك - أنا لا أدري، ولكن هاك دون اسطفان قادما فاسأليه. ولما رآها حثّ دون اسطفان خطاه واقترب منها، وبادرها قبل أن تحدثه: «نعم! يا أنيسة، يمكنك أن تكلمي أدما. ثم أمر الأسود أن ينعزل عنهم ويترك لهم المكان حرا خاليا. فابتعد الاسود، ودنت أنيسة من ادما، واوقفتها عن شغلها، فرفعت نحوها ادما وجها مشوها ذابلا، وحدتها بعينين غائرتين طافتين، تحيط بها دائرة سوداء قاتمة، فسألتها أنيسة: د مالك يا ادما؟ وماذا اعتراك - مالي وماذا اعتراني؟... فانت به أدرى، أقد تواترت علي الاوصاب، وقد دهاني زماني، وبليت بهذا الرجل في القلب الأصم، فيبهظني بالأتعاب، مع إني أتحمل في جسمي حريق الحمى الضني منذ تلك الليلة التي قضيتها أتململ على الأرض معرضة للسعات البرد القارس،... ثم أي شغل منهك ما أعمله! فانكش الأرض تحت حمارّة الشمس المخرقة، وعند انتهائي منه، اذهب لأغسل ثياب هذا الزعيم الفظيع، مع بعض البنات التاعسات أشباهي... فقد خارت قواي وعن قريب سيدنو أجلي، والموت أحلى لي من هذه الحياة الشقية البائسة. فشعرت أنيسة أن لهجتها صادقة هذه المرة، وأنه لا رياء وراء هذه الكلمات المتفجرة من قلبها الضائق فقالت: «لو كان بوسعي شيء لما تأخرت عن مساعدتك يا ادما، ولكن الزعيم قاس جاف، ولا يرق قلبه كأنه قُدّ من جلد، ثم لقد عاركته

قبلا فخاب أملي. - كفاك كبرا، كفاك، يا أنيسة دي ساكس، ولا تظني أن سحر عيونك سيأتيك بكل ما يشاء هواك، وأنا أضمن لك، بأن جمالك لن يغمز قناة قلب الزعيم، فهو ليس ممن تتصاباه الحسان، والا لكنت قنصته منذ أيام... قرب الله يوما تشاريكنني فيه اشغالي وأتعابي. - أهذا كل أملك يا ادما؟» ورنت إليها بطرف كسير حزين.

«أجل! لا أتمنى إلا أن تجمعنا الأيام لكي أريك مساوئ الحال... فأنا أعرفك الآن سعيدا طليقا، تمرحين ما شئت، وتنالين ما وددت، وأنا ههنا مقيدة متألمة، وهذا ما يزيد في إيلامي وتعذيبي». فصرخ موريس: «ما أسفلك خليقة، يا لئيمة، يا دنيئة، هذا جزاء مؤاساتنا، فإذا ما كانت هذه عواطفك، فهاك خبرا يفرج عنك... وهو أن دون ميشيل عن قريب سيرجع إلينا الحرية، ونعود إلى فرنسا غير آسفين على فراقك...
- إفك، وكذب، فلن تبرحا قط هذه الديار». ثم قهقهت ادما عاليا:

«كلا! لن يصير هذا، ما دام الزعيم متيما بأختك... فهنيئا لك يا أنيسة تاج ملك الاند!» فتأثرت أنيسة من هذه الفهاهات اللاذعة وأجابتها بحدة لا تخلو من مرارة: «إني أرى أن الحمى قد أفقدتك الرشد فلذا تهذين وتبذرين السخافات ترى.. فوداعا، يا ادما، إذ لا يليق بنا أن نسمع ما تنطقين به من القذارات». وابتعدت مع أخيها وما كفت ادما عن هذرها ومذرها...

وما تقدما قليلا حتى باغتها دون ميشيل وحيا أنيسة بابتسامة: «كيف حالك؟ عساك على أحسن ما يرام!- أي نعم، أشكر لك لطفك الذي غمرني، فأنا أستعيد نشاطي بسرعة، وإن هواء المدينة لأحسن

مـا يرتجـى لإرجـاع القـوى المفقـودة والصحـة الضائعـة.- بالحقيقـة، أن الأمـراض نـادرة هنـا. والتفـت إلى موريـس وقـال: «أراك غاضبـا مكتئبـا! أمـن السـخافات التـي وجهتهـا ادمـا إلى أختـك؟» فدهشـت أنيسـة وسـألته: «هـل سـمعت شـيئا؟ - كلا ألم أسـمع إنمـا عاينـت المشـهد مـن بعيـد وفهمـت كل شيء مـن حركاتهـا، إلا أنهـا سـتنال قصاصهـا. -» كيـف؟ وأنـا عازمـة عـلى اسـتعطافك في شـأنها، حتـى تخفـف عنهـا ثقـل الأشـغال، فإنهـا فتـاة ضعيفـة، ومريضـة». فتقطبـت أهـداب الزعيـم: «لأنـت يـا أنيسـة!، بلطفـك ورقـة قلبـك، تسـترحمين لمـن تبغضـك، وقـد جرعتـك مـر العذابـات والاهانـات!» فأطرقـت أنيسـة إلى الأرض ليـلا تلاقـي عيناهـا عينـي الزعيـم الثائرتـين وتمتمـت بخفـوت ورقـة: «أنـا مسـيحية، ودينـي يأمـرني بحـب الأعـداء، وبالإحسـان لمـن يـسيء إليّ». فأنفتـأ غضـب دون ميشـيل لهـذه الكلـمات وقـال: «ارفعـي إليّ نظـرك يـا أنيسـة، فانـا لسـت بغاضـب، إلا أن الانتقـام مـن مبـادئ، «جمعيـة اخـوان العـدل» وهـو ركـن مـن أركانهـا، وأنـا لسـت مسـيحية ممارسـة، أنـا احـترم اعتقـاد غـيري، فلـذا أنـا لا أجادلـك في أفـكارك بـل أجـل هـذه الشـهامة، التـي تنسـيك مسـاوئ غـيرك إليـك، فتسـتعطفين لمـن أسـاء إليـك وأعنتـك، وأنـا أرى أن العفـو صعـب أحيانـا، ونسـيان الـشر عسـير...

- نعـم أن الطبيعـة الآثـرة أحيانـا، إلا أن اللـذة التـي تعقـب المغفـرة والعفـو لتفـوق مراحـل لـذة الانتقـام، فـإذا مـا انتقمـت تـرضي الهـوى الأعمـى والطبيعـة السـافلة، ولكـن إذا عفـوت فـترضي الـشرف والاباء، فتشـبه الإلـه الـذي غفـر لمـن كانـوا يصلبونـه: «يـا أبـت اغفـر لهـم...» جـرب يـا سـيدي دون ميشـيل».

- فصمت دون ميشيل برهة متأملا ذاهلا: «أنا ليس لي أعداء شخصيون، فمنذ نشأتي لم أزل موضوع الاجلال والاحترام، ولم يزور عني قط أحد ممن قربتهم إلى نفسي وما خانني قط صديق، وأنا الآن لا أعمل لإعلاء شأني ولكسب الأموال، فلدي من الأموال ما يكفيني إلى ما أشاء، وأنا هدفي الأوحد هو الانتقام للعدل المهضوم، ومساعدة المظلوم، والضرب على يد الظالم، فأنا أتمم عمل رحمة وشفقة، فليس على الأرض محبة، فغايتي أن ارجعها...»

فأثرت هذه اللهجة الرصينة في قلب أنيسة، وتحققت أن هذا الرجل سليم النية، وطيب السريرة فقالت: «نعم الغاية غايتك، أنا أراك تطلب المستحيل إذ تطلب إعادة الجبلة البشرية التي طبعت منذ الوصمة الجدية على الشر والميل إليه، ولا سبيل إلى قمع الكبرياء عن وجه الأرض، وإبادة الأهواء الفاسدة إلا بالإيمان الذي يأمرنا بمحبة الله. فتصور يا دون ميشيل، العقبات الكأداء التي ألقاها الدين المسيحي إبان انتشاره، لأنه كان عليه أن يذللها، لكي يرجع إلى الطبيعة الفاسدة صلاحها الأول الذي فقدته... وها إن الدين لم ينجح إلا جزئيا، مع أن واضعه إله، فكيف ستنجح وأنت إنسان، وقد أخفق وهو إله؟.. أنه تعالى لم يشأ أن يحرم الإنسان حريته أصل كل الشرور... وها أنه لا يهلك الظالم إذا ما أظهر أدنى علامات الرجوع والندامة! فاعمل أنت مثله..

- ولكن أليس ظلمة فادحة هذه الجرائم التي ترتكب على وجه الأرض وتبقى بلا عقاب؟ - أجل، ولكننا نعتقد نحن المسيحيين أن لا عدل كامل

على هذه الأرض، إنما العدل الكامل في الدار الثانية، حيث الإله الرقيب المحاسب الذي سيؤدي لكل بحسب أعماله، فلذا نغفر للغير هفواته وزلاته كما أن الله يغفر لنا ذنوبنا وزلاتنا». ابتسم دون ميشيل وقال مازحا: «وهل لك أنت أيضا ذنوب وزلات؟ وأنا أظنك ملاكا طاهرا فر من الجنة وهبط على أرضنا؟ فأنا نزولا عند رغبتك، سأخفف الأشغال عن ادما. - وأنا لك جد شاكرا» وأوقفت نظرها طويلا على محياه الظريف. – «وأنا سأخبر الحبيسة أنها نالت هذا التخفيف بسببك، وهكذا ستزداد لك بغضا وكرها! - لا بأس، فهكذا أنا انتظر. - وتريدين مع هذا تخفيف آلامها وأتعابها؟ -- أي نعم، لأن هذا واجبي». فأطال دون ميشيل نظره في وجهها الساكن الوادع، بإعجاب ودهش، ثم سار معها إلى أزج من بلور كان بالقرب من خيمته وتجولوا معا بين الزهور البديعة الألوان الذكية الرائحة، وأنيسة تقطف منها ما حلا وراق، فنظمت - باقة، حملتها في يدها تستاف الحين بعد الآخر، عبيرها الذكي. وآن الخروج، تناولت وردة حمراء، واستنشقتها باسمة، بعد أن وضعت على وريقاتها قبلة خفية، وقدمتها إلى دون ميشيل في حياء وابتسام... وخرجا معا نحو طرف المدينة، ودون ميشيل يشرح لها كل شيء يمرون به، ويريها الجبال المكللة هاماتها بالثلوج، فسأله موريس: «وهل هذه البراكين مطفية؟» - قد تظنون هذا، إلا أنها خامدة، والنار فيها راكدة، ركود الجمر تحت الرماد. وكانت وصلت بهم الطريق إلى المعسكر، فلما رأى الجنود الزعيم، وقفوا له بنظام وحيوه بالتحية العسكرية، باغتباط واجلال، فدهشت أنيسة لهذا المنظر الذي زادها يقينا في أن هذا الرجل حقيقة محبوب حب العبادة كما صرح لها

بـذاك الطبيـب مـن قبـل. ثـم وصلـوا إلى هـوة عظيمـة لا يـرى لهـا قـرار، فـما نظـرت فيهـا أنيسـة حتـى أصابهـا الـدوار، وارتـدت عنهـا مذعـورة، فقـرع دون ميشـيل جرسـا معلقـا هنالـك، ثـم أنشـأ يـشرح لأنيسـة أنـه منـذ ثمـاني سـنين لم يكـن ههنـا إلا طريـق وعـرة تقـود إلى هضبـة سـاليتو، فنسـق كل هـذه الجبـال وحفـر طريقـا، ومكنـه ببنـاء متـين مجهـزة إيـاه بـكل الوسـائل الحديثـة العصريـة، فأقـام فيهـا رافعـة مـن أحـدث الآلات العصريـة، يسـير عـلى الكهربـاء، لـكي يدخلـوا منـه كل مـن أرادوا قبولـه في المدينـة، وهـذا هـو الطريـق الوحيـد الـذي يدخـل منـه في المدينـة، ومـا مـن طريـق غـيره إلا سـمت ضائـع في شـعب الجيـل يسـتحيل العثـور عليـه عـلى غـير العـارف بـه قبـلا، مـن عاشـوا في مدينتنـا طويـلا.

«فبهذا الرافع دخلتم المدينة، وبه ستخرجان آن الذهاب.

- ومتـى يكـون هـذا؟ - في ثمانيـة أيـام عـلى مـا أظـن، ولكـن يـا أنيسـة لم أنـت سرعـة في مغادرتنـا؟ لا تظنـي نفسـك محبوسـة، ولا تنظـري إلي كسـجانك، فانـت غـير هـذا عنـدي، وسـيؤني أن تنتابـك الظنـون في شـأني. - أنـا شـاكرة لـك لطفـك وحنانـك، وأنـا أؤكـد لـك إني لا أشـعر بنفـسي محبوسـة عنـدك. - هـذه كلمـة عذبـة يلـذ لي سـماعها، ولـن أنسـاها مـا حييـت. والآن، فوداعـا لأن لي مهـام أخـرى عـلي أن أتفـرغ لهـا، وإذا مـا شـاقتك نفسـك إلى رؤيـة مناظـر شـائقة فاسـألي دون سانشـو أن يقـودك إلى الشـلال، ففيـه تتجـلى عظمـة الطبيعـة في مشـاهد تـزري بمشـاهد أوروبـا الشـهيرة». ثـم حياهـا بنظـرة وابتسـامة، وخفقـة في القلـب، وذهـب....

فشـيعته أنيسـة بنظرهـا، وتمنـت لـه في قلبهـا «للـه دره مـن رجـل فـرد

منقطع النظير، يسحر الناس بفرط التكلم إليهم، ويجذب القلوب لفرط التقرب منه. فهو صادق النية، رقيق القلب. طيب الأرومة. ولعمري لا يقدم على إصلاح الأمة الشريرة إلا من طبع على الشرف والشهامة، ومن جيل على عزة النفس والاباء!»

ولكنه مع هذه الخلال شديد القسوة على التمرد والعصيان، حتى لقد يرمي بالشراسة والشكاسة فهو ماهر في ترويض المراس وكسر الشكيمة الحادة، فالنظام كامل، ومع هذا فالحرية كاملة أيضا. فلا احتكاك بين الأفراد ولا حزازات، فكلهم مسرورون مغبوطون، ووسائل الفرح متوفرة لديهم. فالأكل الشهي، والشراب العذب، حلقات اللهو والرقص، والمطالعات اللذيذة، كل هذا عندهم منه ما يليق بكل الاذواق. فمدينة السعادة التي تعنى بها الشعراء، وتصورها الخياليون هي ههنا في ساليتو في مدينة ملك الاند».

فقال موريس: «لقد ملك لي هذا الزعيم، وأنا لست مستعجل على مغادرة هذه المدينة، فلا ينقصنا شيء ههنا، فنحن في رغد ورفاهية. - إنك تهذي يا أخي، أما أنا فاستبطئ يوم خروجي من هذا المنفى. لم هذا يا أنيسة، وأنت هنا موضوع كل حفاوة وإكرام كأنك الملكة المتوجة، ولك كل ما تريدين، وها هي دونا الفونسا تعتني بك اعتناءها بالدرة المكنونة، أليس كذا يا بولس؟» وكان بولس مقبلاً نحوهما. فأجابه بولس: «أجل إني لست مستعجلا على ترك ملك الاند، ولا يسعني أن أفارقه». ولما عادت أنيسة إلى غرفتها وخلا بها المكان، وانفردت إلى نفسها تناجيها، توافدت الأفكار إلى خاطرها تترى متنوعة،

وكلها تمثل لها ذلك الوجه الظريف، وتلك الطلعة البهية، طلعة دون ميشيل الزعيم، فتصاولت في قلبها الخواطر، كأن لها قلبين، قلب يود الخروج من هذا المنفى، وقلب يتمنى أن تطول الإقامة بالقرب من الإنسان الذي تغلغل فيه وامتلكه.

وفي هذا الوقت كان دون ميشيل جالسا في خيمته غائصا في بحر من التأملات، لما دخل عليه الطبيب، فأجلسه ازاءه، ثم قال: «سأغيب أنا بضعة أيام، وأنت كن وكيلا عني بالاعتناء بالآنسة دي ساكس وبأخيها إلى حين رجوعي، فوفر لها كل وسائل التسلية وأسباب السعد والهناء، وبعد رجوعي سيكون كل شيء متيسرة لمغادرة ساليتو.

- ما كنت أدري أنك مستعجل هكذا على سفرهما، وهما على ما يخيل إلي في أتم بسط وهناء.

- لي غاية في الاستعجال بإبعادهما، فانت لي صديق، وفي وسعي أن أُسر إليك سرائر قلبي، وأبوح لك بجوالي، لأني أعرفك لي أمينا مخلصا، فلا اكتمك، يا دون سانشو، أن هذه الفتاة قد أثارت في عواطف كنت أظن قلبي مصفحا دونها، فهي قد سطت علي وما أظنني أقوى على قمعها، فقد رأيتها في باريس منذ سنين هيهات قلائل، فطبع رسمها على شغاف قلبي، وكثيرا ما تصورتها في خلواتي، وأحلامي وزادني تدلّها بها رؤيها موثقة بالعمود، ومنذ ما هي عندي حبيسة، أشعر بأنها تربط قلبي وعقلي بأسباب هواها، وأنا عارف بأنني مخفق حتما إذا عرضت لها رغائبي بوصل حياتينا، فأنا في عينيها رئيس عصابة، ولص، فلذا تنفر مني نفور الظبية من الوحش الضاري، وأنا أشعر بأن الأيام

تزيـد في أسر قلبـي، فأصبحـت أرى أنيسـة في كل مـكان، وأتمثلهـا في كل طريـق، وأراهـا في كل واد، وأخـاف عـلى نفـسي مـما يشـينها، فأخلـق بي أن أبعدهـا، فلعـل البعـاد ينسـيني، أن طالمـا شـفي البعـد عريضـا، وعفـى البعـاد عـلى الهـوى...

- ولكـن قـل لهـا أنـك الكونـت مارسـيل، فالكونـت معـروف ولـه اسـم سـني رفيـع بـين الأشراف والأمجـاد...

- أجـل، يـا دون سانشـو، إلا أننـي في عينيهـا غـير الكونـت مارسـيل، فانـا ملك الانـد، زعيـم اخـوان العـدل فهـي تكـره الزعيـم بقـدر مـا تهـوى الكونـت، ولا أظنهـا تسـعد معـي، فأنـا اشـفاقا عليهـا سـأعمل عـلى ارجاعهـا بـأسرع مـا يمكـن، لعـل نـيران قلبـي تهـدأ... فأنـا أحبهـا حـب نفـسي، فالويـل لي إذا كنـت لهـا سـبب عـذاب وألم. ثـم لا تنـس أنهـا مسـيحية راسـخة الاعتقـاد، وأنـا لادينـي، وهـذه أيضـا هـوة عظيمـة تحـول دون انضـمام شـملينا، فأنـا أكل إليـك أمرهـما مـا دمـت غائبـا. فابتعـد دون سانشـو حائـرا متمتـم: «لم يخـف عـلي مـا يخالـج قلـب الزعيـم نحـو تلـك الفتـاة الناعمـة ولكنـي لم أحسـبه بهـذه الشـدة حتـى ليتـألم منهـا... يـا ليتـه يفاتحهـا في الأمـر، فلعـل الأمـر يـؤول إلى نجـاح. هـو حـي وهـي خـيرة، فهـو رقيـق القلـب وهـي رصينـة... كـم سيسـعد الزعيـم معهـا وكـم سـتهنأ بالقـرب منـه. الا اجمـع قلـوب المحبـين يـا رب...».

الفصل الخامس

الفرار

قد انتشر الليل على مدينة ملك الاند، وسكنت البيوت غائصة في صميم الظلماء بعد ما كانت تطفأ مصابيحها الواحد تلو الآخر، وحام على المعسكر كله سكون عميق، وما كان يسمع إلا صدى ضئيل لألحان قيثارة كانت تئن في الطرف البعيد من المدينة، ممزوجة أحيانا أصوات نسائية نحيلة ترسلها هدأة الليل إلى أبعد مدى. ولكن ما عتمت أن صمتت القيثارة، وخرست الأصوات، ونام المعسكر في هدوء لا يعكره إلا هينمة الريح يمر متلاعبا بالأغصان، أو صياح ديك حالم غره انقضاض الشهب في الفضاء، فظنه الفجر لاح، فراح في زعيقه المزعج...

وظهر بغتة شبح امرأة يتسلل بتؤدة وحذر، بين أكواخ المعتقلين، وقصدت إلى نافذة منفردة، وزلقت بخفة ورشاقة وهمست بصوت خافت: «هل أنت ههنا يا جرمان؟ - من يكلمني في هذا الليل؟ - امرأة تحبك وتريد انقاذك من هذا البلاء الذي تقاسيه... - ومن أنت حتى تنقذيني؟ ألست سيتسا ابنة السيدة الونسا، وخادمة الزعيم؟ أو تريدين توريطي في تهلكة، أرى من الآن سوء مغبّتها؟ - أي نعم، أنا سيتسا، وقد مهدت الطريق للفرار والخلاص من هذا الأسر المهين.- ولكن علام قدمت إليّ دون غيري؟ فما هذا الاحتفال بي، وما يتستر وراءه؟ - أريد الخروج من هذه المدينة، لأني أبغض البغض كله، هذه الفرنسية التي سقطت على قلب الزعيم، واستأثرت بلطفه فلا أقدر أن أراها معززة مكرمة. - آه! هو الحسد إذن ينخر فؤادك، فأنت لا

تحبين هذه الفتاة الجميلة وتسوؤك هذه الحظوة التي نالتها عند الزعيم، بينما أنت التي رضعت من حليبه، زمان الطفولة، قائمة ههنا كالخادمة، لا شأن لك... وما عزمت عليه؟

هاك واصغ إلي، فاني قد اختلست منذ أيام، محادثة دارت بين اندريا، وابنه ارمان فكان في خاطر هذا الشاب الاقتران بتلك الآنسة التي عشقها دون ميشيل أما الآن فقد تحول حبه إلى بغض قاتل مميت، ولا يتمنى إلا أن تقع بين يديه فيمزقها اربا اربا، وسمعتهما يتحدثان عن محاولة فرار سيقومان بها، ولكنها لا يتمكنان من ذلك إلا بمساعدة أحد سكان المدينة، مطلع على الطرق السرية الخفية، غير طريق الرافع، فهذه المساعدة أنا سأقدمها لها، وبما أنك تشتغل إياهما في المحجر، فأطلب منك أن تخبرهما بأن واحا سيدلهما على الطريق إذا ما راما الفرار، ولكن لا تسمني لهما. - ولكن كيف ستدبرين الفرار؟ - هذا الأمر شغلي، وعليك فقط أن تعرض الأمر عليها، وأنا سآتيك غدا مساء لأخذ الجواب، والأمر سينفذ في ذات الليلة فالزعيم غائب، وهذا القفص مفتوح أمامنا، لماذا لا نطير؟ - غير إني لا أرى العلاقة بين الفرار والآنسة دي ساكس. صبرا ستفهم كل شيء في وقته، وكل رفاق اندريا سيرافقونا في المهرب، فلا خوف منهم فكلهم بلا ضمير ويبغضون الأسر والحسر، ما عدا العالم الذي ألف الذل والخنوع مع رفيقه بولس، فهما من صوب الآنسة... فإلى الملتقي.

- إلى الملتقي!... « وانكفأت المرأة بقدم خفيفة وغابت وراء الأكواخ، تاركة جرمان وحده متبلبلا بين أفكار شتى تتنازعه وتقلقه. «هذا

هـو حقـد المـرأة... فسـتعلم الآنسـة الجميلـة قيمـة الهـوى، وسـتدري جـراء الحـب المسـلوب، فإنهـا قـد احتلـت قلبـا قـد طالمـا صبـت إليـه قلـوب الآنسـات الأهـلات هـذه الربـوع. آه مـن الحـب إذا مـا جـن جنونـه»

ولكـن كيـف بهـا تخرجنـي مـن ههنـا؟ هـل عندهـا أسرار طـرق المدينـة؟ أم هـي أفسـدت أحـد الحـراس بالرشـوة والتملـق؟ ولكـن يـا ويلنـا إذا مـا أخفقـت مسـاعينا، فـاذ ذاك سـيجري بنـا عـدل الزعيـم، وأنثنـي بـلا رحمـة ولا شـفقة، وذهبـت يـا الحيـاة...»

وكانـت أنيسـة في ثـاني ليلـة نائمـة في غرفتهـا، تنسـج أحـلام تحيكهـا مخيلتهـا مـما رأت وشـاهدت في المدينـة العجيبـة التـي يسـكنها ذاك الـذي سـحرها وحواهـا كـما يحـوي السـاحر أفعـاه... فأفاقـت قليـلا، وقامـت وأخـذت تنضيـد في حقائبهـا بعـض الحوائـج تهيئـة السـفر الـذي ظنتـه قريبـا، لأن دون ميشـيل سـيعود سريعـا، وهـي سـتغادر المدينـة بعـد عودتـه. وبعـد مـا رزمـت منهـا مـا شـاءت درجـت إلى السريـر، وتمـددت فيـه، فـإذا خشخشـة قـد سـمعت بـين طيـات الكلـة الحريريـة المسـيلة فوقهـا فارتعشـت وحاولـت النهـوض، فـما شـعرت إلا ويـد قـد انقضـت عليهـا، وشَـبَامٌ قـد دُسَّ في فيهـا فلـم تسـتطع أن ترفـع الصـوت بنغمـة... وبأقـل مـن لمـح البـصر قـد ملـت كالعصافـة بـدون أن تبـدي حـراكا كأن الذهـول الـذي اعتراهـا قـد شـلّ فيهـا كل حركـة، فأحسّـت بحيـل قـد تلـوي عـلى جسـمها وأوثـق كل أعضائهـا فـراح حاملهـا يعـدو بقـدم خفيفـة. فلـما عـادت إلى الشـعور وفتحـت عينيهـا رأت ارمـان واقفـا أمامهـا، يتكلـم بتهكـم مجـوني وغضـب شـيطاني: «آه آه! لقـد دار الـدولاب، يـا آنسـة دي سـاكس، فانـت

في حوزتنا من جديد، وعشيقك ملك الاند ليس ههنا لكي يخلصك من أيدينا.

عجلوا، سريعا، لا تبطئوا، فإن الخفير يجول تعيسا حول الأكواخ. - أي نعم، أي نعم، فلنسرع، قالت ادما، فليس من رغائبي أن أقع ثاني مرة في يد ملك الاند.

- وإن خاننا الحظ، يا آنسة دي ساكس، فإنك ستعلقين هذه المرة على الأعواد بالقرب منا...» ففتحت أنيسة عينيها ورأت اندريا وابنه وابنته، وفكتور وتوماس وسيمون، وامرأة هندية عرفتها، فهي ابنة الونسا..

فسأل اندريا بصوت متهدج: «من أين الطريق إلى منجم الذهب؟ وتقدم إلى الهندية. من أين الطريق؟.

- ألا سِر الآن وسأدلي بالتعليمات اللازمة، في وقتها وقد كتبت لكم البعض منها وها هي في السلة مع المؤونة التي أعدها لكم. والآن فلنسر، تحت جنح الظلام». ومشت أمامهم.

وسارت أنيسة مرغمة مدفوعة، ذاهلة الخاطر، خائرة القوى: «إلهي... إلهي... لا تخذلني... فما الذي ينتظرني»

الجزء الرَّابع

كفاح فانتصار

الفصل الأوّل

الخائنة

أشرقـت الشـمس متلألئـة الأنـوار، وغمـرت المعسـكر بأشـعتها الذهبيـة، وكان المعسـكر كلـه في اضطـراب، والجنـود في ذهـاب وايـاب، ذاهلـين قلقـين، وعـلى الوجـوه تلـوح علامـات الاسـتغراب، وكلهـم يتسـاءلون ويتهامسـون، ووقـف دون اسـطفان بوجـه كالـح مقطـب وعيـون حمـراء داميـة، يلقـي الأوامـر للجنـود والقـواد. وطـارت كلمـة «هربـوا» مـن فيـه إلى فيـه، حتـى وصلـت إلى أذني موريـس، فذعـر وخفـق فـؤاده حتـى كاد يغـشى عليـه لأن أختـه ذهبـت وتركتـه... إلا أن القـواد هـدأوا روعـه ووعـدوه أن يعيـدوا إليـه أختـه سـالمة أن شـاء اللـه. وللحـال دوى خـبر قـدوم دون ميشـيل دوي الرعـد المجلجـل في عـرض السـماء، فهـرع لملتقـاه دون اسـطفان وجميـع أفـراد الجيـش، فلـما وطـأ الزعيـم أرض المدينـة سـأل «هـل كل شيء بحسـب مـا يـرام؟ - كلا يـا سـيدي، فقـد هربـوا. - المحبوسـون هربـوا.. اتريـد أن تداعبنـي.. ومـن أيـن طريقهـم؟ - لقـد هربـوا:

الفرنسـيون، وجرمـان...» فقطـع موريـس الحديـث، لمـا خـرق الجمهـور وارتمـى عـلى دون ميشـيل مطوقـا عنقـه، باكيـة منتحبـة «أختـي... أختـي، يـا دون ميشـيل، لقـد اخـذوا أختـي...» فامتـدت عـلى وجـه الزعيـم سـحابة سـوداء، عقبهـا اصفـرار دونـه اصفـرار المـوت. – «ولكـن كيـف تسـنى لهـم ذلـك» فقـص موريـس كيـف دخلـت الونسـا صباحـا غرفـة أنيسـة

فوجدتها فارغة، وبعد التنقيب، لم يعثروا لها على أثر، والمحبوسون كذلك ليس لهم أثر في المدينة، فإنهم اختطفوا أنيسة، لكي يثأروا منها... «ماذا سيحل بأختي وأولاد عمي يبغضونها بغض الموت وأنا أعرف أنها لم ترافقهم عن رضى وارادة». فاعتم أن عادت إلى وجه الزعيم ملامحه المألوفة، وتبدت عليه ثقته العادية، وثاب إلى الرشد بعد فترة الذهول، ثم قال بنبرة حازمة، لا تحتمل ردة: «تعاليا يا دون اسطفان ويا دون سانشو، وابديا لي ملاحظاتكما بشأن هذه الحادثة، فأنا سنلحق بالهاربين». وجذب دون ميشيل موريس إليه وربت على كتفه بلطف وحنان، مهدئا خاطره: «لا تخف يا حبيبي، فسترجع إليك أختك». فأجابه موريس: «وأنا واثق بك كل الثقة، وبك منوط حبل رجائي، ولكن كيف هربوا بها؟ ومن أين ذهبوا؟ - هذا ما سنعرفه بعد قليل، فتعال معنا». واعتزل الزعيم بدون اسطفان ودون سانشو وموريس لكي يستطلع معهم يسر الفرار، فتحقق انهم لم يهربوا من طريق الرافع لأنه مخفور، والخفراء أمناء لا يجوز له اتهامهم. وغير هذا المخرج ليس إلا ذاك... ولكن كيف دروا به؟ ونحن سنلحق بهم من هذا الطريق، ولكن فلنأخذ رأي مارجل، ائتونا به. «فاختفى دون اسطفان وعاد بعد لأي مصحوبا برجل هندي قوي العضلات، زاهي الطلعة، فابتدره دون ميشيل: «أستطلع لنا أثر الهاربين...» - فرفع الهندي يده على صدره، وانحنى أمامه: «مارجل عبد الكندور الاعظم، فليأمر وأنا أطيع...» فنهض دون ميشيل وتوجه نحو الغرفة ذات العمد، يتبعه دون اسطفان، ودون سانشو، وموريس، ومارجل. فانحنى الهندي وتفحص الآثار المطبوعة على الرمال الدقيقة المنشورة، وبعد

هنيهة، استقام وقال: «إن هذا الرمل قد ذُري هذه الليلة، لإخفاء أقدام كثيرة مرت عليه وداسته. - حسنا! اتبعني». ثم تغلغل في ممشى عريض يغور متضايقا، وكانوا قد حملوا معهم فانوسين كبيرين، ليضيئوا ظلام السرداب، حيث كانوا يسيرون الواحد تلو الآخر. وما كادوا يتقدمون بضع خطوات، حتى سمعوا دوية عميقة ارتج له كل السرداب، كأن الجبل مادت أسسه، فذعر موريس وسأل الزعيم الماسك بيده: «ما هذا؟» فأجابه بهدوء: هذا البركان، فلا تخف، فنحن الآن نسير على أحد سفوحه. وفجأة انحنى الهندي وركز ركبته في الأرض قائلا: «انظر يا سيد...» فانحنى دون ميشيل وصوب بصره إلى حيث يشير مارجل، وأمَرّ عليه اصبعه... «نعم... نعم... وهذا أيضا مسح حديثا بيد بشرية، ربما ليخفوا أثرا تركته هنا حذاء أحد الهاربين». وتابعوا توغلهم في السرداب الذي كان يضيق كلما تقدموا حتى ألجئوا إلى الحبو على البطون ومارجل ينبه الفينة بعد الفينة إلى آثار يلمحها. وبعد زمن غير قليل وافاهم من الطرف الآخر، شعاع حائر سُرُّو برؤيته ولا سرور الضليل برؤيته المنار الهادي، فتوجهوا نحوه، فإذا بهم في فسحة صخرية تطل على هوة عميقة، وفي المقابل كهف فاغر، يبلغ ارتفاع صخوره نحو مئتي ذراع، ومنه يتدفق نهر هدار يصب بقصيف هائل في الهوة التي لا يرى لها قرار، فخاف موريس واعترته الرجفة لهذه المشاهد الغريبة، فأمسك الزعيم بيده وقدمه إلى حافة الفسحة إزاء الكهف الفاغر والسيل المتدفق، وأراه في الحائط حلقات مغروزة في الصخر، وقال له، ملصقا فمه في أذنيه لأن هدير النهر كان عظيمة: «من هنا هربوا... - من هنا؟.. هذا مستحيل». قال موريس مدهوشا

ذهلا. - وهذا جائز وممكن، إذا ما ربطوا في الحلقات ساعة خصوصية على غرار التي عندي، فإنهم يصلون بها إلى نافذة تحت هذا الطنف البارز أمامك، والنافذة هي بدء الطريق المؤدية إلى المنجم الذهبي... - وهل مخرج من المنجم؟ - أي نعم، أن هنالك مخرجا، وإن هنالك موتا لا محالة، وإني لمتأكد بأنهم سيلاقون حتفهم في هذه الأرض التي لا تجرؤ رجل على دوسها، وكنت تركتهم وأهملتهم،

لو لم تكن هي معهم... وليس لدينا وقت إذا ما أردنا خلاصها». والتفت نحو مارجل هل أنت متأكد من انهم مروا من هنا؟ - أي نعم، أنا متأكد. بل أزيدك ايضاحا، وهو أن يدا هندية قد دبرت كل شيء، وهي التي حاولت محو الآثار بعد دعس الهاربين. - فإذن لا يزال أحد المتآمرين في المعسكر، وهو الذي قام بهذه المهمة... وفي المعسكر ليس إلا ستة أشخاص يعرفون هذا المخرج، أنا ودون اسطفان، وأنت يا مارجل، ودون سانشو، ويعقوب، ويوسف، والونسا. فأنا لا أريد إهانتكم بالشك في أمانتكم، ولا أشك أبدا في يعقوب وأخيه، فأنا أثق بها ثقتي بنفسي، وكذلك الونسا فهي لا تخون». ثم توقف عن الكلام وأطرق مفكرا... « وأنا لم اطلع أحدا غير هؤلاء على هذا الممشى». ثم أدار القدم وأخذ في الرجوع، وفي أثناء الطريق وصي دون اسطفان أن يسبقه ويجهز له عشرة رجال أمناء ممن يثق بهم ولا يخشى منهم خيانة. فقال له موريس وأنا أيضا أحب أن أكون من الحملة، لأسعى وراء أختي. ولما وصلوا إلى المعسكر استقدم الزعيم الونسا، فتقدمت منه مضعضعة الأفكار خائرة العزيمة، وكان قد صعقها اختطاف الفتاة الفرنسية التي اعتنت بها اعتناء الأم بابنتها العزيزة. وقد زاد في رجفتها

فكرة مواجهة الزعيم. فما وصلت إليه حتى ارتمت على الأرض متمرغة مسترحمة مستلطفة. فطمأنها دون ميشيل: أنا لا أشك مطلقا في أمانتك يا الونسا، وأنا لم أنادك لأوبخك على جريمة اقترفتها، فأنا متأكد من براءتك، إلا أن لي سؤالا بسيطا أطرحه عليك، لعل لي منه هذيا ورشادة: «هل يعاودك أحيانا الهيام الليلي؟» فَحدجَتْهُ الونسا بدهشة وذهول، متمتما: «أي نعم، يا سيد، ولكني لا أذكر أنه أصابني منذ أمد طويل. - وهل رأتك ابنتك في هذه الحال؟ - نعم، قد رأتني. - حسن فاذهبي الآن بأمان، ولا تقلي بالا، والآن يا يوسف، ائتني بسيتا»

ولم تمر إلا بضع دقائق حتى دخلت سيتا مقطبقة الوجه معقدة الجبين، وما لاقت نظراتها عيون الزعيم حتى غضت منها وأطرقت إلى الأرض: «أنظري إلي يا سيتا، فأنا أحب أن اقرأ في عينيك». فرفعت طرفها قليلا، ولكن ما لبثت أن نكسته كأنه لا يحتمل بريق عيني الزعيم. – «لماذا مهدت للفرنسيين سبيل الحرب والفرار؟» «فأخذت سيتا رعشة وتخاذلت قدماها، وامتقع لونها، وأجابت بنبرات متقطعة: «لا أفهم... ما تقول... - اطرحي عنك كل رياء وتصنع فقد برح الخفاء وأنا مطلع على كل ما صدر منك، وأنا عارف كل أفعالك، فأذن لا تحني ولا تستري» فلم تحر الهندية جوابا بل ارتمت على الأرض ترتعد وترتجف ناثرة التراب على رأسها. – «أجيبي لماذا ساعدت الفرنسيين على الفرار؟» فأجابته بصوت مخنوق بالعبرات والزفرات: «لكي يبعدوا عن عيوني الفتاة الفرنسية. ولماذا تحبين أبعادها وهي لم تسيء قط إليك؟ - لأني أبغضها. - وماذا فعلت بك؟» فارتبكت الهندية وتلجلجت وهي تمضغ كلامها «... لأنها جميلة... وطيبة القلب فكسبت اعجاب

الجميـع، وبالأخـص لأنهـا اسـتأثرت بـوداد الزعيـم...» فأبرقـت عينـا دون ميشـيل. بشـعلة غضـب محتدمـة. «ألأجـل هـذا؟ لأنـك تحسـدين جمالهـا ولطفهـا فـاردت أن تسـلميها إلى أيـدي أعدائهـا، فدللتهـم عـلى الطريـق السريـة، وكان عليـك أن تجهليهـا، فإنـك اطلعـت عليهـا عرضـا وأنـت متتبعـة آثـار أمـك ليـلا، بينـما كانـت في الهيـام... ومـا كنـت انتظـر أن ألقـاك خائنـة أنـت التـي رضعـت واياهـا نفـس اللـبن ودرجـت واياهـا في ذات الحضـن... وأنـا كنـت أكرمـك ورفعتـك منزلـة عـن سـواك»؟ فصرخـت: «رحمـة منـك واغفـر لي ذنبـي! - كلا هـذه هفـوة لا تغتفـر، سـتقادين الآن إلى الحبـس المظلـم، وسـتحاكمين بعـد رجوعـي». ثـم نهـض الزعيـم ومـن معـه وخرجـوا دون أن يلتفتـوا إلى الجثـة المنبطحـة عـلى الأرض تتمـرغ بذلـة وانكسـار.

فوقـف الزعيـم أمـام الخيمـة وطلـب إلى رجـال الحملـة أن يتقدمـوا منـه ويقسـموا لـه الايمـان بـألا يفشـوا الأسرار التـي هـو مزمـع أن يطلعهـم عليهـا، والويـل للخائـن الغـدار... وذكّرهـم بـأن الخيانـة هـي أعظـم إثـم في الجمعيـة، ولا يمحوهـا إلا الـدم، فتقدمـوا منـه ولفظـوا بـين يـدي الزعيـم القسـم بأنهـم لـن يخونـوا أبـدا جمعيـة اخـوان العـدل...

الفصل الثَّاني

على سفح بركان

مشى دون ميشيل أمام الرجال وتوغلوا بسكوت عميق في المشي الصخري، ودون سانشو يتبعهم حاملا السُلّم المعدنية اللدنة، فلما وصلوا إلى الهاوية مقابل الكهف الفاغر الذي تتدفق منه المياه الهدارة، تقدم وأوثق السلم بالحلقات المغروزة في الصخر، نبينا دون ميشيل واقف إزاء موريس يشرح له كيفية المرور على هذه. السلم المتحركة. «ولكن كيف استطاعوا الفرار وهذه السلم لم تكن معهم؟

- بل كانت معهم وإلا لما استطاعوا المرور من هنا، فإن الونسا قد اطلعت سيتنا على محله أثناء تجوالها الليلي وهي لا تدري، فإنه يا موريس، فانا سأمر أولا لكي أتلقاك في الجهة الأخرى، فلا تخف ولا ترتعب، فالأمر أهون مما تتصور لأول وهلة. وتقدم دون ميشيل بلباقة وزلاقة، من اعتاد المغامرات، وله دربة على كل أنواع الرياضة الجسدية، فتدلى تحت الطنف، ثم صرخ: أعطوني نورا. فأنزل دون سانشو القنديل، فلم موريس شعث شجاعته، وجمع جميع عزائمه ونزل إلى درجات السلم مستعينا بدرابزين اصطناعي يحيكونه من حلقات السلم نفسها، فرأى نفسه تحت الطنف أمام كهف فاغر قاتم قد وقف دون ميشيل على حافته يضيء عليه بالقنديل الذي بيده، وكانت السلم بحركة منظمة يطبعها فيه مجرى كهربائي تتحول قليلا قليلا، متجها نحو باب المغارة، وما رفع رجله ووضعها على أرض المغارة حتى صرخ للزعيم: «أنى لك هذه الأسرار وهذه الاكتشافات التي

لا خطر قط على ذهن بشر؟ وهل هذه هي طريق المنجم التي كان اندريا مزمعا أن يأخذها للوصول إليه؟ وهذا الذهب الذي سبب لنا كل هذه العثرات؟ - لا فإنهم يجهلون هذه الطريق والممر المرقوم في الخريطة التي لديهم قد عني منذ أزمان... لأني قد سددته بجلاميد صخر قذفها البركان في هيجانه فيتعسر العثور عليه، ولا طريق إلى هذه» فبعدما مرّ جميع الرجال، تغلغلوا في المغارة، فكانت تضيق بهم كلما تقدموا فيها، والطريق ترتقي بهم صعدا، فيسمعون أحيانا هدير البركان المتأجج، لأنهم يسيرون على سفح من سفوحه. فتابعوا سيرهم حثيثا في جو مثقل ضاغط كأنه مملوء بمحلول الرصاص ميز في صدورهم فيمنعهم التنفس بسهولة. فالتفت الزعيم إلى موريس فرأى ملامحه قد تغيرت، فأصبح أصفر شاحبا، وأخذت رجلاه تخونه فيتساقط على الأرض كأن صراعا أصابه.. فيحمله دون ميشيل على ساعديه وجرى به عدوا، غير آبه بالطلعة الصعبة التي يرتقيها وبالظلام المخيم، وما عاد موريس إلى شعوره إلا عند ما مدده دون ميشيل في الهواء الطلق، وأنشقه من قنينة صغيرة اجتلبها لهذه الغاية. - «كيف مرت أنيسة في هذا الممر الذي صرعني؟ وكيف كانت حالها؟ وليس معها دون ميشيل ليعتني بأمرها؟» وبعد ما استراحوا قليلا، توغلوا في طريق ينساب على سفح البركان ما بين تلال الحمم التي قذفها في ثورانه، فيصعدون تارة ويصوبون أخرى، قافزين فوق الصخور، وسائرين في الأخاديد، مما يعيي ويميت... وكان دون ميشيل يسير في المقدمة، يتقافز على الصخور متلاعبين برشاقة فائقة، والكل ينظر إليه بذهول واعجاب، فانحدرت بهم الطريق بغتة، وعلى شمالهم ما زال البركان يعج ويرسل الحين

بعد الآخر دويا تصطك له أسس الجبل ويتردد صداه في تلك الأصقاع، ويتصاعد من الفوهة عمود دخان كثيف، ينتشر على الجبل كالغمامة السوداء، إلا أن الطريق حادت بهم قليلا عن سفح الجبل، وضاعت ما بين الجلاميد المنشورة. فنظروا فإذا دون ميشيل ينحني على الأرض ويلم شيئا لمحه، ورأوه عاد القهقرى نحو موريس ومد إليه منديلا التقطه «أليس هذا منديل أنيسة؟» فنشره موريس، فإذا به من حرير، وقرأوا في أحد أطرافه أوائل اسم أنيسة ساكس... «نعم... نعم! - فإذن نحن في أثرهم، ولكن هل يا ترى هم بعيدون عنا؟»

وأردف الزعيم: «كلا، لا أظنهم بعيدين، فلربما سحرهم بريق الذهب، وتوقفوا ليلموا منه شذرات، وهذا ما يعيقهم، ولربما يكونون اطمأنوا بالا، غير ظانين أنا نتعقبهم، فلذا سيستريحون قليلا لكي يتأتى لهم أن يأخذوا من الذهب ما يشاء جشعهم.. ولكن لا تخف يا موريس فانا سأبذل كل ما في وسعي لكي أخلص أختك». فتقدموا في طريق انفسحت لهم على الجانبين، تعترضها الصخور المتراكمة، فتسد امتداد أبصارهم إلى الآفاق، وقد انتشر على الجهات صمت دونه صمت القبور رهبة وجلالا، وما كان يزعج السكون أحيانا إلا رفرفة طائر منفردير فوق رؤوسهم كأنه مزعوج الرؤية المجتاحين أوطانه... وبعد ردح اقتربوا من ساقية تتحدر مخرخرة بين الصخور لتذهب تغور في كهف أسود قاتم، كان عليهم أن يتوغلوا فيه. فوقف دون ميشيل وأنذر رجاله أن يكونوا على أهبة وحذر، فلعلهم جثموا في تلك المغارة، ويخشى من الكمين. فتحفز الرجال، ودخلوا في المغارة على استعداد لملاقاة الاعداء ولصد كل غارة، فجانبوا صفا من الصخور يحاذي النهر الذي كان يرسل أحيانا

موجات صغارا تداعب أرجلهم، بينما القنديل يضيء لهم سطورا من الذهب تاسع جارية في غضون الجدار... فأما الزعيم فأومأ إلى موريس ومن وراءه أن يكونوا على حذر لأنهم وصلوا إلى منعرج يتلوى ولا يدري ما يخبأه لهم بين منعطفاته، فتقدموا محترسين إلى أن وجدوا أنفسهم في مغارة واسعة كأن جدرانها قد بنيت من التبر الخالص... ورأوا على الأرض قطعة مختلفة الأحجام منشورة، إلا أنهم لم يأبهوا لها ولم يقفوا لأن نفوسهم تدفعهم إلى الأمام، وراء أنيسة... فلما كملوا الطريق محاذين النهر الذي ما عتم أن اختفى عن العيان، غائرا في الأرض، فلفت نظر الرجال شيح ممدود وراء صخر كأنه رجل نائم، فتقدموا منه فعرفوا للحال السيد اندريا، فإذا به جثة هامدة، فكان ميتا ويداه قابضتان على شذرة من ذهب مضمومة إلى صدره، فكأني به نال مبتغاه فلم يعد له على الأرض من وطر، فمات وفي محياه ابتسامة الأماني المملوءة... إلا أنهم لم يطيلوا الوقوف عنده بل راحوا في سيرهم، فلمحوا الهاربين عن بعد فكانوا يسيرون ببطء وأمان، غير رجلين ولا خائفين، فلما رآهم دون ميشيل صاح برجاله أن يحثوا الخطى حتى يلحقوهم قبل أن يصلوا إلى محل قد ملأه ألغاما، حتى يودي بكل من يحاول الوصول إلى هذا المنجم الذهبي عن طريق غير طريق المدينة، وإن هذه الألغام موضوعة حيث لا ترى، وهي تثور تحت وطء أقدام المارين عليها فخاف الزعيم أن يصلوا إليها فتذهب أنيسة ضحية الألغام، فلذا أمر الرجال بالإسراع الحثيث، فوثب الرجال في أثره وهو يطير أمامهم أكثر مما كان يجري، فرأوا ارمان يسير بالقرب من أنيسة وادما، فحدثت من جرمان التقاتة أعقبها بمسبة فظيعة،

صارخ: «ها إن الزعيم في أثرنا... فدب الرعب في القلوب، وأخذوا يتراكضون ويتسابقون للاختفاء وراء الصخور. أما أنيسة فأخذت تبطئ في سيرها فتقدم قدما وتؤخر اثنتين، صارخة: «موريس، يا حبيبي، أين أنت؟... فجرها ارمان بعنف، بينما دون ميشيل يجاوبها: «ها نحن. ها نحن... فقد أزف الخلاص». وما هي إلا قفزات حتى اقترب منها فسمع للفور دوي رصاص لحقته زعقة، وإذا بأدما تتخبط في دمها شاتمة مجدفة... فتجرأ ارمان، ووقف أمام الزعيم وصوب إليه رصاصة، تحاشاها دون ميشيل برشاقة، فراحت تكسر الصخر، فهجم عليه دون ميشيل هجمة الأسود، إلا أن ارمان قبض على أنيسة بعنف وأوقفها أمامه ترسا يحتمي به قائلا: «اضرب الآن... اضرب الآن...» فنادى الزعيم رجاله: «اتركوا الفرنسيين الآن، وتعالوا إليّ لنخلص أنيسة من براثين هذا اللئيم». فصرخ بهم ارمان: «حذار أن يقربني أحد فأنيسة تذهب ضحية بسببه...» واستل من حزامه مدية معكوفة ووضعها على كتف أنيسة وهي ترجف بين يديه كالعصفور في يدي ذابحة... فبكي موريس واصفر وجه دون ميشيل، لما رأى أنيسة تهوم. وتغيب عن الحواس، وتنظر إليه بعينين ذابلتين، كأنها تقول له: «وداعا، وداعا...» فدوت رصاصة. إلا أن ارمان لم يفلت فريسته، فحدثت منه التفاتة، استغنم منها دون ميشيل فرصة، ووثب عليه وثوب النمر، واختطف أنيسة من بين يديه، واعتركا مدة، فتمكن الزعيم من خصمه وغرز المدية بين ترائبه، فسقط ارمان على الأرض جديلا...

الفصل الثَّالث

الخلاص

وبينـما كان الزعيـم يعـترك وارمـان هـرب الباقـون لائذيـن بالصخـور، إلا أنهـم لما اقتربـوا مـن محـل الالغـام، ثـارت تحـت أقدامهـم، فتطايـرت قطـع الصخـور مبعـثرة أشـلاءهم في الجهـات الأربـع.

أمـا أنيسـة فقـد أغمـي عليهـا مـن هـول مـا رأت ونعـت، وتجرعـت، حملوهـا. ومددوهـا عـلى قارعـة الطريـق، ودون سانشـو يعتنـي بأمرهـا منشـقا إياهـا مـن قواريـره الطبيـة مـا ينعـش فيهـا الحـس والشـعور، فرجعـت بعـد برهـة وفتحـت عينيهـا والتقتـا بعينـي دون ميشـيل، فأهـوى موريـس عـلى أختـه يوسـع جبينهـا اسـتلام وتقبيـلا وهـو يقـول: ولقـد نجونـا يـا أختـي، فعـن قريـب سـتنتهي عذاباتنـا...» فرفعـت إليـه أنيسـة طرفـا شـجيا ذابـلا: «أي نعـم لقـد خلصنـا... والفضـل للـه، ولـك يـا دون ميشـيل، فأنـا أشـكرك شـكرا جزيـلا... ومـدت إليـه يـدا مرتجفـة، فتلقاهـا دون ميشـيل بلهفـة وانحنـى نحوهـا بشـغف، ورفعهـا بإجـلال إلى فيـه وطبـع عليهـا قبلـة لا بـل قبـلات، أودع فيهـا كل مـا في قلبـه مـن حـب وعطـف وحنـان... هـذه مكافـأتي؛ فقـد نلـت مرامـي إذ رأيتـك حيـة وقبلـت هـذه اليـد المحبوبـة... فسـألته أنيسـة لمـا رأت يـده مضمومـة بلفافـة بيضـاء، تنقشـها بقـع حمـراء تخترقهـا: «أو قـد جرحـت؟ - نعـم، لقـد جرحنـي ذاك اللئيـم. وأشـار إلى ارمـان «ولكـن هـذا لا يهمنـي، وجـون سانشـو سيشـفيني بسرعـة، إلا أن منيتـي أن تشـتي أنـت...» فسـألت أنيسـة، وهـي تحـاول أن تخفـي رأسـها بـين يـدي الزعيـم، كأنهـا تتوجـس خوفـا مـن سـطوتهم ثانيـا «

وأين هم الآن...» فطمأنها دون ميشيل «لا تخافي، فهم الآن غير قادرين على الاضرار بك، - لا، وهل قتلتهم؟ - هم حفروا لنفوسهم قبورهم، فهدئي الآن روعك واستريحي. فقدم إليها قليلا من الأكل، فرفضت لأنها لا تستطيع بلع لقمة لما اعتراها من الضني. فاقتعد الرجال الصخور وتناولوا ما تيسر لهم من الطعام لكي يقووا على الرجوع فبلعوا ما وصلت إليه أيديهم بسرعة عظيمة، لأن قلوبهم أخذت في الخفقان لما رأوا السماء ادهمت بالدخان المتصاعد متكاثفا من فوهة البركان الذي عَلق يضج ويعج. فاحتجبت الشمس، واندلعت بعض ألسنة من النار تبعها مائع غشى سفح الجبل، متسلسلا نحو الأودية، فانتصبوا على الاقدام، وأخذوا في القفول من حيث اتوا، وأبى دون ميشيل إلا أن يحمل أنيسة بين ساعديه غير مكترث بجرحه أو بتعبه، لأنه كفاه أن يتقرب منها حتى ينسى كل تعب وكل ألم... فجدوا في السير غير لاوين على شيء، فروا أمام جثة اندريا بدون أن يأبهوا لها ودون ميشيل يأمر رجاله: «أسرعوا حثيثا، وإلا ذهبنا فريسة الحُمم» التي ابتدأت تتبجس بكثرة من فوهة البركان وتتدفق على السفوح زاخرة هادرة، وهو يقفز على الصخور بحمله الخفيف، كالغزال الذي سمع رنين القوس في الفلوات، فيفلت ساقيه للريح... ورجاله يعدون وراءه لاهثين مرعوبين، وهم يتسلقون الجبل مجانبين سيل الحمم التي يقذفها البركان. فتسرب الخوف إلى قلب أنيسة وهي ترى دون ميشيل يتوثب بها على الصخور محاذرا إلا يمس السيل المتدفق وألا تزلق رجله. فقالت له: «اتركني يا دون ميشيل، واخلص بنفسك، فإن الله قد قضى علي بالموت... - كيف أتركك؟ فهنيئا لي موتي إذا ما مت

في سبيلك!..» ولما أن قاربوا الوصول إلى المغارة، تغلغلوا فيها. وبعد هنيهة رأوا نفوسهم أمام الطنف والسلم الحديدية، معلقة تنوس قليلا تحت لطمات المياه المتدفقة في الهاوية العميقة، فمدد أنيسة على الأرض لكي تسترجع أنفاسها التعبة، وهو ارتمى بجانبها عييا... والحديد يعتريه الفلل... فأتاه دون سانشو وقدم إليه وإلى أنيسة شيئا من منعشاته، وكذلك قدم لموريس المنهوك القوي، الذي لم تعد تحمله رجلاه، وكذلك بقية الرجال تساقطوا على الأرض اعياء وقد استرخت كل مفاصلهم، فبعد أن استنشق دون ميشيل نسيم الراحة مدة لا تزيد على خمس دقائق، عاوده نشاطه فوثب على الأقدام وتوجه نحو نُقرة في الصخر، وموريس يتبعه ببصره، فرأى الزعيم يزيح حجرا بان من ورائه أسلاك كهربائية مقرونة بهاتف، فمسكه الزعيم، وضغط على زر مغروز هنالك، وتكلم مع حامية سالبتو طالبا النجدة والمساعدة، ثم عاد حيث كان جاذب أنيسة حديثا ليسليها. وما عتم أن وافاهم دون اسطفان برجال، ساعدوهم على الوصول إلى المعسكر، وهنالك استسلبوا للراحة والاستجمام، داخل الأكواخ وكان الليل قد ارخى السدول، وانتشر الظلام. فباتوها ليلة يتململون من الاعياء والتعب، ولم يزر الكرى أجفانهم إلا لماما. فشاع الخبر مع الصبيح أن أنيسة دي ساكس أخذتها حمى دماغية، وحياتها في خطر... وما من أحد استغرب الأمر وهم على دراية ما عانت في هذه الأيام مع صحتها الضئيلة التي تنعكس لأدنى ضغط، فكيف بها في هذه الأهوال؟ فلازم موريس سرير أخته، وقد تملكه اليأس والقنوط، ووقفت الونسا ودون سانشو يبذلان الجهود لاستخلاص الفتاة من براثن الموت الذي ما زال يتعقبها كأنها

الطريـدة... ودون ميشـيل يتسـارق كثـيرا إلى غرفتهـا ليطلـع عـلى أخبارهـا بلهفـة وحرقـة، وأنيسـة في سريرهـا تتـألم وتتململ وتنتابهـا أحيانـا الغفـوة، فيظنونهـا غفـوة المـوت. وباتـت أنيسـة ليلـة مـن الليـالي في آلام مبرحـة، حتـى ظنـوا دنـو الأجـل، فلـم يغادرهـا دون سانشـو، وموريـس لاصقهـا جاثيـا عـلى الأرض قـرب السريـر يصعـد إلى السـماء أحـر الصلـوات، لـكي ينـال لأختـه الشـفاء فتـشرق شـمس حياتـه بعـد اغتـمام. ومـا كادت أشـعة الفجـر تلـوح حتـى هـرع دون ميشـيل إلى غرفتهـا مسـتفحصا، قـرى عنـه لمـا أخـبره الطبيـب بـأن الهـدوء عاودهـا وانهـا الآن سـاكنة، والحمـى قـد انخفضـت، فبـشره بأنـه يظـن الغمـة قـد انقشـعت... وحقيقـة قـد لبثـت أنيسـة هادئـة ذلـك النهـار، ومـا لبثـت أن دخلـت في طـور النقـه، ولم تطـل عليهـا المـدة حتـى رأوهـا تجـر رجلهـا خارجـة مسـتندة عـلى أخيهـا، وتـدرج بضعـف وتخـاذل، لتجلـس أمـام الغرفـة لتستنشـق الهـواء النقـي الـذي حرمتـه منـذ أمـد. ومـا تـداول النـاس خـبر إبلاهـا، حتـى تهافتـوا نحوهـا مهنئـين وفي طليعتهـم شـارل وبولـس اللـذان أبديـا مـن دلائـل الـسرور والغبطـة مـا لا يوصـف. وبينـما بولـس يتكلـم وأنيسـة إذا بـدون ميشـيل قـد أقبـل فقـام بولـس للانسـحاب، فأوقفتـه أنيسـة: «لمـاذا تذهـب، أأنـت تخـاف مـن دون ميشـيل؟ - كلا فأنـا لا أخافـه، إنمـا رؤيتـه توقـع في قلبـي الهيبـة فـإن بولـس العـاتي قـد وجـد لـه سـيدا يرهبـه... وتهانـف وهـو يختلـس النظـر نحـو الزعيـم القـادم، فقـال لـه موريـس: «ومـاذا تعمـل بشـعارك: لا سـيد ولا رب؟ - فنـي الشـعار مـع أيـام حيـاتي الأولى، فـإن لي ربـا وهـو اللـه، وإن لي سـيدا أطيعـه وهـو دون ميشـيل... والآن أعـذروني، فليـس في وسـعي أن تقـف حقـارتي أمـام أبهـة الزعيـم... ثـم ودع وراح،

فقهقه موريس وابتسمت أنيسة، بينما بولس يغيب عن العيان بعد أن أرسل جهة الزعيم لحظة ملؤها الاحترام والإجلال.

فبادر الزعيم: «كم أنا سعيد لرؤيتك منشرحة الصدر مسرورة، فضحكاك هذا يبين لي بأجلى بيان أنك صحيحة معافاة... أهو القرد بولس الذي أثار ضحككم وأبسطكم هكذا؟» فقص عليه موريس أسباب هذا السرور وهذا الضحك، وأردفت أنيسة: «إنه يحبك كثيرا يا دون ميشيل... ومن لا يحبك؟ بعد ما يتحقق ما طبعت عليه نفسك الأبية من الرفعة والسناء؟» وأطرت شهامة التي حملته على أن يتحمل في سبيلها كل هذه العذابات والمخاطر. فقاطعها دون ميشيل وجذب الحديث إلى موضوع آخر، لئلا تعود إلى أنيسة ذكرى الأيام التاعسة الأخيرة.. فلاطفها في الحديث كثيرة، وداعبها في الألغاز والنكات الطريفة، مما سرى عن قلب الفتاه فانت نفسها في ابهاء باريس الحافلة بأنيقات القوم وظرفائه... وعندها رام الذهاب، قال لها بلهجة المخزون المغضوب: «ها إنك مرغمة على البقاء بين ظهرانينا. أياما لم تكن في الحسبان، حتى يتم شفاؤك، ويعود إليك نشاطك... فتجلدي يا أنيسة واصبري... - لا تظن أن هذه الأيام تزعجني، أو إني تاعسة لبقائي بالقرب منك... فأنا هنا في رغد وهناء، وكفاني لطفك...» واحمرت وجنتاها، واطرقت إلى الأرض في خَفَر - «أشكرك على هذه الكلمات العذاب، ولكني أفهمك إذا أردت الخروج بسرعة من هذا المعسكر». فوقف موريس وتعلق بذراع دون ميشيل «إني لن أنسى ساليتو، وخاصة لن أنساك يا دون ميشيل» وصوب إليه نظرة بللتها دمعه حارة ولم تقع... «هل نراك في باريس؟» فتقطب جبين دون ميشيل، ووميضت في عينيه

ومضة حزن حاول اخفاءها، وأجاب: كلا... فإنكما ستريان فيّ أبدا ملك الاند، ولن تفطنا إلى الكونت مارسيل...» ثم انحنى نحو أنيسة وودعها بنظرة وابتسامة حائرة، وابتعد عنها، وموريس يشيعه بالأبصار. أما أنيسة فقد علتها صفرة، كأن التعب قد نال منها، فأمالت رأسها واتكأته على وسادة، وصمتت في حزن ووجوم... والدموع تتسايل على خديها صامتة، وهي تغطيها بيدها حتى لا يراها موريس. فهي حزينة، بحزن عميق لا تدرك له معنى ولا سببا... هي حزينة وحزنها يطلع إلى عينيها من أعماق قلبها، والله وحده يدري كم هو عميق قلب الفتاة... فراحت تطارد أفكارها، وتترسم في مخيلتها المشاهد التي مرت بها، فرأت البركان الهائج الثائر كعواطفها الآن، ورأت الحمم الحارة التي يقذفها من جوفه الملتهب، كالدموع التي تتدرج الآن لاذعة على خديها، ورأت الألغام تثور مبعثرة الاشلاء في الفضاء، كآمالها التي بددتها أطماع اندريا، وكالأحلام التي نسجتها في سر قلبها حول دون ميشيل زعيم اللصوص، وملك الاند... وتمثلت الهوة الهائلة والنهر الهدار، ورأت... ورأت نفسها بين يدي دون ميشيل، مسندة قلبها على قلبه فيمتزجان بالخفقان... ويتناجيان ما لا يجوز للفم أن يعينه... فشعرت بلهيب نفسه العاطر يتدفق في وجهها، فتذكرت كل الأخطار التي اقتحمها لأجلها وفي سبيلها، وشاهدت الدم يسيل احمر قانيا من يده، فودت أن تكون سفكت أنقى دم قلبها وإن لا يصاب هو بأذى، فترجرجت في مقلتها دمعة كبيرة تقطرت على خدها فلذعتها حرارتها وتدرجت على المخدة، فأنسَت بها أنيسة وأخذت تعالجها بأنملها، صامتة حالمة، فإذا النوم يرنق في عينيها، فغفت ونامت وهي تهذي

بـدون ميشـيل منقذهـا وحبيـب قلبهـا...

أفاقـت أنيسـة عـلى وقـع أقـدام الونسـا، ولمـا رأتهـا كاسـفة الوجـه ترتجـف وترتعـد، سـألتها: «مـا لـك، يـا الونسـا؟ - مـا لي؟ آه! لقـد دهتنـي المصائـب، ورمـاني زمـاني فـإن الزعيـم قـد حكـم عـلى سـيتا بالإعـدام، وأسـتعطفه كثـيرا، فلـم تلـن لـه قنـاة، ولم يـرق لحـالي، يـا ليتـه يتذكـر أنهـا أختـه، ورضـع حليبهـا فلربمـا يـرق، ويعفـي عنهـا... لـو تسـتطيعين شـيئا يـا أنيسـة، فسـاعدينا... فـإن الزعيـم لا يرفضـك مـا تطلبـين. فرحـماك، رحـماك... - أمـلي قليـل في الحصـول عـلى مرغـوبي، لأن ذنبهـا الخيانـة، وهـو أكـبر ذنـب في جمعيتـه - كلا، فلـك عـلى قلبـه كل سـطوة، ولـك منـه مـا تشـائين، فاذهبـي ولا تحقـدي عـلى ابنتـي لأنهـا سـببت لـك هـذه المتاعـب والأوجـاع، فأنـت وحـدك نجاتهـا...» فرقـت أنيسـة لحالتهـا ووعدتهـا المسـاعدة، بمهاجمـة قلـب الزعيـم، وقامـت مـن سـاعتها وتوجهـت إلى خيمتـه، وقلبهـا في وجـوب وخفقـان، ومـا لمحـت دون ميشـيل في طلعتـه الزاهيـة، حتـى طفـح الاحمـرار عـلى خديهـا فزادهـما جـمالا وسـحرا. «مـا عسـاك تريديـن منـي أيتهـا الآنسـة؟ ولكـن قبـل كل شيء اريحـي بـالي بإعطـائي أخبـارا عـن صحتـك الغاليـة - صحتـي جيـدة، فأنـا أشـكر لـك عطفـك، وأشـعر بالقـوة تـدب في اعضـائي، فـإن هـواء سـاليتو النقـي يُحـي الرميـم الذابـل... - فلـذا لا تـتركي مدينتنـا قبـل إبلالـك تمامـا، والآن مـا رغبتـك؟ - ألتمـس نعمـة، نعمـة العفـو عـن مذنبـة...» - فانتفـض الزعيـم بغتـة. «العفـو، عـن مذنبـة، أتريديـن سـينا؟... - نعـم، هـي، فرفقـا بهـا وبأمهـا!... – آه! مـن

قلبك كم يخدعك، يا أنيسة؟... فإنك الآن تطلبين مني أمرا يستحيل علي أن أهبك إياه، فسيتا خانت، فلا بد من قصاصها لتكون عبرة لغيرها. – ولكنها أختك، وهي ابنة الونسا التي تعبدك عبادة - أجل، وهذا ما يزيد في جرمها... فكان في مقدرتي أن أعفو عن غيرها، أما هي، فذاك لا يجوز... ثم أتنسين يا أنيسة، أنها هي التي سببت لك كل هذه الآلام، وهي التي كادت لك لترميك في المهالك، أنت دون غيرك. كفاها هذا ذنبا لكي تكون أهلا لأفظع العذابات فإن هذا من الذنوب التي لا تغتفر. - بلى، وأنا أغفر لها من صميم قلبي، وأمها التي اعتنت بي اعتناء الأمهات تستحق مثل هذه النعمة ؛ لو رأيت الونسا وما آلت إليه حالتها... - لا حاجة إلى استعطافي! فقد حكمت على سنتا ولا يمكنني أن أرجع عن حكمي، وإلا فقدت سلطتي في عيون رجالي... – كلا! فإنها لن تموت، من لي بأن أرقق هذا الفؤاد وأنال الصفح، وصمتت أنيسة، وصمت دون ميشيل، فرفعت أنيسة يدها ومدتها إلى قلب الزعيم، ورنت إليه بعين تترجرج فيها عبرة، وقالت: «بالحب الذي يعتلج به قلبك، هبني ما أريد...» فما كان من دون ميشيل إلا أن مسك يدها الممدودة إليه بعطف وحنان، فإذا بها حارة، فرمق وجه أنيسة، فإذا به جد فاتن، وقال لها بلهجة متقطعة: «علام تطلبين مني ما ليس لي فيه يد، أتريدين دَمار سطوتي؟ -كلا، أريدك عظيما مشرفا، أريدك ذا سطوة وبأس وفتون... ولكن أما تدري أن الرحمة لها سحر يفوق سحر البطش والقوة؟... – أنيسة!... غلبت

عقـلي، سـلبت إرادتي... فلـك مـا تريديـن، إذا مـا كان في الأمـر بسـط لـك، كـم أنـا ضعيـف إزاءك!..» ونهـض واختفـى قبـل أن تبـدي أنيسـة كلمـة الشـكر، فدهـش موريـس، ورأى دمـوع أختـه تتسـاقط بكـثرة، دمـوع فـرح، لأنهـا نالـت الصفـح عـن مسـببة آلامهـا وأوجاعهـا، ولأنهـا أرجعـت إلى قلـب الونسـا عـزاء أوشـك أن يفارقـه.

الفصل الرَّابع

الوداع

بعد هذا الالتقاء لم تجتمع أنيسة بدون ميشيل إلا مرتين، قبل مغادرتها ساليتو. ولم تشأ زيارته لأنها أصبحت تخاف من قلبها الذي تملكه حب ذاك الزعيم الأروع. ولما أزف وقت الفراق، ذهب الزعيم إليها في غرفتها وسألها عمن بقي لها من أهل وأقارب في فرنسا، وكيف ستتدبر هنالك لتعيش مع أخيها. فأجابته أنيسة: «أما أهلي فقد ذهبوا إلى عالم أحسن، وأنا معي شهاداتي، فسألقي دروسا واكسب ما اقتات به أنا وأخي، فضلا عن أن موريس سيشتغل. وإذا ما ضاقت بنا الحال، سنبيع الشاتنيل، ملكنا. فقال موريس «مسكينة شاتنيل إرث الأجداد ستفلتين من أيدينا!..» فتأثرت أنيسة ودمعت، فشعر دون ميشيل أن هذه الدمعة قد ألهيت شغاف قلبه، فأخذ يفتل شاربيه بجدة، محدقا في وجه أنيسة، كأنه يريد التهامه، وقال لها: «أنيسة!، أتأذنين لي أن أقدم لموريس هدية، قليلا من الذهب، فإنك رأيت أن عندي منه الشيء الكثير، ولن يفقرني مهيا أخذ...» فلوت أنيسة بيدها: «كلا، وأنا شاكرة لك أفضالك ولطفك، والأفضل أن نتعب لنعيش، فالعيشة هكذا الذ... فكم من الناس يبيعون أرزاقهم إذا ما ألجأتهم الحاجة إلى ذلك، فنحن من هذا العدد. - نفسك أبية، يا أنيسة، ودهشني منك هذه الشهامة، التي لم أسمع لها قط مثيلا... وعجيب الايمان الذي غرزها في نفسك. هل كل المسيحيين نظيرك؟» فشخصت إليه بطرف رصين. «أي نعم، فنحن في أمان واطمئنان، ما دمنا نتكل على الأب الذي في

السماوات فهو الذي يغذي فراخ الطيور وهي لا تزرع ولا تحصد، فكيف يغفل عن أولاده الذين اشتراهم بدم ابنه؟ فهو تعزيتنا في المصائب، وقوتنا في المحن، وغبطتنا في السماء». وصمتا دقائق غاصا فيها في حجر من الافكار العميقة، كأن دون ميشيل في عالم الحلم والخيال، أمام هذه المبادئ التي لم تدر له قط في خلد، وما خرج من صمته إلا ليقول: «ألا تبيعيني شاتنيل، عوضا من أن يشتريها غريب؟ - بلى، فأنت لست بغريب عندنا، وتورد خداها!... فأنا شاريها، وعلي بذلك عهد...» فغص قلب دون ميشيل بالعواطف التي اجتاحته، وخاف أن يفتضح ما يصاول قلبه من حب يحاول كتمه، فحياها فجأة وتركها. فألحقته بصرها، وأفكارها في هيجان واضطراب، تتجاذبها العواطف من كل صوب، كأن قلبها يرفرف في قفصه يريد الطيران ليلحق بالزعيم الذاهب... ولما حان وقت الفراق، وأعدت أنيسة عدتها، قامت تودع ساكني المعسكر. فأهوت الونسا على يديها توسعهما تقبيلا، وتبللهما بالدموع، واعدة حفظ الذكرى والشكر، ما دام في قلبها نقطة دم تجول. فضمتها أنيسة إلى صدرها وطبعت على جبينها قبلة حب ووداع. ولما خرجت من غرفتها التي ذاقت فيها ساعات ألم كبير، تخللها بعض الأحيان فترات فرح عذب، من جراء ما لاقت من حفاوة وإكرام من الزعيم ورجاله، رأت شارل وبولس واقفين في انتظارها وقد رسمت على محياهما علامات الحزن والاكتئاب، فبادرها بولس بلوعة: «أهكذا يا أنيسة، تذهبين وتتركيني؟..» فصمتت أنيسة متأثرة، ولم تحر جوابا. فأردف بولس: «كان عليك، على الأقل؛ أن تتلبثي لكي تتمي تعليمي بمبادئك، فانضم إلى الكنيسة التي اقصتني عنها الاشتراكية المشؤومة.

ثـم لمـاذا هـذه السرعـة، فابقـي عندنـا فالـكل هنـا يحبـك، كأنـك المليكـة المتوجـة، والبقيـة لـك عبيـد. - سـنلتقي في باريـس، يـا بولـس، وهـذا أحـلى، فـدون ميشـيل لا يحسـبك محبوسـا، فسـتأتي سـاعة الحريـة. - الحريـة! فأنـا حـر هنـا، ولا يروقنـي أن ارجـع إلى باريـس إلا كعامـل في جمعيـة اخـوان العـدل، لأكيـد لهـؤلاء الاشـتراكيين الضخمـين، وسـأزور إذ ذاك السـيدة أنيسـة، والسـيد موريـس في بيتهـما...» وفيـما هـم يتكلمـون توجهـوا نحـو الرافـع وكل سـكان سـاليتو خرجـوا لـوداع الآنسـة الفرنسـية التـي نالـت حظـوة كبـيرة في عينـي الزعيـم، ووجـدوا دون ميشـيل في انتظارهـما جنـب الرافـع. فنـزل أمامهـا لأنـه سـيرافقهما مـدة، مـع بعـض رجالـه. فـودع أنيسـة وموريـس كل الواقفـين هنالـك. وأخـذ الرافـع يهبـط بهـا رويـدا رويـدا وأبصارهـما لا تفارقـان المدينـة العجيبـة المتلألئـة تحـت أشـعة الشـمس الشـارقة، وأطالـت نظرهـا إلى خيمـة الزعيـم الرائعـة... ولم تتمكـن مـن منـع دمعـة تسـقط حزنـا عـلى مـرارة الفـراق... إلا أن أنيسـة لم تنشـأ أن يرافقهـا دون ميشـيل، فوقفـت تودعـه بينـما هـو يجتـلي محاسـنها لـكي تنطبـع في عينيـه فـلا يعـود ينسـاها. وكيـف ينسـاها مـا دام لـه قلـب ينبـض... فمـدت إليـه يدهـا، وهـي شـاخصة إليـه، بكمـد عميـق ؛ وهمسـت بعـض كلـمات لم يفهـم منهـا إلا كلمـة «أشـكرك» لأن الغـم قـد نـال منهـا وخنقتهـا العـبرات... فأمسـكها دون ميشـيل وتلجلـج «آه! لـو تبقـين عنـدي... - أنـت تعلـم أن ذاك مسـتحيل، فوداعـا. وداعـا..» وزفـرت زفـرة محرقـة، فعجـل دون ميشـيل في لثـم أناملهـا الناعمـة، وتركهـا ومسـك يـد موريـس وهزّهـا، قائـلا: «وداعـا يـا عزيـزي، فـلا تنـس صديقـك، ولا تخـش مـن منـاداتي وقـت الحاجـة، فسـأكون بالقـرب منـك...» ثـم تحركـت القافلـة وامتطـت

أنيسة بغلة راحت تُحضر بها، ودون ميشيل واقف يتبعها بنظره إلى أن اختفت عن العيان وراء الجبال الشامخة، فأمر يده على جبينه يمسح العرق المتقطر، متمتم: «لقد طويت صفحة من حياتي، صفحة مليئة بالأحلام اللذيذة، وها هي تنقشع عن خيبة فظيعة وانخذال مرّ..» وتسلق الرافع من جديد، وتوجه نحو خيمته غائصة في بحر أفكاره، متسائلا عن نزاهة أعماله، وبراءة نياته، لأن أنيسة قد عكرت خواطره، وأرته غاية اسمى، وصورت له سعادة أعذب، لم يذق لها طعما منذ ما فهم معنى الحياة. فمن المحق في آرائه؟ أأنا بعدلي الصارم، أم هي برحمتها الفائقة ومبادئها السامية؟..

الفصل الخامس

اللِّقاء

مـضى عـلى أنيسـة سـتة أشـهر وهـي في صحبـة الكونـت دي ميرابـو، ولم تَفِـه بكلمـة عـما شـاهدته وسـمعته في تلـك الأصقـاع النائيـة بحسـب الوعـد الـذي أبرمتـه لـدون ميشـيل الزعيـم. إلا أنهـا أخـبرت سـان اندريـا قتـل مـع كل أفـراد البعثـة ومـا خلصـت هـي وأخوهـا إلا بعطـف خـاص مـن الزعيـم الـذي حـن عـلى شـبابها فتركهـا يتمتعـان مـن الحيـاة. إلا أن النـاس لم يرضـوا بهـذه الأسـباب، وأنكـروا عـلى أنيسـة وموريـس تكتمهـا الزائـد، فاتهموهـما بالاشـتراك مـع اخـوان العـدل في قتـل اندريـا وصحبـه، ورمـوا أنيسـة بأشـنع التهـم، وهـي تحتمـل بصـبر وحـزم، لأنهـا لا تريـد أن تخـون دون ميشـيل... غـير أنـه لم تطـل هـذه المشـاحنات، بـل قـد انقلبـت فجـأة لهجـة الشـانئين الشـاتمين، تحـت عامـل خفـي، لم يكـن في الحسـبان. فعـادت إلى الأخويـن راحتهـا، واطمأنـت نفسـيهما وكفـت عنهـا هـذه الألسـنة الحـادة اللاذعـة. أمـا أنيسـة فلـم تجـد عنـد الكونتـس كل مـا كانـت تتوخـاه مـن الراحـة، لأن سـيدتها كانـت عجـوزا صعبـة الأخـلاق، ثائـرة الطبـاع، وابنتهـا المركيـزة سـافير لا تقـل عنهـا فظاظـة وخشـونة، فكانـت تخاصـم أنيسـة لصغـار الأمـور وتنفـث حزازتهـا في كلام. جـاف، وعربـدة خشـنة. وأنيسـة مـا زالـت رضيـة الأخـلاق، دمثـة الطبـاع مـع رقـة في الشـعور، ولباقـة في المعـاشرة؛ فاعتـادت أن تأخـذ الأمـور بالملاينـة والملاطفـة، فتُغـضي عـلى القـذى لئـلا تحنـق سـيدتها. فلـذا أحبتهـا هـذه حبـا جـما، فرغبـت أنيسـة في البقـاء عندهـا غـير مكترثـة بأطباعهـا الشكسـة، فكانـت حياتهـا تمـضي منظمـة

متساوية، بعيدة عن ضوضاء العالم. وغوغاء المدينة، لا تخرج إلا نادرة. وعندما تنتهي من مهمات خدمتها تقبع في قعر حجرتها تلتهم الكتب، أو تعرف على المزهر ألحانا شجية.

وكان موريس، حالا بعد وصولها، قد أرسل إلى دون ميشيل كتابا ينبئه بوصولهما ويكرر عليه عبارات الشكر والوداد، وقد استلما منه ردا يسيل رقة وعذوبة، إلا أنه لا يذكر اسم أنيسة إلا في السلام الأخير...

وحدث ليلة ما، إذ كانت أسرة ميرابو مرتبكة في أمر زفاف إحدى بناتها أن دخلت أنيسة إلى غرفتها بعد انتهاء شؤون خدمتها، وجثت أمام الصليب لتقرأ فصلا من كتاب الاقتداء بالمسيح، بحسب عادتها، ثم ذهبت إلى سريرها لتنام، وما أعظم ما كانت دهشتها عند ما لمحت على الوسادة رسالة في غلاف مختوم، فتساءلت عما يكون هذا. فأخذته بيد مرتجفة وفضته برعشة كادت تفقدها الشعور لما رأت على طرف الورقة شعار اخوان العدل أصحاب مدينة ساليتو، والشمس المشرقة على خيمة الزعيم، فوجمت سادرة، ثم ارتمت على الكرسي وعلقت تمر بإلحاظها على الأسطر بسرعة خاطفة، يقطعها أحيانا الوجل والخوف، ثم يجريها الشوق والحب، لأنها من يد دون ميشيل... فإذا فيها: «عزيزتي، اغفري لي عدم اعتنائي بهذه الأسطر، ولكني أرى من الضروري أن أعلمك بأني سأحضر غدا حفلة زواج ابنة عمي، الكونت سافير. أنبأتك حتى لا تظهري على وجهك الارتباك والحيرة لدى رؤيتي، ولكي لا يعجب الناس من إني أتكلم مع آنسة لا أعرفها. سأقص على

الحضـور قصـة السـيارة التـي كانـت أول عهـدي بـك. وفي الختـام تقبـلي فائـق احترامـي. عبـدك وأسـير حُبـك الكونـت مارسـيل. فـإلى اللقـاء».

وقعـت أنيسـة في ذهـول، فـأي علاقـة لـه بهـذا البيـت؟ أو أن التدابـير أبـت إلا تعذيبهـا. سـتراه مـن جديـد... وطفـرت في قلبهـا عاطفـة فـرح، حاولـت أن تسـتنكرها زاعمـة أنهـا مـا كانـت انتمـت إلى هـذه الأسرة لـو درت أن لـه معهـا صلـة، ثـم نظـرت إلى السـماء. «إلهـي، قـوني عـلى احتـمال العاصفـة التـي سـتجتاح قلبـي». وارتمـت عـلى سريرهـا، وعينهـا تدمـع دمـع الخـوف... والحبـور، ونامـت وهـي تـود أن تحلـم بـه...

وفي الغـد، بينـما أنيسـة دائبـة عـلى شـغلها بالقـرب مـن الكونتـس ميرابـو، دخلـت ابنتهـا جانيـت، وعيناهـا تلمعـان فرحـة، وخداهـا محمـران متـوردان: «سـيأتينا ضيـف آخـر، لحضـور الزفـاف، الكونـت مارسـيل، فهـو الآن في باريـس، وقـد زار أبي في الصبـاح، وسـيعود مسـاء ليقـدم إليـك تحياتـه واحترامـه. - آه! أنـا أفهـم الآن سر هـذا الوجـه المنبسـط البشـوش... قالـت الكونتـس مازحـة، وإني آسـفة كل الأسـف أن تأخـر وصولـه، وإلا لكنـت طلبـت إليـه أن يقـف ازاءك خـدن الـشرف... غـير أن السـيد ادمـون ظريـف أيضـا...» فهـزت جانيـت رأسـها، وقالـت باسـمة: «كلاء، فالبـون بينهـما شاسـع!... - وأيـم الحـق، إني لا أعـرف رجـلا يضاهـي الكونـت مارسـيل ظرفـا وفتنـة، فالسـحر يرشـح مـن كل حركاتـه وسـكناته، وكل مـن يقربـه يعبـده ويهـواه... - حقيقـة، فهـو يشـع جـمالا وكياسـة، ولا أدري منبـع هـذا السـحر، أنـا أعلـم شـيئا أكيـدا أنـه يجـذب العقـول ويسـحر القلـوب... -

يـا ليتـه يسـمع مـا تقولـين، لـكان سر وانبسـط، فاذهبـي الآن وتبرجـي بمـا لديـك مـن أنـواع الزينـة، والبـسي فسـطانك الأزرق فهـو بـك أليـق، فتـبرز فيـه قامتـك هيفـاء فاتنـة، وضعـي عـلى رأسـك غـير هـذه القبعـة، وهكـذا تفتنـين لُبـه!...» فامتعضـت جانيـت مـن هـذه اللهجـة المازحـة، وغـادرت الغرفـة غاضبـة، مقروصـة...

وأنيسـة في كل تلـك الغضـون صامتـة تصغـي إلى هـذا الحـوار بانتبـاه، فلـم تضـع منـه حرفـا واحـدا، وفكـرت في نفسـها: «مـا لـدون ميشـيل إلا أن يقـول كلمـة فتصبـح جانيـت لـه قرينـة.. مسـكينة جانيـت، فهـي مغـدورة ككثـيرات أشـباهها، فإنهـا لا تـدري مـن هـو الكونـت مارسـيل، أو بالحـري أنهـا تجهـل أن لهـذا الرجـل شـخصيتين ولا تـدري منهـا إلا شـخصية الكونـت، وتجهـل بتاتـا شـخصية الزعيـم». مـع ذلـك، فأنيسـة قـد لبثـت تطـارد الأشـواق التـي تتـوارد تـترى إلى فؤادهـا، وقـد احتدمـت في دماغهـا حـرارة شـبيهة بالحمـى لفـرط فكـرة اللقـاء. ولمـا دقـت السـاعة الرابعـة، خلـت السـيدة سـافير وبناتهـا بـاب البهـو الكبـير أمـام دون ميشـيل، الـذي تقـدم مـن الكونتـس ميرابـرو وانحنـى أمامهـا لاثمـا أناملهـا. أمـا أنيسـة، فانـزوت في طـرف مـن البهـو صامتـة واجفـة وقلبهـا يجـب شـديدا وترسـل النبضـات المحتدمـة الـدم إلى وجنتيهـا فيوردهـما، وهـي تختلـس إليـه نظـرات يمازجهـا الحيـاء والفـرح لمـا التقـت عيناهـا بعينيـه. وبعـد أن اسـتتب بـدون ميشـيل المقـام، لفـت إليهـا أنظـاره، وقـال: «إذا لم يتمنـى نظـري، ألسـت أنـت تلـك الفتـاة التـي عرضـت بحياتهـا يومـا لتخلـص طفـلا كادت تميتـه سـيارتي في شـارع باريـس.. وأنـا أيضـا يلـوح لي أني رأيتـك في تلـك الآونـة الصعبـة». فثبتـت أنيسـة ملامحهـا لتلعـب بلياقـة ومهـارة هـذه المهزلـة التـي دبرهـا

دون ميشيل، ليذري الرماد على وجوه الحاضرين... فاطرأ دون ميشيل شجاعتها ومدح شهامتها، خجلت، وانتهزت أول فرصة سنحت لتختفي عن العيان وتترك دون ميشيل في الحديث مع قريباته. وبعد انتهاء الزيارة ودع الكونت أنيسة بتحية، دون أدنى كلمة، إلا أن جانيت قد ساءها أن تقع عينا الكونت على أنيسة. وقالت إلى السيدة ميرابو: «أما كان يمكنك أن تُنحي خادمتك، عن وجه ابن عمي، لأنه يجب أن نكون دائما على حذر من هؤلاء الفتيات المسكينات الجميلات، فإن في جمالهن اغراء، وفي فقرهن حافزا على التودد إليهن، ونحن لا ندري ما يجول في خاطر هذه... ولا ما خطر على بال ذاك...!»

وفي الغد بعد حفلة الاكليل، ومأدبة العرس، وقف دون ميشيل أمام أنيسة وسارقها بعض كلمات: «أتدرين لماذا أنا هنا؟ - نعم ولا ارتاب في السبب - فقط لأحظى بكلمات قلائل أبادلك فيها سلامي، ثم إن لي أمرا أود اطلاعك عليه، فمتى يتاح لي لقياك؟ - كيف تراني وفي أي مكان فهذا صعب لا بل مستحيل. - اسمعي إني أعرف أن موريس سيأتيك نهار الأربعاء، وستخرجين معه للنزهة، حسب العادة، فعيني لي مكانا ألقاك فيه. - كلا، يا دون ميشيل فهي طريقة عوراء ستثير الظنون، وأنا أشفق على شرفك. - لا تخافي، فأنا قد أريتك من سلوكي السابق ما يوطد ثقتك في وما لك إلا أن تحددي مكان حيث نحن مجهولون وهكذا إذا ما اجتمعنا فلا نطلق علينا ألسنة الناس، وأنا أظن أن احسن محل هو بستان الملك في فرسايل، وهنالك سأنتظرك، وأطلعك على أشياء تسُرك ولأجلها أتيت ههنا. - هكذا يجوز، ولكن كيف أدخلت إلى غرفتي هذه الورقة منذ أيام؟ - بواسطة خادمة

السيدة سافير، فهي من جمعيتنا. - دائما هذا التجسس الشائن، فهذا مما يغيظني فيك يا دون ميشيل». فنظر إليها بأنس ولطف، وقال: «مهلا يا أنيسة، فإنك قد غلبت وسطوت على... فلأجل حبك سيموت ملك الاند، وستفنى جمعية اخوان العدل ولن يبقى في إلا الكونت مارسيل... فرفعت إليه أنيسة طرفا ذاهلا فيه سرور وفيه اندهاش: «أصحيح ما تقول: - أي نعم، هو عين الصدق، فكل شيء في سبيلك رخيص، فأنا فهمت إني ضللت الطريق ورأيت غروري، وأنا أرجع عن غيّ، وبعد ذاك، لا أظنك ترفضين مني زوجا لك...» فشعرت أنيسة كأن الدنيا تدور بها، وهاجمها ضرب من الصراع، وغشت عينيها طفاوة صعدت إليها من أعماق الفؤاد الخافق، فإذا بها مسترخية، وساقطة بين ذراعي دون ميشيل، فضجت الغرفة وارتجت، وعلت الأصوات، أما دون ميشيل حمل أنيسة إلى غرفة مجاورة حيث دلفت للحال السيدة سافير وابنتها جانيت، وكل الحاضرين لاحظوا الاصفرار الذي علا وجه الكونت مارسيل وكأنهم تحدثوا عن ذاك الشحوب... وجانيت أيضا كانت تراقب كل هذه المحادثة بين دون ميشيل وأنيسة، فرأت وجه ابن عمها، ورأت تأثر الخادمة وانفعال نفسها أثناء الحديث وقبيل الاغماء، بيد أن الاغماء لم يطل، فنهضت أنيسة معتذرة عن الانزعاج الذي أحدثته، وطلبت أن تنفرد في غرفتها للراحة والاستجمام. فذهبت تسترجع بالنوم ما فقدته من القوة والجأش وغادرها دون ميشيل ليواصل حضور الحفلات.

وبعد مضي ساعة افتقدت السيدة سافير أنيسة في غرفتها، ولما عادت سألها دون ميشيل، كيف حال الفتاة؟ فسبقت جانيت أمها، وقالت:

«عارضا لا شأن له ولا خطورة، يا دون ميشيل، ولا يستحق منك هذا القلق!..» وابتسمت بعبث ومزاح. فأجابها دون ميشيل بأنفة وإباء: «عفوا يا آنسة، يحق لي أن اسأل عن حالها، فهي فتاة أهل لكل كرامة واحترام، ويا ليت من يحسدها يتشبه بها!» وشزرها بلمحة غضب واشمئزاز... فعضت جانيت الأنامل ووجمت حزينة كئيبة.

الفصل السَّادس

السَّعادة

التقى دون ميشيل بأنيسة وموريس في بستان الملك، في فرسايل، وفقا لما قرراه قبلا، وبعد التحية أسرع دون ميشيل في شرح حاله بدون تمهيد، قال: «منذ ما فارقتني، أيتها الآنسة، كنت فريسة الهواجس، فاشغل الفكر مليا، في حياتي وأعمالي، وأنعمت النظر في جمعيتي وغاياتها وأعمالها والوسائط التي تتذرع بها لنيل ما تتوخى من ظلف الظلم ونشر العدل، خالجتني الشكوك وساورتني الظنون في نزاهتها وبراءتها، وما عدت انظر إليها بعين الراحة والاطمئنان، كما كنت أفعل من قبل. فقصدت في ليما إلى أحد الكهنة العالمين من أثق بهم كل الثقة، وعرضت عليه شكوكي باسطا يديه لواعج قلبي وهواجس ضميري، فأجابني «بأن الغاية التي أرمي إليها شريفة، وسامية، أنا أطلب شيئا مستحيلا، لأني أطلب تغيير الحياة البشرية، مقررا لي بأن الجور والظلم سيظلان دائما على هذه الأرض ما دام يعمرها الإنسان الموبوء الطبيعة من جراء السقطة الجدية. وجلّ ما أنال من أعمالي وبطشي، إني أبقي الرعب في قلوب الناس، والرعب ليس من وسائل الاقناع. وإذا ما ارتدعوا عن غيهم، فذلك الوقت، حتى يخف عنهم كابوس الخوف، فيسترسلون إذ ذاك في ظلمهم نجاسة تفوق ما كانوا عليه قبلا. ثم قال لي: «من وكل إليك أمر اصلاح الشعوب وردعها عن المظالم، فإن السلطة مخولة من الله، ولا أرى أن الله فوض إليك اصلاح غيرك. وإذا ما أراد كل من جالت في قلبه عاطفة الشرف نظيرك، أن يقوم في قمع الظلم،

لانتشرت الفواحش وعمت الفوضى فيعود الأمر وبالا على الانسانية، ثم أن العقل لا يرضى ولا يبرر أبدا هذا التجسس المعيب الشائن، الذي يدأب عليه اخوان العدل حتى في صميم الأسر والعيال، إلى ما هنالك من المغامز التي تنافي العدل الذي تريدون نشره... وأنا كنت أشعر بهذه الخواطر إلا إني أسكت ضميري وأخدته، وما ثُرت أمامك عندما رميتني بكلماتك القاذعة لما اتهمتني بالتجسس، إلا لأنك نتأت جرحا مضمودا. أما اليوم يا أنيسة، فأنا مستعد بأن اتخلى عن كل شيء، وأنا أنكر حياتي الماضية، فسأطلق رجالي، وأحل الجمعية، وسأعود إلى عيشة هادئة في ظلال بيت سأسكنه مع من ستكون شريكة لحياتي... وانقطع عن الكلام حادجا وجه أنيسة، فقالت وقد أبرقت أسرتها وتهللت، ورفعت عينيها إلى السماء: «شكرا لك يا ربي...» فقال دون ميشيل: «رضاك هو سعادتي، ثم لا تنسي أن الفضل يعود إليك فأنت التي بذرت الشكوك في نفسي وها هي قد انبتت خلاصي، فقد رأيت النور».- وماذا ستصبح ساليتو ٢ - ساليتو يؤلمني أن أتركها، ولكن ما ساليتو التي أفقدها أمام الكنز الذي أجد؟... فانسي ملك الاند الذي مَقَتِ أفعاله، وأنكرتها، ولا تعودي ترين في إلا الكونت مارسيل، رجل باريس والحضارة. ولئلا أغايرك في معتقداتي فسأخلو إلى دير الاكباب على درس التعليم المسيحي، وبعد اقترانا سأبذل كل ما وهبني الله من المال للأعمال الخيرية، فانشر الخير بقدر ما نشرت الشر، وسأتخلل بمالي من مركز في الهيئة الاجتماعية، إلى الأوساط العالية لأبث العقائد المسيحية، مقدما لهم نفسي مثلا، إذ كنت ضالا مثلهم في مهامه الاشتراكية والشيوعية، وقد وجدت الحقيقة، ولا حقيقة إلا في الأمان،

لأن الايمـان هـو أسـاس الفضيلـة والسـعادة».

مـلأت الدمـوع عينـي أنيسـة، وهـي ترنـو إلى دون ميشـيل مندفعـا في كلامـه. «أتبكـين أيضـا، يـا محبوبتـي، غـير إني فـرح لأني عـارف أنـك تبكـين عـن فـرح واغتبـاط.» - أي نعـم، أنـا فرحـة، لأني أحظـى الآن مـا قـد كـثُر عـما تمنيتـه في سَر قلبـي.... فأتـم الآن تثقيفـك، وقـرب اللـه يومـا اجتمـع فيـه بـك... وتـوردت وجنتاهـا، وجلسـا هنيهـة صامتـين يتمتعـان في هـذه الدقيقـة الحاليـة، ثـم قالـت أنيسـة: «لنذهـب الآن فـإن السـيدة ميرابـو أوصتنـي ألا أطيـل الغيبيـة... - كـم اود أن تتخلـصي منـذ الآن مـن هـذا الاسـتعباد، - أليـس هنالـك اسـتعباد، فالسـيدة لطيفـة معـي كل اللطـف، لا يليـق بي أن أتذمـر مـن صعوبـات طفيفـة ألاقيهـا، بينـما غـيري يتجـرع بصـبر كبـير المصائـب... - لكـن، إني رأيـت أن جانيـت ابنـة عمـي ليسـت راضيـة معـاك، - وأنـا أيضـا، رأيـت ذلـك منـذ زمـن غـير طويـل فضـلا عـن أنـه لا علاقـة لي معهـا، - نعـم ولكـن أنـا يهمنـي أن أراك هانئـة، فلـذا سـأبذل الجهـود لـكي تصبحـي بـأسرع وقـت الكونتـس مارسـيل... وكـم يمُضنـي أن أقـف ازاءك موقـف الغريـب آن اختـلافي إلى بيـت عمـي، أتأذنـين لي بالكتابـة إليـك أحيانـا؟ - الأفضـل أن تمتنـع عـن ذلـك إلى وقـت خطبتنـا الرسـمية، - مـا أقسـاك... أتحتملـين بـأن يـدوم عـذابي سـنة كاملـة؟ فعـسى أن يحسـب اللـه لي ذلـك أجـرا...

- ولكن يا دون ميشـيل، ماذا حل بالونسـا؟

- هـي في باريـس عنـدي، وسـيتا قـد توفيـت منـذ شـهر، والونسـا تشـتاق إلى رؤيتـك، كـما يـود ذلـك شـارل وبولـس...

- وأيـن هـما؟ بالحـق أن شـارل لطيـف، وبولـس مـا أخـف روحـه وأدمـث أخلاقـه.

- أمـا شـارل فـلا يـزال بـين كتبـه، وبولـس لا يفارقنـي فهـو يعبـدني عبـادة، وبقيـة الرجـال رجعـوا إلى أوطانهـم بعـد أن حملتهـم مـن الذهـب مـا شـاءوا.

ثـم نهضـوا وطبـع دون ميشـيل عـلى يـد أنيسـة قبلـة مشـغوفة، وضـع فيهـا كل مـا في قلبـه مـن العواطـف المتدفقـة الحـارة، جـرت في عروقهـما مسـير الكهربـاء مرسـلة الـدم إلى وجههـا فاحمـرّ، وزادهـا سـحرا وفتنـة.

ثـم افترقـا، إلا أن القلبـين مـا زالا متحديـن يتناجيـان في البعـاد فيتـزاوران في الأحـلام إلى أن مـضي العـام أو كاد، وقـضى دون ميشـيل سـنته في اتقـان التعليـم المسـيحي ومزاولـة الأعـمال الخيريـة تحـت إدارة رجـال عرفـوا بالغـيرة والفصيلـة، ومـا كاد ينـصرم العـام حتـى هبـأ دون ميشـيل كل شيء لليـوم الفريـد الـذي يحظـى بـه بمنـى قلبـه...

فنـي صبـاح السـادس مـن حزيـران (يونيـو) قرعـت الأجـراس برنـات حماسـية جارسـة، وسـار في الشـارع موكـب حافـل تجانبـت فيـه السـروات والأشراف مـا بـين ضـم الزهـور وباقـات العطـور، تبـث في الفضـاء أريـج

الحـب والعفـاف، وفي وسـط الحفـل الكونـت بجانـب الآنسـة دي سـاكس، يسـيران عـلى مهـل ودلائـل الحبـور منشـورة عـلى محياهـما الجميلـين، وهكـذا اتحـد القلبـان، وامتزجـت الروحـان.

وسـكن الزوجـان في قـصر فخـم، أصبـح مـأوى للفقـراء وملجـأ للبائسـين، قـدرت عليـه بـركات السـماء، وآنسـه بالبنـين، وعـاش الزوجـان في هنـاء وسـعادة، لأن الرحمـة عـلى الفقـير المسـكين، تسـتجلب آلاء اللـه رب المراحـم والخـيرات.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي